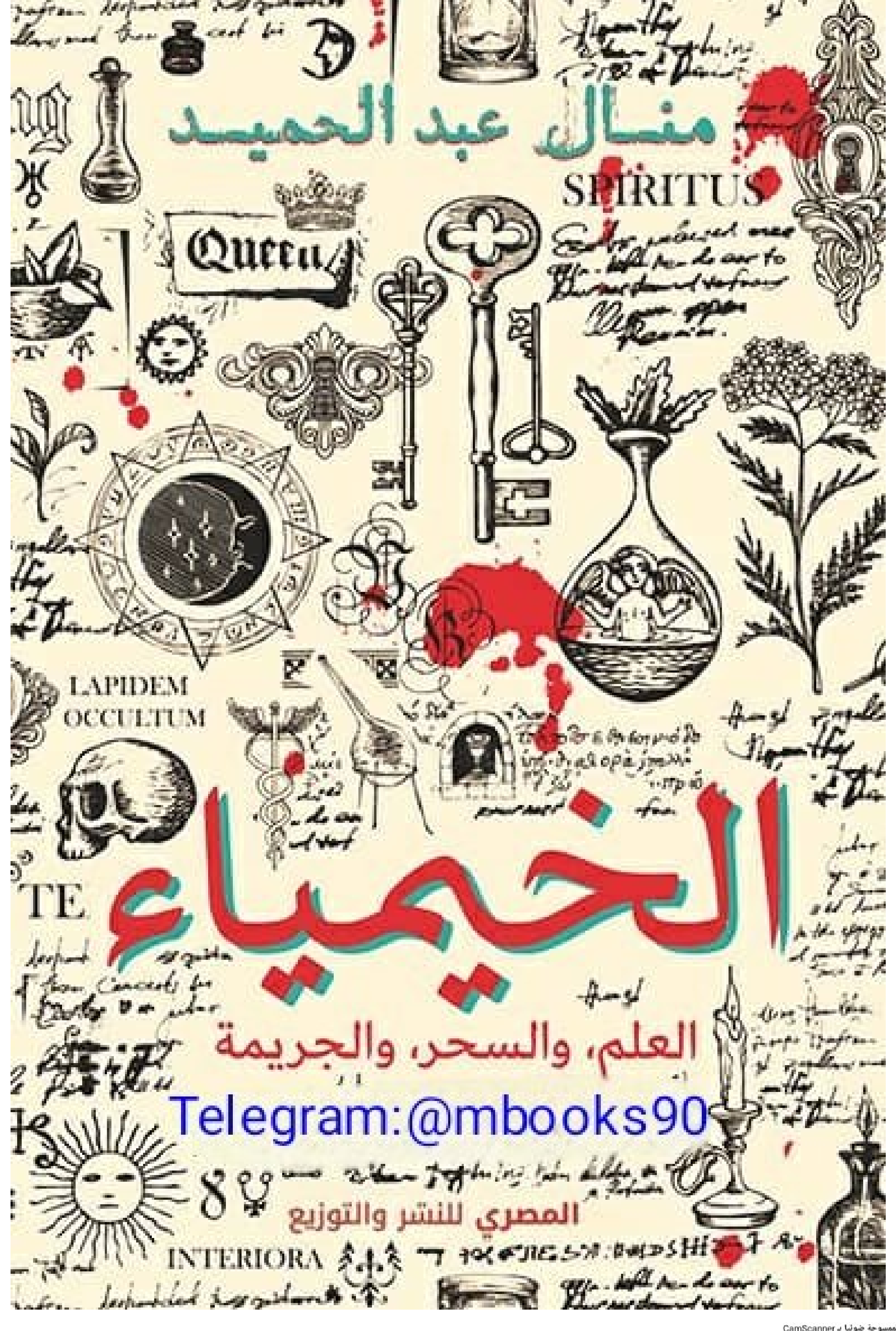


منال عبد الحميد
SPIRITUS
Queen
LAPIDEM
OCCULTUM
الخيمياء
TE
العلم، والسحر، والجريمة
Telegram:@mbooks90
المصري للنشر والتوزيع
INTERIORA

مقدمة

الخيمياء

(المصطلح وأصله ومعناه)

الخيمياء (Alchemy)

ارتبطت هذه اللفظة في الأذهان دائمًا بالسحر، أكثر مما ارتبطت بالعلم، وبرغم كون الخيمياء القديمة هي الأم الشرعية للكيمياء الحديثة، فإن الأولى، وبسبب تداخل العلم فيها مع السحر وعلوم الفلك والتنجيم، أصبحت مغموسةً في بحر زاخر من الأساطير التي طغت، في أحيان كثيرة، على حقيقة العلم الموغل في القدم ذاته.

تُعزى نشأة الخيمياء إلى مصر إبان حكم البطالمة الهلينيين لها، وكانت مدينة الإسكندرية، بمدرستها ومؤسساتها التعليمية الرائدة، مركزًا لنشر هذا العلم العجيب، في الأساس كانت «الخيمياء» علمًا يبحث في مفردات صناعة الأدوية والعقاقير والأخلاط وما شابه، لكن بدخول الأهداف السحرية الثلاث إليها صارت الخيمياء هدفًا لتأويلات وقصص مثيرة للدهشة، وضعت الخيمياء القديمة لنفسها ثلاثة طموحات كبرى أساسية:

1. صناعة «حجر الفلاسفة» (Lapis Philosophorum) القادر على تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، وتخليق إكسير الحياة.

2. التوصل إلى إكسير الشباب الدائم.

3. اختراع مذيب شامل لا يستعصي عليه عنصر أو معدن ما.

كلمة «خيمياء» أصّل لها كثيرون، وأرجعوها إلى أصول مختلفة:

1. مصري: فقد كان أقدم تفسير معتبر لمعنى وأصل كلمة خيمياء هو اعتبارها مشتقةً من الاسم القديم الذي عُرفت به مصر إبان عصور حكم قدماء المصريين لها، وهو «كيميت» (km.t‹) (kēm)، الذي يعني: الأرض السوداء، نسبةً إلى تربة وادي النيل الطينية الثقيلة، ويعتمد هذا الرأي على كون أن نشأة الخيمياء غالبًا ما تُعزى إلى

مصر القديمة، ومن ثمّ فليس من المستغرَب أن يكون اسمها مأخوذًا من اسم نفس الموطن الذي ولدت فيه.

ووفقًا لما يراه عالم المصريات «واليس بدج» (Wallis Budge) فإن لفظة خيمياء مشتقة تحديدًا من (khēmia)، التي تعني: فنون مصرية سوداء (المقصود فنون سحرية)، أو تحضير مسحوق أسود، ربما كان يُستخدَم في الأعمال السحرية.

2.رأي آخر يُرجِع أصل كلمة الخيمياء إلى بلاد اليونان القديمة، مقدمًا أصلًا لغويًا قد يكون هو الأساس الذي اشتُقَّت منه تلك التسمية الذائعة الصيت، (χημεία) الكلمة الإغريقية وتنطق (khēmeia)، وأخرى شبيهة بها جدًا وهي (χειμεία) (kheimeia)، وكلاهما تشيران إلى معنًى واحد: سبك المعادن. أما العالم اللغوي الألماني «ماهن» (Mahn)، فيرى أن الترجمة الصحيحة لمصطلح (khumeia): يضع معًا أو يسكب معًا، ومعناه يخلط مادتين أو أكثر.

3.الأصل العربي: هو وجهة نظر معتبرة، برغم أنها تخلط بين مصطلحي خيمياء وكيمياء، على ما بينهما من تفاوت واختلاف، وقد كان العالم العربي الشهير الخوارزمي هو صاحب هذا الرأي، الذي سجله في كتابه (مفاتيح العلوم) قائلًا: «اسم هذه الصناعة، الكيمياء، وهو عربي، واشتقاقه من كمي يكمي، إذا ستر وأخفى، ويقال كمى الشهادة يكميها، إذا كتمها»، وهكذا يكون أصل الكلمة هو (كَمَى) بمعنى سَتَر، لأن الخيمياء كانت علمًا يحجب خلفه كثيرًا من الأسرار والمعارف الغامضة.

4.بينما تمسَّك البعض الآخر بأن أصل الكلمة فرنسي من اللغة الفرنسية القديمة، والمشتقة من اللفظة اللاتينية الوسيطة (alkimie arquemie)، لكن أيًا ما كان أصل الكلمة ومنبتها، فإن المهم هو كيف ومتى وأين نشأ هذا العلم الغامض المثير، وهل فعلًا حقق بعضًا من أهدافه، أو كلها ربما، أم إن طموحات الخيمياء الكبرى ظلت أحلامًا تراود خيال الخيميائيين، وأساطير تحفظها ذاكرة الإنسانية جيلًا بعد جيل.

منذ نشأة الخيمياء قيل إن لها بشكلها الأسطوري والسحري ثلاثة أهداف رئيسة أو عظمى، يُشار إليها غالبًا بمصطلح الأهداف العظمى، أو العمل الأعظم، وتلك الأهداف:

1.تحويل المعادن الرخيصة أو العديمة القيمة إلى ذهب.

2.إرجاع الشباب إلى المسنين وحمايتهم من الموت.

3.العثور على مصدر للحكمة الدائمة والاطلاع على سر الكون الأعظم، وفي المقابل كانت تلك الأهداف الثلاثة تجتمع تحت مظلة «العمل الأعظم» (Magnum opus)، أو «حجر الفلاسفة» (حجر المعرفة) الذي يحقق الأهداف الثلاثة في وقت واحد. قد تبدو لنا تلك الطموحات مستحيلة، أو حتى هزلية، لكن السؤال المهم في تحقيقنا هذا: هل نجح الخيميائيون في تحقيق بعض هذه الأهداف أو حتى كلها، وتحفظوا على السر فلم يعلنوه لأحد؟

الفصل الأول

الخيمياء في التاريخ والأديان

(اللغز المقدس المخبأ في النصوص الدينية،
من طعام الآلهة حتى اكتشاف سر الخلود)

هيرماس الحكيم
أول من خط بالقلم وعلم الخيمياء

«إن أولئك الذين يحملون الضغينة في نفوسهم سوف يحاولون منع الناس من اكتشاف هبة الخلود التي لا تُقدَّر بثمن» من متون هرماس.

عرفته الشعوب القديمة بعدة أسماء، فهو «تحوت» في مصر، وهو «هيرميز» في بلاد الإغريق، كما عُرف باسم «هرمس الهرامسة»، أو «هرمس مثلث العظمة» (Hermes Trismegistus) في اليونانية القديمة، وهو «أخنوخ» في الكتاب المقدس، وهو «إدريس»، كما تنحو بعض الآراء في القرآن الكريم.

شخصية ملتبسة غامضة، ملأت التاريخ إنتاجًا وحكمةً وعِلمًا، وبالمثل تمامًا امتلأت سيرته بالأساطير واللغط والحكايات العجيبة، التي لا سبيل إلى التحقق من غالبيتها.

«هرماس» أو «هرمس» هو الحكيم الأول والمعلم الأول والروحاني الأول، مجَّده المصريون القدماء باسم «تحوت» (Thoth)، وأسندوا إليه مهامًا عظيمةً في الدنيا، اختراع لغتهم الهيروغليفية، وفي الآخرة، إذ كان يلعب دورًا مهمًا في محكمة الموتى، التي يترأسها «أوزوريس»، وكان مخول له الحكم على مدى طهارة قلب الميت وتمسكه بالمثل الروحانية. الإغريق القدماء احترموا ذكرى «تحوت»، ممثلًا في «هرماس» الأعظم، وميزوه بلقب مثلث العظمة عن إلههم الذي يحمل اسمًا مشابهًا، وبالنسبة إليهم كان «تحوت/ هرماس» هو مَن شيَّد الأهرامات، وعلَّم الطب، وقد كان رسول الآلهة ومعلم الحكمة ومرشد الأرواح، وهو مشيد حداق بابل المعلقة، وعلَّم فن الرياضيات الأعظم لفيثاغورس.

وقد جاء لقبه «مثلث العظمة» من الإشارة المقدسة التي كانت تُستخدَم للإله تحوت، الإله الأعظم الأعظم، ورأي آخر ينسب لقبه المبجل إلى كونه جمع بين ثلاث صفات، فهو أعظم فيلسوف وأعظم ملك وأعظم كاهن في كل الأزمان والعصور.

في العهد القديم ظهر «خنوخ» أو «أخنوخ» (Ḫanokh)، الاسم الثاني المفترض

لـ«هرمس»، كشخصية قديمة جدًا يحيط بها الغموض والخفايا، ورد ذكر «خنوخ» في العهد القديم (التوراة) تسع مرات، ست مرات في سفر التكوين، أول أسفار التوراة الخمسة المنسوبة إلى «موسى»، كما ورد ذكره مرةً واحدةً في سفر «أخبار الأيام الأول»، ومرتين في سفر «يشوع بن سيراخ»، كما ورد ذكره ثلاث مرات في العهد الجديد، ووفقًا لسلسلة الأنساب الموجودة في الكتاب المقدس يكون «خنوخ» هو «أخنوخ بن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم»، ويكون هو الجيل السادس بعد «آدم»، والجيل السابع من البشر على الأرض بعد الهبوط من جنة عدن، ويقدم الكتاب المقدس معلوماتٍ قليلةً جدًا عن «أخنوخ»، مثلما تظهر نهايته ملتبسةً وغامضةً إلى حدّ كبير، فوفقًا للإصحاح الرابع من سفر «التكوين» جاءت نهاية «أخنوخ» على تلك الصورة:

«وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ» (تك ٥: ٢).

ووفقًا للتفسيرات المعتمدة للكتاب المقدس كان «أخنوخ» رجلًا بارًا صالحًا، وجاء معنى «ولم يوجد لأن الله أخذه» تقديسًا له، وجعل موته كعودة إلى الحالة الفردوسية الأولى للإنسان، قبل سقوطه في الخطيئة.

أما في الإسلام فقد جاء ذكر «إدريس»، الذي يربطه البعض بـ«هرمس»، مرتين باسمه في سورتي «مريم» و«الأنبياء»، وما ذكرته عنه تلك الآيات إنما يدخل في باب إثبات النبوة له والثناء عليه، كما أثبت وأثني على غيره من الأنبياء، برغم غموض الإشارة إلى موته بلفظ «وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا»، التي قد تكون مجرد إشارة غير اعتيادية إلى موته، لكن كتب التفاسير، وكذلك تراث السنة المنسوبة إلى النبي «محمد» تحفل بتفسيرات وأحاديث، بعضها يضع «إدريس» في مكانة جديرة بالنظر بين سلسلة الأنبياء.

وفي حديث أبي ذر: «إن إدريس كان نبيًا رسولًا وإنه أول من خطّ بالقلم».

وقد قال البعض إن «إدريس» هو نفسه «إلياس»، المذكور في مواضع أخرى من القرآن الكريم، غير أن غالبية الآراء تتوافق على أن «إلياس» هو «إيليا»، الذي عاش في زمن متأخر كثيرًا عن «إدريس»، وكان نبيًا من أنبياء بني إسرائيل في زمن

مملكة إسرائيل الشمالية، بعد موت «سليمان» وتقسيم المملكة.

وموت إدريس في القرآن مذكور بإشارة مقتضبة ومركزة، غير أن ثمة أحاديث نبوية تذكر تفسيراتٍ مشوقةً حقًّا لقصة موتِ أو رفعِ هذا النبي، الذي لا تزال سيرته مثار جدل، ففي رواية للطبري عن ابن عباس نقلًا عن «كعب الأحبار»، «وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا» أن إدريس سأل صديقًا له من الملائكة، فحمله بين جناحيه ثم صعد به، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت فقال له: أريد أن تعلمني كم بقي من أجل إدريس، قال: وأين إدريس؟ قال: هو معي، فقال: إن هذا لشيء عجيب، أُمِرت بأن أقبض روحه في السماء الرابعة، فقلت: كيف ذلك وهو في الأرض؟ فقبض روحه، فذلك قوله تعالى: «وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا».

كما ذكر ابن قتيبة أن إدريس رُفِع وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة، وذكر ابن إسحاق له أوليات كثيرة، منها أنه أول من خاط الثياب.

إذًا نحن إزاء شخصية غامضة أجمع على حقيقة وجودها أتباعُ الأديان الإبراهيمية الثلاثة، لكن اختلفت روايات كل منهم عنها، بالمثل فإن لإدريس أو «هرمس» نصيبًا كبيرًا في الأديان غير الإبراهيمية، أو كما تُعرَف بالأديان غير السماوية، ويأتي في مقدمتها ديانة الصابئة المندائية التي يوجد ضمن قائمة أنبيائها مَن يسمى «دنانوخ»، وهو يقابل «أخنوخ» في الكتاب المقدس، و»إدريس» في القرآن الكريم.

و«هرمس» الحكيم القديم، في مقابل الشخصية الكتابية والقرآنية، ذات السيرة النبوية المثالية المقتضبة، ظهر كصاحب فلسفة كاملة ومجموعة منوعة من الكتب والرسائل التي نُسِبت إليه، وتضمنت تعاليمَ وحكمًا وأقوالًا كثيرة، وقد كان زمنه سابقًا للطوفان العظيم، طوفان «نوح»، لذلك هو يُعدّ المعلم الأول وصاحب الفلسفة الأقدم في التاريخ.

شاعت تعاليم الهرمسية زمنًا، وبلغت أقصى أوْجِها في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، وكانت الإسكندرية بهواها الهليني مقرًّا لدراسات واسعة في أسرار الحكمة الهرمسية، ولكن الهرمسية تلقت ضربةً قاصمةً مع انتشار التعصب الذي تزامن مع صيرورة المسيحية دينًا رسميًا للإمبراطورية الرومانية، فحُرِقت كتبها وأُغلِقت مدارسها وطورِد معلموها، ومع بزوغ الإسلام، ومن ثم ظهور دولته المترامية الأطراف، وتأسيس الدولة العباسية، التي عُرِف بعض خلفائها وعلى رأسهم «هارون الرشيد» وولده «المأمون»، بميلهم إلى العلم والحكمة، ودعوتهم للعلماء والمتكلمين وأصحاب الحكمة إلى الالتفاف حولهم. انتعشت الحكمة الهرمسية انتعاشةً كبيرةً لكن لم يُكتَب لها الاستمرار، إذ عادت الهرمسية وتعاليمها تتعرض للمطاردة والمنع والحظر والاضطهاد، وقد كتب فيلسوف الصابئة «ثابت بن قرة» يدافع عن عقيدة وتعاليم الصبوة الهرمسية دفاعًا مجيدًا عام ٨١٠م، غير أن الخليفة «المأمون» لم يتورع عن اضطهاد والتنكيل بالصابئة، المتبعين تعاليم «هرمس»، عندما مرَّ بهم في حران عام ٨٣٣م، وتأمل ثيابهم وأحوالهم، وعرف طرفًا من عقائدهم وتعاليمهم، فخيَّرهم بين الدخول في الإسلام أو المسيحية، ثم بدأت موجة تنكيل مُمَنهجة ضدهم، بغرض حملهم على ترك عقيدتهم الموغلة في قدمها.

ولكن الانتكاسة المؤقتة تحولت إلى انتصار مؤزر مع دخول أوربا عصور نهضتها، ولجوؤها ضمن مصادر المعرفة التي نهلت منها، إلى تراث الأفلاطونية والحكمة الشرقية القديمة المفقودة، وكان من حسن الحظ أن تكون فلورنسا الإيطالية تحت وصاية حاكم مستنير هو «كوزيمو دي مديتشي» (Cosimo de Medici)، الذي أنشأ أكاديمية لتدريس المعارف الإغريقية والشرقية، ثم أرسل من لدنه من يأتي له بنصوص الحكمة المفقودة، وحدثت ضربة الحظ المأمولة إذ ظهرت التعاليم

المفقودة لمثلث العظمة «هرماس»، فجيء بها إلى فلورنسا، وابتهج «دي مديتشي»، الذي أمر أحد أهم مترجميه وهو «مارشيللو فيتشينو» بالعكوف على ترجمة هذه النصوص المصرية الأصل.

ورغم أنه تأكد في ما بعد أن تلك الكتابات المنسوبة إلى «هرماس» لا يمكن أن يبعد زمن تدوينها عن القرن الثالث قبل الميلاد، وأنها كُتِبت بمعرفة عدد من علماء الإسكندرية وأساتذتها، فإن ذلك لا ينفي الطابع المصري المغرق في القدم الطاغي عليها في جملتها.

كما كان معلمًا وحكيمًا وفيلسوفًا أولًا، فإن «هرماس مثلث العظمات» يعد أيضًا الخيميائي الأول، حتى إن الخيمياء ذاتها تسمى بالفن الهرمسي (Hermetic Art)، وقد ارتبطت سيرته المنسوجة من الأساطير والحكايات البالغة القدم بفن الخيمياء، الذي يُشكّل مزيجًا من العلم والسحر والدين والفلسفة والحكمة، من خلال الأثر المعروف باللوح الزمردي (The Emerald Tablet) أو لوحة «سماراغدينا» (Tabula Smaragdina)، الذي يُنسَب إلى «هرماس».

واللوح يحتوي خلاصة الحكمة القادرة على الحفاظ على المادة الحية إلى الأبد، وأعلنت لأول مرة المبدأ السحري «كما هو في الأعلى كذا يكون في الأسفل» (as above so below)، ويحوي اللوح على طريقة صنع «حجر الفلاسفة» (philosopher's stone)، ويعود أقدم نص مكتوب لتلك اللوحة إلى عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م، وهو ضمن الكتاب المعروف بـ»كتاب بلينوس الحكيم في العلل/ كتاب سر الخليقة»، ووفقًا لمؤلف الكتاب المزعوم «بلينوس» أو «بليناس من تيانا» (Apollonius of Tyana)، فإن اللوح الزمردي كان موجودًا حين العثور عليه بين يدي رجل ميت، تمثال في روايات أخرى، جالسًا على عرش من الذهب، في سرداب يقع أسفل تمثال لـ»هرمس» في مدينته، واللوح يحوي ابتهالاتٍ وصلواتٍ غامضة، وعلومًا طبيعيةً مُشفَّرةً تُفضي، حين فهمها فهمًا تامًا، إلى تحقيق النصر الأعظم الذي يراود الخيميائيين في كل العصور، وهو إنتاج حجر الفلاسفة وخلقه، وهو هدفهم النهائي الأكبر المسمى (Magnum Opus) أو العمل الأعظم.

تُرجِمَت محتويات اللوح الزمردي إلى عدة لغات، منها اللغة العربية التي تعد من أقدم اللغات التي تُرجِم إليها، كما اهتم به علماء أفذاذ كالسير «إسحاق نيوتن»، الذي ترجمه بنفسه، واحتفظ بهذه الترجمة بين أوراقه التي لا تزال محفوظة في مكتبة كلية الملك (King's College) في جامعة كمبريدج، ولم يكن «نيوتن» وحده هو من تأثر بمحتوى اللوح ومادته العلمية السحرية الغامضة، بل لقد أظهر خيميائيو العصور الوسطى كلهم الاهتمام الشديد باللوح الزمردي وما يحويه من حكمة، فظنَّ بعضهم أن اتباع التعليمات الواردة في اللوح حرفيًا قد تؤدي بهم إلى الوصول فعلًا إلى صناعة حجر الفلاسفة، كما تأثر بمادة اللوح الزمردي «روجر بيكون» و«آلبرتوس ماجنوس» و«أورتولانوس» الخيميائي الشهير من القرن الرابع عشر الميلادي.

بقي محتوى اللوح غامضًا، رغم أعمال الترجمة الدؤوبة التي تمت عليه، لكن هل حقًّا يحمل لوح «هرمس» الزمردي وصفة صناعة حجر الفلاسفة، الذي يحلم به كل الخيميائيين في الأزمان كافة؟

الأمبروزيا

حينما تناولت الآلهة طعام الخلود

في الميثولوجيات الدينية القديمة يظهر، بشكل متواتر، مشروب أو لون ما من الطعام المخصص للآلهة، أو يُقدَّم قربانًا للآلهة، وهذا الشراب أو الطعام يتميز بخاصية فريدة: أنه قادر على منح الخلود لمن يتناوله.

فهل كانت تلك الأساطير المتعلقة بأمزجة الحياة الخالدة والشباب الدائم في الحكايات القديمة مصدرًا لأحلام أو ذكريات لانتصارات خيميائية حُقِّقت بالفعل، ثم تلاشت طرق تركيبها وبقيت فقط ذكرى هذا النصر الذي أحرزه علم موغل في القدم، أو الحلم الذي حاول رجال أفذاذ تحقيقه ونجحوا، أو كانوا قابَ قوسين من ذلك؟

في اليونان القديمة عُرِف طعام الأمبروزيا (Ambrosia) بخصائصه الفريدة، وكذلك بحجره على الآلهة وحسب، ووفقًا لما اعتقده الإغريق القدامى كانت طائفة من الحمام تأتي بالأمبروزيا إلى جبل أوليمبوس، إذ تقتات عليه الآلهة، التي وبسبب ذلك صارت مُحصَّنةً من الموت والفناء، كما أن الأمبروزيا كان لها أيضًا خصائص فوق طبيعية ومطهرة استخدمتها الآلهة في أغراض التطهير والشفاء، فـ«هيرا»، زوج زيوس كبير الآلهة، نظفت جسدها بها، كما أن الآلهة «أثينا» أعدت «بينلوب» وجهزتها بالأمبروزيا لتزيل آثار الزمن من جسدها، بمعنى أن هذا الطعام الفريد يؤدي دورَ إكسير الشباب الذي يمحو آثار الشيخوخة ويطهر الجسد الذي يُعمَّد به، ولكل هذه الخصائص الفريدة احتكرت الآلهة الأمبروزيا لنفسها، غير أن بعض البشر طمحوا إلى سلبه، وتقديمه إلى الجنس البشري كيما يصيروا خالدين بدورهم، بهذه الجريمة أدين «تنتالوس» (Tantalus) بن «زيوس» من الحورية «بلوتو»، الذي رحبت به الآلهة على مائدتها في جبل أوليمبوس، غير أنه كان شقيًا فسرق بعضًا من طعام الآلهة، ليعطيه البشرَ الفانيين، ليصيروا خالدين بدورهم، إلا أن جرمه افتُضِح، وبسبب هذا وأيضًا محاولته خداع الآلهة بتقديمه لحم ابنه وليمةً لهم، عوقب في تارتاروس، الجحيم في الميثولوجيا الإغريقية، بأن يبقى إلى الأبد يعاني الجوع والظمأ، فيما يتراءى له الطعام والشراب، لكنه كلما اقترب لينال نصيبًا منهما تباعدا عنه، وتركاه

في معاناته الأبدية.

أيضًا يُعزى إلى الأمبروزيا سر خلود «أخيليوس» (Achilles) بطل الإغريق الشهير، ابن «بيليوس» وحورية البحر «ثيتيس»، التي عند ولادة طفلها عمَّدته بسكب الأمبروزيا على جسده، غير أن والده اعترض، ما دفع الأم إلى عدم استكمال تغطية بقية جسد ولدها بطعام الخلود هذا، وبقي كعبه بعيدًا عن تأثير الأمبروزيا المُخلِّد، وهذا هو أصل تعبير «كعب أخيل» أو «وتر أخيل» (*Achilles Tendon*)، الذي يعني نقطة الضعف لدى شخصٍ ما.

على ناحية أخرى فإن الأساطير الإغريقية تذكر أن من كان يتناول طعام الأمبروزيا لم يكن يحتفظ بدماء بشرية عادية في عروقه، بل بسائل أثيري يسمى «أكور» (Ichor)، ويبدو أن له صفات فريدة تجعله يحتفظ بتأثير الأمبروزيا وشراب الآلهة المسمى نكتار، محافظًا على خصائصهما الفريدة التي تهب الخلود والشباب الدائم، وبصفة عامة يشار إلى الأكور بدماء الآلهة.

أما النكتار (néktar)، فهو مشروب الآلهة، الذي يشترك مع الأمبروزيا في منحهم صفات الخلود والشباب الدائم، وقد كان الأمبروزيا والنكتار متلازمين، وفي بعض الأحايين كانت الأولى تُعدّ أيضًا نوعًا من الشراب، ولأهميتهما الشديدة للآلهة فقد حُرِّم كلا النوعين على البشر، وجعلت عقوبة محاولة تقديم شيء منهما للناس الفانين جريمة خطيرة، يُعاقَب مرتكبها دائمًا بأشد العقوبات وأكثرها قسوة، كما حدث لتنتالوس المغامر الأرعن.

أشربة الخلود: مياه الحياة

وإذا تركنا الحضارة الإغريقية خلفنا ويمّمنا صوب الشرق، حيث قامت حضارات أكثر عراقة وأشد إيغالًا في القِدم من الحضارة اليونانية، وجدنا أصداء الأطعمة والمشروبات التي تهب من يتناولها الخلود، أو القدرة على الاحتفاظ بالشباب الدائم، متوفرة بشكل مثير للانتباه والتفكير.

«السوما» (Soma) و«الهوما» (haoma) مصطلحان يشيران إلى طقس بالغ الأهمية في «الديانة الزرادشتية» (Zoroastrianism)، وهو طقس يُحضّر فيه شراب مقدس، تحت شروط وظروف خاصة، ومن ثمّ يُعدّ تناول هذا الشراب جزءًا من العبادة وفرضًا مهمًّا يؤديه المؤمنون، تتحدث الأفستا كتاب الزرادشتية المقدس، عن الهاوما بتبجيل كبير، وتشير إلى كونه ينمو بطريقة إعجازية، إذ تحمله طيور مقدسة إلى قمم الجبال، والأدلة المتوفرة حول نوع نبات (السوما) تحديدًا غير كافية ومتضاربة، غير أن الأوصاف التي خلعتها عليه النصوص المقدسة تقربه من نبات «الراوند» (Rhubarb)، الذي ينمو بشكل طبيعي فوق جبال إيران، وقد وصفت النصوص المقدسة نوعين من السوما، أحدهما أبيض بلون الحليب، والآخر أصفر، غير أن اللون المشار إليه قد يكون لون عصارة النبات، وليس لون أزهاره، وعلى ذلك فقد يكون النبات أبيض أو أصفر.

غير أنه في القرن التاسع عشر ظهر دليل يجعل التأكد من نوع النبات المشار إليه في النصوص الأفستية بالسوما أمرًا أيسر، إذ إن الزرادشتيين الإيرانيين في يزد كانوا يستخدمون في تحضير شراب الهاوما المقدس نباتًا يسمى «الإفيدرا» (Ephedra)، ويُعرَف في اللغة العربية بالعلندي أو العلندة، وبملاحظة خصائص هذه النبتة يكون مطابقتها بالسوما الزرادشتية أمرًا شبه يقيني، وقد ظهرت نظريات تقول إن شراب الهاوما كان في حقيقته يملك تأثيرات تسبب الهلوسة، غير أن التجارب التي أجريت لإثبات ذلك تمّت على مستخلص النبات المختمر، في حين كانت الطقوس تمارس باستخدام العصارة في حالتها الطازجة، مما يعني أن هذه التجارب في جملتها غير كافية أو مُنصِفة.

كانت عملية تحضير شراب الهاوما تحظى بتقدير كبير وتحدث برعاية عدد كبير من الكهنة وبمظاهرة كثيرٍ من الصلوات، ويبدو مما تبقى من معلومات متناثرة حول هذا الأمر البالغ الأهمية، أن السوما كان يُعصَر ويُسحَق في هاوَنَين أحدهما حجري والآخر مصنوع من الحديد، وبينما كانت تُجرَى عملية سحق عشبة النبات نفسها أو بذارها، كان ثمة كاهن يطوف حول سيقان النبات ستَّ طوفات، مؤديًا في كل مرة صلاة مختلفة تحقق هدفًا ما من أهداف العبادة.

تقدم النصوص الزرادشتية شراب الهاوما كونه شرابًا له خصائص وقدرات غير اعتيادية، كما تخلع عليه كل صفات التقديس والتكريم، وترفعه ليس إلى مرتبة إلهٍ وحسب، بل تعتبره هو خالق الآلهة نفسها وصانع الكواكب والنجوم، كما تشير إلى شراب الهوما الأبيض، وعند تحقق الانتصار الأخير لأهورامزاد، إله الخير والحق، على عدوه أهرمان الشرير سوف يُعطي «الباراهوما» (parahom) المصنوع من الهاوما الأبيض لجميع المؤمنين الصالحين، والذين سيحصلون من خلاله على الخلود.

ويُعدّ «الجاوكيرينا» (Gaokerena) الأصل العظيم للهاوما، وهي النبتة العظمى التي تشفي من جميع الأمراض، كما أن ثمارها تعطي شرابًا سحريًّا يجعل من يتناوله لا يموت أبدًا، أي إنها باختصار النبتة التي تعطي إكسير الحياة.

لم تقتصر الأحلام الخيميائية القديمة على العقائد والطقوس الدينية، بل امتدت حتى الأساطير، فيقابلنا حلم الوصول إلى إكسير الخلود في الأسطورة الفارسية القديمة المعروفة بكأس جمشيد السحرية (Cup of Jamshid)، بالبارثية جام جم (jām-e Jam)، وهو عبارة عن كوب أو قدح أسطوري يُنسَب إلى الملك «جمشيد بن طهمورث بن سيامك بن كيومرث»، الذي ذكرته ملحمة فارس الكبرى المسماة شاهنامة، التي كتبها شاعر الفارسية المعروف «أبو قاسم الفردوسي»، ويظهر «جمشيد» في هذه الملحمة الضخمة كشخصية أسطورية وملك عظيم، يمتد نسبه إلى «كيومرث»، أو «جيومرث» الذي يعد سلفًا أولَ للبشر وجَدًّا أكبرَ للأمم الآرية، وبذلك يعد «كيومرث» في الإفستا الزرادشتية مماثلًا لآدم أول البشر في الكتب السماوية الثلاثة، و«جمشيد» أيضًا يعد مؤسس الكثير من الشنن الملكية التي سار

على هديها الناس من بعده، فهو أول من جهز آلات وأسلحة الحرب، وأول من اتخذ ثياب الكتان، واستخرج المعادن كالذهب والفضة، وهو كذلك أول من احتفى ببداية السنة وعيد النوروز، كما أنه امتلك سطوةً وحُكمًا على المخلوقات العاقلة من غير البشر، فاستخدم الجن وكان يأمرهم فيطيعون، فاستعملهم في نحت الأحجار، وتخمير الطيب كالمسك والكافور، وكذلك يُنسَب إلى «جمشيد» إتمام بناء مدينة «قطيسفون» أو «تيسفون»، العاصمة الساسانية العظيمة المشهورة بالمدائن، وقد حكم «جمشيد» طويلًا، غير أنه بغى وطغى في آخر سِني حُكمِه، لذلك سلَّطت عليه الآلهة روحًا شيطانيةً تسمى الشاهنامة «الضحاك» (Zahhak) أو أزدهاق أو أزيدهاك بالفارسية، وقد كان خليلًا للشيطان وملكًا على دولة كبيرة حاضرتها (بابل)، وهكذا تمكن الأخير من قتل «جمشيد» العظيم، وملك مكانه فزال ملكه ولكن بقيت سيرته تُروَى عبر الأجيال.

يُنسَب إلى «جمشيد» أثرَين مهمَّين، أحدهما سلسلة من القصور والمنشآت القديمة ببرسبوليس، التي تحمل اسم «تخت جمشيد»، وبُدِئ في إنشائها وفقًا لدراسات الآثاريين في عام ٥١٢ قبل الميلاد، في عهد حكم الملك «داريوس الأول»، وهي لا علاقة لها بجمشيد الأسطوري، وإنما حملت اسمه على أغلب الظن لكونها مرتكزةً على أساساتٍ مكونةٍ من صخور هائلة نُحِتت في الجبال نفسها، مما جعل البعض يظنون أنها من عمل الجن، الذين كان يستخدمهم الملك «جمشيد».

أما الشيء الثاني المنسوب إلى هذا الملك الأسطوري فهو الكأس المعروفة بكأس جمشيد، وهي قطعًا مجرد قصة خرافية ولا يوجد أي دليل على وجودها حتى الآن، وكأس جمشيد تتلامس مع الخيمياء وطموحاتها السرية الكبرى في كونها مملوءةً بإكسير الخلود (elixir of immortality) الذي يجعل من يملكه خالدًا لا يدركه الموت أو يحل به الفناء، وقيل أيضًا إنه يمثل نوعًا من قدرات الاستدعاء الخارقة، إذ إن من يتطلع داخل الكأس يرى الكون بسماواته السبع وأجرامه داخله، وصورته الثانية ككرة بلورية تعطي كأسَ جمشيد قدرةً على رؤية المستقبل واختراق الآفاق المختلفة.

وقد خُلِّدت كأس «جمشيد»، سوى الأساطير والقصص الشعبية، في الشعر فأشار إليها الشاعر الكبير «حافظ الشيرازي» في أبيات مشهورة هذا نصها:

جامَ جَمشيدَ، كم تمنّى فؤادي

كشفَ غيبٍ، وأنت فيه مَعادي!

صَدَفُ الأيْسِ جوهرًا ما احتواهُ،

كيف يَمتاحهُ من البحر صَادي؟

زُرتُ شيخَ المجوسِ ليلًا أُرَجّي

كشف سِترٍ عن المُعمَّى المُعادِ:

جامُ راحٍ بكفّه، وطَروبٌ،

يقرأ الكون في حبابها منذ عاد!

مُذ متى كاسُك العجيبةُ فضلٌ

مُذ أقام السّما بِغَيرِ عِمَادِ!

شَعوذَ العقلُ، قبلَهُ سامريٌّ

بالعصا بزّهُ، بِبيضِ الأيادي!

ظهر ادعاءٌ في الأزمنة القديمة أنه قد عُثِر فعلًا على كأس «جمشيد» في أثناء عمليات بناء مدينة برسيوبوليس، وقد خُلِّدت قصة الكأس السحرية بقدراتها الخارقة في قصص وأساطير عدة، منها ملحمة (Amir Arsalan-e Namdar) «أمير أرسلان نامدار»، التي أولع بها «ناصر الدين» شاه قاجار (١٨٣١ - ١٨٩٦م)، وتحكي عن مغامرة عاشتها امرأة تحمل لقب «بانو» أميرة روما أو القسطنطينية، وقد ولدَتْ طفلًا في المنفى، نسبه إلى نفسه تاجر مصري كان يرافقها، غير أن الولد الذي كان يحمل اسم «أرسلان»، عندما شب عن الطوق تعرَّف على أصوله الحقيقية، وتجهز من أجل استعادة حقوقه الشرعية في العرش.

تعود القصة إلى نسخة أقدم بكثير تُنسَب إلى راوٍ، أو إخباريّ بمصطلحات تلك الأزمان، يُدعى «محمد علي نقيب الممالك»، ويعود زمن كتابتها إلى عصر أقدم من تاريخ ظهورها مكتملة في عصر ناصر الدين شاه.

وقد وُحِّدَت أسطورة «كأس جمشيد» بقصة «كأس العشاء الأخير» أو «الكأس المقدسة»، التي تنسب القصص ذات الخلفية الدينية إلى يسوع المسيح، كونه تناول شراب عشائه الأخير مع الحواريين الاثني عشر فيها، قُبَيل محاكمته وصلبه وفقًا للعقيدة المسيحية، غير أن قصة كأس جمشيد وفقًا لرؤية (Henry Gowen) تتميز بطبيعة أقل التصاقًا بالعقيدة والدين مما تمثله الكأس المقدسة في المسيحية.

العجول الذهبية التي عبدها اليهود

هل هي رموز خيميائية؟

لم تنتهِ علاقة اليهودية بالخيمياء عند قصص مصدر ثروة «قورح» الغامض، وعبادة العجل المسبوك من الذهب وشرب «رماده» الممزوج بالماء في إشارة خيميائية واضحة تمامًا، وعند مملكة «سليمان» العظمى، فرضًا، ودودته وخاتمه الذي يجترح المعجزات (وكلها موضوعات سنفصلها في فصل لاحق)، بل استمرت سيرة الشعب الذي عُرِف بـ«الشعب اليهودي» تتقارب وتتلامس مع الخيمياء والسحر، وطقوسهما المدهشة طوال تاريخهم تقريبًا، وظهرت أهم علامة خيميائية اعتمدها اليهود، وحرصوا عليها في صورة العجول الذهبية التي عبدوها طوال تاريخهم تقريبًا.

يخبرنا الكتاب المقدس أن علاقة بني إسرائيل بالعجل لم تتوقف عند عجل الذهب، الذي سجدوا له في البرية إبان غياب نبيهم «موسى» عنهم، بل لقد مال هؤلاء إلى الوثنية وانجرفوا إليها عدة مرات، لكن الظهور الأوضح الثاني للعجول الذهبية كان على يد «يربعام بن نباط»، أول ملوك اليهود بعد انقسام ميراث «سليمان» إلى مملكتين: المملكة الجنوبية (يهوذا)، وتضم نسل سبطي «يهوذا وبنيامين»، وأول ملوكها هو «رحبعام بن سليمان»، والمملكة الشمالية وتضم نسل بقية الأسباط، واستهل «يربعام» هذا قائمة ملوكها. الطريف أن «يربعام»، قد خاف أن يميل قلب شعبه إلى «رحبعام»، إن ذهبوا ليسجدوا ويقيموا شعائرهم في هيكل أورشليم، التي تقع في حيز سيطرة المملكة الجنوبية، قرر أن يمنع ذلك بأن يأتي بآلهة شعبه إليهم حيث هم، فأقام مرتفعات وكرَّس هياكل ومذابح لآلهته الجديدة: عجول من الذهب عبدها هو وقومه.

«٢٨ فَاسْتَشَارَ الْمَلِكُ وَعَمِلَ عِجْلَيْ ذَهَبٍ، وَقَالَ لَهُمْ: «كَثِيرٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّذِينَ أَصْعَدُوكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ»».

تلك الآية من سفر الملوك الأول تشرح لنا كيف عادت حمى عبادة العجول الذهبية

مرةً أخرى إلى بني إسرائيل، الذين يبدو أنهم كانوا مرتبطين بها بشكل خاص، تيمُّنًا بعبادة أسيادهم السابقين في مصر للعجل المقدس «أبيس»، ومن الدلائل المتوافرة لدينا نستطيع أن نقطع أنَّ عبادة اليهود للعجول الذهبية وتزلفهم إليها أصبحت سُنةً راسخة، وإن كانت متقطعةً زمنيًا، لديهم وأنهم حرصوا على الارتداد من مبدأ التوحيد نحو تعدد الآلهة بشكل جعل من الخطر أن يُترَكوا وشأنهم، حتى ولو لأوقاتٍ قصيرة، لأن هذا كان حريًا بأن يرتدُّوا بشكل جماعي ويعودوا للسجود وتقديم القرابين للآلهة الوثنية على اختلاف أشكالها، وتنوع مصادر ومنشأ عبادتها. عبادة اليهود للعجول الذهبية دلائلها متوفرة وموجودة ويقينية حتى عصرنا هذا، فقد نقلت إلينا جريدة نيويورك تايمز بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٩٠ الخبر الآتي:

«علماء آثار يكشفون النقاب عن عجل ذهبي في إسرائيل».

تفاصيل الخبر تحدثت عن عثور علماء من جامعة هارفارد على عجل ذهبي، مصنوع جزئيًا من البرونز ومعادن أخرى، في خرائب قديمة تعود إلى معبد يقع في مدينة عسقلان، والمعبد هذا قد تعرض للتخريب نحو عام ١٥٥٠ قبل الميلاد، وكانت قياسات العجل الذي عُثِر عليه أربعة ونصف بوصة عرضًا وأربعة وربع طولًا، وكان سليمًا تقريبًا. الاكتشاف المفاجئ جاء ليدل على ترسخ فكرة عبادة العجول في فلسطين القديمة وما حولها، كما أنه يقطع أنَّ هذه العجول لم تكُن دائمًا تُصنَع من الذهب، مثل عجل السامري، لكن كانت في بعض الأحيان تُصقَل بشكل تقني ماهر جدًا، فتبدو لامعة كالذهب تمامًا.

والعجل يقبع الآن ضمن محفوظات متحف إسرائيل في القدس، ليس بعيدًا عن هذا التاريخ وُجِد عجل ذهبي حقيقي هذه المرة، أي إنه صيغ من الذهب فعلًا مع معادن أخرى، وقد عُثِر عليه في الساحل الفلسطيني، كما نقلت مجلة التايم بتاريخ ٦ أغسطس من عام ١٩٩٠م، وقياس العجل المسبوك من خليط من الذهب والبرونز والفضة هو ١٢.٥ سم، ويُذكَر أن الموقع الذي وُجِد فيه العجل كان ضمن ميراث سبط «دان»، إبان الوجود اليهودي في أراضي كنعان وفلسطين قديمًا، مما يعزز الروايات التي ربطت بين قبيلة «دان» تحديدًا وظاهرة عبادة العجول الذهبية.

العجول الذهبية المنقولة يقينًا من عجول مصر المقدسة، التي كانت تعتبر رموزًا لروح «بتاح»، والأخير كان إلهًا خالقًا كما كان راعيًا لبعض الحرف والفنون والصناعات، من بينها الكيمياء أو الخيمياء بالمعنى القديم.

إذًا نحن هنا أمام رمز خيميائي بالغ الوضوح، ومسألة سقاية بني إسرائيل من رماد العجل المطحون المخلوط بالماء هي إشارة إلى غبار الذهب (aurum potabile)، الذي يحمل بُعدًا وأهميةً خاصة في الخيمياء، إذ يُعتَبر علاجًا شافيًا لكل الأمراض، وعنصرًا أساسيًا من عناصر ومكونات حجر الفلاسفة المرغوب فيه بشدة، وقد يعتبر ذلك الفعل بنظرة أخرى، نوعًا من التعميد أو التطهير للشعب من آثامه، بُعَيد العقوبة التي حلّت بهم بسبب ارتكاسهم وحنينهم إلى الوثنية.

الجولم فرانكنشتاين اليهودي:
(الهلام الجامد الذي يحيا بالأسرار المحجوبة)

هل يمكن بث الحياة في الجمادات، أو بعث الروح فيما لا روح ولا حياة فيه، هل يمكن تحويل كتلة من الطين الهامد إلى كائن حي يتحرك، ويطيع الأوامر وإن كان خاويًا من العقل أو القدرة على الاختيار؟!

تتشدد اليهودية، كديانة تنتهج التوحيد الصارم، إزاء كل صور وأشكال عبادة الأوثان، أو الصور أو المنحوتات، وما يشبهها من عبادات وطقوس سابقة عليها، وبرغم تاريخ الشعب اليهودي غير المشرف بشأن عبادة الأوثان والآلهة الأجنبية، فإن التوراة (العهد القديم) تتخذ موقفًا قويًا وواضحًا إزاء هذه الممارسات، فنقرأ في سفر الخروج / إصحاح رقم ٢٠:

(لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْق وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحت، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ)

هذه هي ثاني الوصايا الربانية العشرة التي يقدسها اليهود ومن يؤمنون بوحي الكتاب المقدس، والتحريم والتجريم واضحين تمامًا في هذه الكلمات، وبرغم ذلك فإن التلمود اليهودي يخبرنا قصة مذهلة، قصة عن الرجال المقدسين، المطلعين على الدين والشريعة، الذين تمكنوا من خلق الحياة وجعل الطين يتحرك ويمشي، بل ويطيع الأوامر وينفذها، بل وصل الحال بتلك الكتل، التي نُفخت فيها حياة غريبة قلقة، أن تخرج في بعض الأحيان عن السيطرة وتعصي الأوامر، في استعادة غريبة لذكرى عصيان «آدم» وتمرده على أوامر ربه!

لكن كيف يمكن اجتراح هذه المعجزة وتحقيق هذا الحلم البشري العسير، حلم امتلاك قوة الخلق وصنع الحياة؟!

بداية ذكر مصطلح (جولم) golem ثلاثة وثلاثين مرة، بمعاني مختلفة وإن كانت متقاربة المعنى، في متن التلمود، لكن بعض هذه الإشارات مثيرة ولافتة للنظر حقًا، ففي سدر (سنهدرين) نجد أن حكيمًا يهوديًا يدعى»رافا« صنع «جولم» وأرسله إلى

رابي (رجل دين يهودي) اسمه «زيرا»، الذي راح يُحدث الكتلة الهلامية المتحركة، فلما لم يجبه الأخير بكلمة، أدرك أنه ليس رجلًا آدميًا، بل هو مجرد «جولم» لا يعقل ولا ينطق!

في مواضع أخرى نجد أن لفظة (جولم) تطلق على الرجل الذي لا حكمة له، أو قليل الفهم، أو المتسرع، أو المتبلد، وهؤلاء جميعًا يُشبهون بالجولم في كونه لا ينطق ولا يشعر، بل ينفذ ما يؤمر به وحسب دون وعي أو إدراك، كما تطور استخدام الكلمة في العبرية الحديثة لتوازي أخرس أو أبله أو عاجز، كما تنفي النصوص الدينية مشابهة الملائكة بالجولم، وإن كانت الأولى أيضًا مخلوقات مطيعة لخالقها وتنفذ كل ما يأمرها به، إلا أنها أعلى شأنًا وأفضل صنعة من الجولم البليد!

في موضع آخر نقرأ فتوى حول مشروعية قتل الجولم! ويقدم النص دليلًا على أن التخلص من الجولم أو تدميره لا تشكل خطيئة أو عملًا يستوجب المساءلة أو التجريم، استنادًا إلي فتوى حاخام يدعى «تسيفي» Hakham Ẓevi، الذي يقول إن الجولم يفتقر إلى الصفات الإنسانية، لذلك لا يجب أن يعامل معاملة اليهودي أو الإنسان بصفة عامة، أو أن يكون إهلاكه وتدميره عملًا محرمًا!

ثمة قصص كثيرة حول «الجولم» في الكتابات اليهودية، سواء أكانت نصوصًا مقدسة أم كتابات تفسيرية لها أم أعمالًا عادية الطابع، في الحقيقة يعد «آدم»، قبل نفخ الروح فيه ومنحه ملكة العقل والإرادة، أول «جولم» في تاريخ الأرض، بالنسبة إلى طريقة صنع الجولم فهي تمر بمرحلتين، أولًا صنعه وتشكيله من كتلة من الطين، وتسوية أطرافه، ثم تأتي مرحلة نشوره ومنحه حياة محدودة عبر استخدام كلمات مقدسة، أسماء الله التي تسمى كل منها شيم shem، وعبارات أخرى ذات طبيعة إلهيّة، تخط على ورقة بيد رجل متبحر في الدين، رابي أو عالم في معظم الأحيان، ثم توضع الورقة في فم الجولم الذي تدب فيه حينئذٍ حياة مقتضبة مقيدة، ويبدأ في تنفيذ أوامر من يملك قياده، إنه نسخة عظيمة من الروبوتات المعاصرة!

في قصة أكثر إثارة يرد اسم العالم اليهودي الأندلسي «سليمان بن جبيرول» solomon ibn gabirol، المعروف لدى المسلمين بالاسم الكامل «أبو أيوب سليمان

بن يحيى بن جبيرول»، بأنه صنع «جولمات» على شكل إناث، وكلفهم بتأدية الأعمال المنزلية في بيته!

غير هذه القصة التي تحمل طابع الطرافة نجد رواية أخرى تصف كيف قُتل «ابن جبيرول»، الذي كان شاعرًا أيضًا بالإضافة إلى معرفته الدينية، على يد شاعر مسلم، وكيف قام الأخير بدفن الجثة تحت شجرة تين، فطرحت وفرة من الثمار الحلوة، وعند تكثيف البحث وجدت رفات اليهودي المفقود تحت أصل الشجرة فأعدم الجاني، كما أن قصة أخرى تدور حول الجولم الأنثى الذي صنعه «ابن جبيرول»، الذي يبدو أنه كان يعاني من انصراف النساء عنه، فاتخذ من هذه الكتلة الهامدة عشيقة له، وعندما تحرت السلطات الأمر وكادت تقبض عليه بسبب هذا الأمر، دمر الشاعر ما صنع وأعاد محبوبته إلى كتلة من الطين الجامد، لينجو من العقاب!

الرابي «إلياهو بعل شيم» Rabbi Elijah Ba'al Shem الذي كان يعيش في بولندا في القرن السادس عشر له قصة أعجب، إذ إنه حصل على مكانة كبيرة بين بني جلدته، وحقق معجزات شفائية كثيرة، وبلغ منزلة عالية من السمو الروحي والقرب من الخالق، وإذ بالرجل المحبوب والذي له شعبية عريضة يختفي خلف باب منزله لسبعة أيام كاملة، في البداية يظنه الناس يختبئ من الحر وحرارة الشمس اللافحة، غير أنه كان قد أمر خادمه بنقل دلاء مليئة بالطين والماء إلى عليته، هناك عكف على عمل ما، ولما كان يعرف فضول خادمه فقد سد ثقب باب العلية بقطعة سميكة من الجلد، راح الناس يومًا بعد يوم يتجمعون أمام باب الرابي ليروا ماذا يحدث داخل منزله، حتى كان اليوم السابع حينما فتح باب منزله للناس ليروا خلفه عملاقًا مصنوعًا من الطين، وعلى جبهته تعلق ورقة مكتوب عليها كلمة emet، التي يظهر أن لها طابعًا سحريًا ما، وشرح «إلياهو» للناس أن هذا الكائن العملاق جولم، ومن ثم راح الجولم يشتغل في بيت الرابي، ويقدم خدماته أيضًا لليهود الآخرين، لكن لكونه بلا عقل أو قدرة على الإدراك فقد تسبب الجولم في كوارث، إذ إن صاحبه طلب منه ذات مرة إحضار ماء من البئر، وإفراغه في المنزل، وخرج الرجل إلى الصلاة في المعبد، ثم عاد ليجد كل متعلقاته تسبح في الماء، فالجولم أخذ يملأ الدلاء من البئر، وينفذ بقية الأوامر حرفيًا، فيسكب الماء داخل البيت عبر النوافذ!

مرة أخرى طلبت منه امرأة معاونتها في جلب حطب من داخل الغابة، فدخل الغابة ولم يخرج ثانية، ومع بداية اليوم التالي استنجدت المرأة بالرابي الذي هرع نحو الغابة، ليجدها وقد خوت من الأشجار كافة، فالجولم قطع جميع الأشجار، وحول الغابة إلي أرض خاوية!

وهكذا قرر الرجل أن الجولم ضرره أكبر من نفعه، فجرده من الحياة عبر سحب الورقة المعلقة فوق رأسه، فعاد الجولم كتلة من الطين الهامد الميت!

قصة «بعل شيم» حفزت كثيرين بعده على محاولة تقليده وصنع جولم، إلا أن هذا السر العظيم يبدو أنه لم يكن متاحًا لجميع الناس، أشهر قصص خلق الجولم هي الرواية الكلاسيكية الأشهر حول الجولم الذي صنعه الرابي اليهودي التشيكي «يهوذا لوي بن بيزاليل»، الذي تمثل قصته قمة أسطورة «الجولم» وأقصى اكتمال لها، «ماهارال»، وهو لقب هذا الحاخام، عاش بين عامي ١٥١٢ أو ١٥٢٦ وعام ١٦٠٩ في مدينة براغ، وشهد على الاضطهاد الذي صبه «رودلف الثاني» Rudolf II، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة على اليهود، فلما رأى الحاخام الشهير ذلك، قرر أن يتصدى للدفاع عن أبناء جنسه، فاستخدم طينًا من ضفاف نهر «فالتافا» وصنعه على هيئة جولم ضخم، يمكنه التصدي لقوات الإمبراطور إن حاولت اقتحام جيتو براغ، وكان الحاخام يستخدم الشيم في تفعيل أو تعطيل مخلوقه العجيب، الذي كان بحسب الروايات، قادرًا على إخفاء نفسه وأن يصبح غير مرئيًا، واستحضار أرواح الموتى. وكانت ليلة السبت المقدسة لدى اليهود هي عطلة الجولم الأسبوعية، فكان «ماهارال» يسحب ورقة الشيم (الطلسم أو الكتابة المقدسة) من فمه، ويبقيه هامدًا حتى نهاية العطلة اليهودية، حتى لا يدنس الجولم السبت، بيد أن الحاخام ليس إلا بشرًا في النهاية، وهكذا نسي ذات مرة الشيم في فم الجولم وخرج لبرهة، فقط ليعود ويجده هائجًا يعيث فسادًا في الجيتو، ويرمي الناس بالحجارة ويطاردهم بغية إيقاع الأذى بهم، نسخ أخرى من القصة تعزو سبب غضب الجولم إلى أنه بدأ يتحصل على بعض الصفات البشرية، فوقع في الحب، في الحالتين عاد «ماهارال» ليسحب الشيم من فم جولمه، ويتركه يتهاوى جامدًا ككتلة ميتة من الطين!

وتمضي الأسطورة فتصف لنا كيف أُحتفظ ببقايا الجولم في جنيزة (غرفة تخصص للمخطوطات والأوراق التي لا يجوز التخلص منها أو إتلافها) في كنيس براغ القديم الذي يحمل اسم Old New Synagogue، إذ ينتظر من يملك القوة اللازمة لإعادته إلي الحياة.

المدهش أن هذه القصة وجدت قبولًا على نحو واسع، وقامت حركة تفتيش وتنقيب داخل الجنيزة القديمة، في محاولة العثور على بقايا جولم ماهارال المعروف ب«جولم براغ»، وبرغم أنها لم تسفر عن أية نتائج فإنه قد ظهرت قصص مثيرة، منها قصة حول عميل نازي يتسلل إلى علية المعبد، في أثناء الحرب الكبرى الثانية، محاولًا طعن الجولم والقضاء عليه، لكن الأخير يفتك به بسهولة، يقال أيضًا إن بقايا الجولم لم تحفظ في الجنيزة طويلًا، بل سرقت ودفنت، كما لو كانت رفاتًا بشريًا، في مقبرة حي زيزكوف Žižkov.. فهل يأتي يوم يُعثر فيه حقًا على بقايا جولم براغ!

يستشهد مؤيدو القصة بعمل تاريخي كتبه أحد تلاميذ ماهارال، واسم الكتاب tzemach david وقد صدر في عام ١٥٩٢م أي في أثناء حياة معلمه، ويذكر فيه تلك القصص على أنها حقائق لا تقبل الشك، في المقابل يعترض البعض على صحة القصة، مدللين على ذلك بأن ماهارال نفسه لم يثبت شيئًا عن الجولم الذي صنعه في كل مؤلفاته، ولم يترك خبرًا مكتوبًا عن ذلك، لكن يبدو أن مصدر (جولم براغ) تحديدًا هو الثقافة التشيكية في حد ذاتها، إذ يطلق الاسم هناك في بعض الأحيان على الرجال الذين يتمتعون بقوة استثنائية، كما تحمل بعض المطاعم والمتاجر اسم جولم، لكن ذلك لا يفسر أصول القصة في التلمود وغيرها من المصادر اليهودية القديمة، ولا يوضح كيف تكون فكرة الجولم هي النسخة اليهودية من حلم خلق الحياة الخيميائي، الذي عُبرعنه فيما بعد، في سيرة بعض العلماء الذين تحيط بهم الريب والقصص الشنيعة، بأكثر الطرق فجاجة وإثارة للهلع!

دماء المسيح ومطاردة الخلود:
(هل كانت الكأس المقدسة رمزًا خيميائيًا؟!)

وفقًا للأربعة الكنسية، الأربعة أناجيل القانونية التي تقر الكنيسة بقانونيتها، فإن«يسوع المسيح»، في ليلة عيد الفصح الأخيرة قبل القبض عليه وتقديمه للمحاكمة، التي انتهت بصلبه في عهد «بيلاطس البنطي» والي اليهودية، وحوالي سنة ٣٣ من الميلاد، عقد عشاءً جماعيًا ضمه مع تلاميذه الاثني عشر، الرسل الأحد عشر بالإضافة إلى التلميذ الخائن «يهوذا الإسخريوطي»، إذ تناول «المسيح» العشاء مع تلاميذه، وفي أثناء ذلك قدم لهم الخبز والخمر، مؤسسًا ما عرف فيما بعد بـ«سر الأفخارستيا»، أو سر التناول أو القربان المقدس، وهو واحد مما يسمى بالأسرار السبعة التي تتحفظ الكنيسة على حق تأديتها ورعاية الخدمة عليها، ذُكر العشاء الأخير في روايات (لوقا ومتى ومرقس) الإنجيلية، بألفاظ وعبارات مختلفة، وإن اتفقت جميعها على حدوث هذا العشاء بطريقة ما.

وتبعًا للتقاليد فقد قدمت كأس الخمر إلى التلاميذ في هذا العشاء، التي تتحول في أثناء طقس القربان المقدس إلى دم «يسوع» عند حلول القوة الإلهية عليه. في كل الحالات لا تقدم الرواية الإنجيلية تفاصيل دقيقة، وهذا مفهوم، حول الأدوات التي استُعملت في تناول هذا العشاء، أي إنها لم تشر إلى أدوات المائدة والأكواب وما سواها التي استخدمها المعلم وتلاميذه في تناول هذه الوجبة الخالدة، غير أن إحدى الأدوات التي تتعلق بهذه القصة قُدر لها أن تمثل أهمية عظمى بالنسبة إلى الأساطير والخيمياء على السواء: تلك هي الكأس المقدسة **Holy Grail**!

وفقًا للرواية الإنجيلية المعتمدة قدمت الخمر في العشاء الأخير، ولا بد أن «يسوع المسيح» قد تناوله مع رسله وتلاميذه، وبالتأكيد قد شرب نصيبه في قدح أو كوب أو كأس، فأين ذهبت تلك الكأس وماذا حل بها؟ لكن القصة لا تقتصر على مجرد تناول المسيح للخمر في هذه الكأس وحسب، بل إنه طبقًا لرواية متأخرة زمنيًا وغير مرتبطة بالقصص الإنجيلية، فإن الكأس ذاتها استعملها «يوسف الرامي»، يوسف من بلدة الرامة Joseph of Arimathea، أحد تلاميذ «يسوع» الأقل شهرة من

الرسل الاثني عشر، في جمع بعض من قطرات دم «المسيح»، في حين هو معلق على الصليب، بنفس الكأس إذ احتُفظ بها بعد ذلك، وبعد أن أعلنت وفاة «يسوع»، ذهب «يوسف» إلى الوالي «بيلاطس»، إذ طلب منه أن يعطيه جسد «يسوع»، ففعل، وأخذ «يوسف» ومعه «نيقوديموس» الجسد المصلوب، ووضعا الحنوط والطيب عليه، ثم لفاه بأكفان ودفناه في قبر يملكه يوسف نفسه، إذ كان قد حفره ليُدفن فيه هو بعد موته، غير أنه كان من نصيب «يسوع المسيح» في نهاية المطاف، وهذا هو القبر نفسه الذي شهد معجزة القيامة!

ولكن إضافات أخرى كثيرة، خارج سياق المعتقدات الرسمية المدونة في الأناجيل القانونية، أضيفت إلى أسطورة «يوسف الرامي حامي الكأس المقدسة فيما بعد»، إذ وفقًا لحكايات انتشرت متأخرة عن زمن الأحداث التي يرويها العهد الجديد، حمل«يوسف الرامي» الكأس معه، بعد أن جمع فيها قطرات من دم «يسوع المسيح»، وغادر إلى الغرب، حيث حط رحاله في بريطانيا، التي وصلها طبقًا للتقاليد الشفهية في عام ٣٧م أو في عام ٦٣م، حيث أسس أول كنيسة مسيحية هناك، وتمضي الأقاصيص لتروي كيف احتفظ «يوسف» بالكأس المقدسة في حوزته، إذ نقلها إلى سلالته عبر الوراثة، وتزعم عدة مناطق في بريطانيا كونها مقرًا لدفن رفات القديس «يوسف الرامي»، أشهرها جلاستنبوري **Glastonbury**، في حين يوجد كهف دفن أُكتشف في القدس، إبان إنشاء كنيسة القبر المقدس، يعتبره التقليد القبطي المشرقي مقر دفن الرجل المثير للجدل!

بشكل ما اعتُبر «يوسف الرامي» هو مؤسس سلالة قوية نذرت نفسها لحماية الكأس المقدسة، كان من بينها الفارس«لانسيلوت»، بل واعتبر أحيانًا سلفًا للملك «آرثر» الأسطوري الملغز بدوره!

وهكذا نرى سلسلة من الأساطير والقصص كلها خارجة عن نطاق التدوين الرسمي، وبعيدة تمامًا عن التقاليد المقدسة الخاصة بصلب العقيدة المسيحية.

إذًا، فالكنائس الرسمية لم تعلق أية أهمية على الكأس الخاصة بعشاء «المسيح» الأخير مع تلاميذه، ولم يكن لها فيما يبدو أي قيمة في التقاليد والطقوس المسيحية،

على تعدد صورها تبعًا للطوائف والفرق المسيحية التي تفرعت عن الأصل الواحد تباعًا، إلا أن أثرًا بهذه القيمة وهذا الالتصاق الحميم بسيرة المخلص كان لا بد أن يشغل حيزًا كبيرًا، إن لم يكن في التقليد الديني الرسمي، ففي الخيال الشعبي على الأقل وهذا هو ما حدث فعلًا!

لم تعلق ذكرى الكأس المقدسة بأذهان الكنائس الشرقية ولا أذهان أتباعها مطلقًا، لكن الوضع كان مختلفًا تمامًا في الغرب، فمع بداية تلك المجموعة من الحملات التي قادها ملوك وأمراء أوربا واتجهت صوب الشرق الإسلامي، بغرض وضع أيديهم على الأراضي المقدسة للمسيحية في فلسطين، التي عرفت بالحروب الصليبية، ظهرت حكايات تلهب حماس ومخيلة المحاربين، وتتحدث عن العثور على لقيات وآثار ثمينة مرتبة بالعقيدة المسيحية في أرض فلسطين، وخصوصًا القدس، التي صُلب ودُفن المسيح فيها وقام على أرضها، بحسب التقاليد الدينية المسيحية، وكان من أهم الآثار التي جد المحاربون للعثور عليها هي:

1.تابوت العهد، أو تابوت الشريعة **Ark of the Covenant**، المذكور مرارًا في العهد القديم (التوراة)، الذي يُعتقد أن فيه ألواح الشريعة التي كتبها الرب لنبيه «موسى»، كما تظن الغالبية أن به كنوزًا ثمينة من الناحيتين المادية والتاريخية.

2.الحربة المقدسة **Holy Lance** وهي الحربة التي طُعن بها جنب «يسوع المسيح» في حين كان على الصليب، من قبل الجنود الرومان للتأكد من موته وفقًا لرواية إنجيل «يوحنا»، وقد منح التقليد الكنسي اسم لونجينوس **Longinus** للجندي الذي قام بتلك العملية، في حين يخلو الإنجيل من أي ذكرٍ له.

3.صليب الصلبوت أو الصليب الحقيقي **True Cross**: وهو قطعة الخشب الحقيقية التي سُمّر «يسوع المسيح» فوقها في أثناء تعذيبه، ووفقًا للتقاليد القديمة فقد كُشف عن هذه القطعة النادرة على يد «هيلانة» أم القيصر «قنسطنطين»، في أثناء قيامها بتشييد سلسلة من الأديرة في مدينة القدس ٣٢٦-٣٢٨م، إذ وجد ثلاثة صلبان كان أحدها راجعًا إلي المخلص، والآخران يخصان اللصين اللذين سُمّرا معه في نفس الساعة، وقد مُيّز صليب المسيح من بينهم من خلال تقريبهم من امرأة

مريضة، فاكتشف الصليب الذي أدى إلى شفائها. وقد كان آخر موضع معروف لصليب الصلبوت، قبيل الحملة الصليبية الأولى، هو مكان سري في القدس، أخفيت فيه بقاياه من قبل مسيحيي القدس بعد ما دمر الحاكم بأمر الله الفاطمي كنيسة القبر المقدس عام ١٠٠٩م، لكن بعد سقوط القدس في أيدي الصليبيين عام ١٠٩٩م، أجبر الكهنة الأرثوذوكس المشرقيون، تحت التعذيب، عن الإفصاح عن مكان وجود الصليب، لكن ما تبقى منه لم يزد عن شظية صغيرة مضمنة في صليب ذهبي، استولى عليه الصليبيون وحفظوه في كنيسة القبر المقدس، وكانوا يحملونه معهم في معاركهم ضد المسلمين ليستنصروا به.

4.الكأس المقدسة: وقد كان وجودها موضع شك، فلم تشكل في حينها، هدفًا مهمًا للصليبيين اللاتين الذين احتلوا أربع مدن إسلامية كبرى، وحولوها إلى إمارات وممالك خاضعة لهم.

وكذكرى باهتة ومتداخلة مع أساطير أقدم زمنًا ظهرت (كأس العشاء الأخير المقدسة) في زمن متأخر في أوربا، على شكل قصص وأساطير وروايات رومانسية الطابع، ولعل أول ظهور مكتمل لأسطورة الكأس المقدسة كان في قصة بارزيفال Parziva، التي كتبها «وولفرام فون إيشنباخ» Wolfram von Eschenbach Wolfram von Eschenbach في بدايات القرن الثالث عشر الميلادي، حوالي عام ١٢٠٠إلى ١٢١٠م، وفيها نرى قصة «بارزيفال» منذ ما قبل ميلاده، إذ اقترن أبوه بوالدته، وجاء الطفل إلى الدنيا محاطًا بخيبة أمل سببها فشله في تحقيق طموحاته كفارس، مما يؤدي به إلى السياحة في الأرض بحثًا عن مصدر لتحقيق القوة، وهي الكأس المقدسة ليحوز قواها فوق الطبيعية، بارزيفال، أو كما هو معروف في الشكل الإنجليزي لاسمه «برسيفال» Percival، لم يكن اختراعًا من بنات أفكار «فون ايشنباخ»، بل لقد سبقه إلى ذكره كاتب آخر أقدم زمنًا هو «كريتيان دي تروا» Chrétien de Troyes الذي عاش بين عامي (١١٣٥م و١١٨٥م)، الذي قدم نسخة أقدم حول قصة «بارزيفال»، الذي يتربى وينشأ في الغابات بعيدًا عن المدنية، ثم يخرج إلى العالم لينضم بطريقة قدرية إلى فرسان الملك آرثر King Arthur الأسطوري، ثم يخوض رحلة طويلة في سبيل الانتقام من أعدائه، إذ يلجأ إلى

قلعة مسحورة يشاهد فيها عرضًا لمقتنيات نادرة، من بينها كأس ذهبية تحمل قوى إعجازية خارقة، ولكن القصة لم تكتمل، وترك دي تروا «بارزيفال» حائرًا، ليتلقفه «ايشنباخ» مستكملًا قصته، وجاعلًا بطله الخالد يخوض مغامرات لا تنتهي، يصل في إحداها إلى قلعة الكأس castle of the Grail، التي يقوم على حكمها ملك يعاني جروحًا وندوبًا غامضة، يرحب الملك بالفارس وفي أثناء الليل يعرض أمامه مقتنياته الثمينة، وتمر فتاة تحمل بين يديها كأسا سحرية تشع بالنور، غير أن فضول «بارزيفال» كان أقل مما يجب، فلم يفكر في الاستفسار عن شيء من العجائب التي تُعرض أمامه، وهكذا يصير غير جدير بالحصول على السر، أو التمكن من الاستحواذ على الكأس ذات القدرات الخارقة، ويصحو صباحًا ليجد نفسه وحيدًا في القلعة المهجورة!

إنه عقابه بأن يخسر تلك الفرصة التي لا يمكن الحصول عليها مرتين، فيفقد فرصة الحصول على الكأس الثمينة، تمامًا مثلما فقد «جلجامش» الخالد فرصة منحة عشب الشباب الأبدي حينما نزل النهر ليغتسل فغافلته الحيّة وسرقته منه، نفس الثيمة تقريبًا، البطل الذي تضيع منه فرصة الحصول على الخلود بسبب ضعفه أو تغافله أو ما شابه، وكما فعل «جلجامش» الذي رأى في إنجازاته البشرية الفانية وفي السور الذي بناه حول مدينته لحمايتها من المعتدين ما يكفيه ويعوضه عن فقدان الشباب الدائم، أدرك «بارزيفال» في نهاية قصته مع الكأس أن الكأس في الحقيقة وقوتها الخارقة موجودة في داخل كل إنسان، يدرك معاني النبل والشرف والنقاء والسمو الروحي!

لكن يلاحظ أن ثمة اختلاف واضح بين الكأس في قصة «دي تروا» المعنونة Perceval ou le Conte du Graal، (بارزيفال أو كونت الكأس) وبين القصة الأحدث التي كتبها «إيشنباخ»، أن الكأس في قصة الأول هي كأس ذهبية فقط، بمعنى أنه لم يطلق عليها أبدًا لقب «مقدسة»، أما الكأس في النسخة الثانية، والمتأخرة زمنيًا من مغامرات «بارزيفال» فهي مقدسة ومُشار إليها بهذا اللقب بوضوح!

على أن ذلك لا يعني أن القرون السابقة على ظهور كلًا من»دي تروا» و»فون إيشنباخ» قد خلت من كل ذكر للكأس المقدسة، بل على العكس، فقد ظهرت الكأس بقوة في القصص الأسطورية والخرافية، التي عجت بها أوربا في تلك القرون المظلمة المشبعة بالجهل والخرافات والهمجية، مثال ذلك القصص التي حيكت حول شخص الملك الأسطوري «آرثر» وفرسانه الملقبين بفرسان المائدة المستديرة Knights of the Round Table، يظهر اسم الفارس «جلاهاد» Galahad، «جلعاد» أو جلاث» في قراءات أخرى، وهو ابن غير شرعي للفارس الشهير «لانسيلوت» Lancelot، الذي يكون الوحيد من بين فرسان المائدة المستديرة، الذين نذروا أنفسهم للبحث عن الكأس المقدسة، من ينجح في الوصول إليها، ومن ثم يصبح خالدًا وتحمله الملائكة إلى الفردوس!

إذًا كانت (الكأس المقدسة) حاضرة وبقوة في التصورات الشعبية المبكرة في أوربا في تلك العصور، لكن كان الرابط المفقود دائمًا هو: هل كانت الكأس المقدسة ترمز حقًّا إلى الخلاص الروحي والسمو العقائدي، أم إنها كانت في الأصل حلمًا خيميائيًّا أضفيت عليه صفات وخصائص تربطه بالعقيدة، تجنبًا لتهم الهرطقة والاشتغال بالسحر والتنجيم، التي كانت تطال كل من يخرج على تعاليم وقيود الكنيسة الكاثوليكية المتزمتة في تلك الأزمنة القاحلة؟!

سوف نرى كيف أسفر الحلم الخيميائي عن نفسه بعد أن خلع رداء التمسح في الدين خلال الصفحات القادمة!

العلوم غير المقدسة

(الصراع بين رجال الله ورجال الخيمياء)!

لفترة طويلة أدرجت الخيمياء ضمن الممارسات التي تحرمها الكنيسة في الغرب، شأنها في ذلك شأن السحر والشعوذة والعقائد المجافية لمبادئ الإيمان الكاثوليكي، أو ما كان يطلق عليه مصطلح (الهرطقة) heresy، والسبب ببساطة أن الخيمياء نفسها اعتُبرت نوعًا من السحر، ولونًا من ألوان الممارسات الشيطانية المحظورة كنسيًا!

الموقف الرسمي للكنيسة كان ملتبسًا إلي حد ما، فالخيمياء كانت مثار للحيرة والاضطراب بسبب تنوع تعريفاتها، وأيضًا اندماجها في سلسلة متباينة من الممارسات، بعضها شرعته الكنيسة واعتبرته قانونيًا ومباحًا ولا غبار عليه، والآخر حرمته تحريمًا مبرمًا باعتباره داخلًا في نطاق تعاطي السحر المحرم، والموصوم في تلك العصور، الموقف الرسمي المتضارب هذا يكشف عنه هذا معرفة حقيقتين متباينتين:

الأولى أن ثمة رجالًا من أساطين الكنيسة في الغرب نُسب إليهم الاشتغال بالخيمياء مثل:

-القديس «ألبيرتوس ماجنوس» الكبير Albertus Magnus (١١٩٣-١٢٨٠م)، الذي يعد من أعظم الفلاسفة الألمان، وأساتذة الكنيسة في العصور الوسطى، وواحد ممن خلعت عليهم الكنيسة الكاثوليكية درجة القداسة، دلت الكثير من الدراسات، والأعمال الموثقة عن سيرة حياته على كونه اشتغل بالخيمياء، بل تنسب إليه بعض المخطوطات المتعلقة بهذا الفن السحري الملهم، مثل المخطوط المعنون Secreta Alberti، أو أسرار ألبيرت (The secrets of Albert)، وعمل آخر عنوانه Experimenta Alberti، وقد احتوى كل من العملين على مناقشات ومقالات حول الخيمياء، وقد أكد البعض نسبة هذه الأعمال إلى القديس ألبرت الكبير نفسه، في حين أرجعها البعض الآخر إلى محررين مجهولين في القرون التي تلت موته، وقد

نسبوها إليه زورًا إلى جلب الرواج وزيادة شعبية ومصداقية هذه المخطوطات، لكن وفي كل الأحوال، فإن الشائعات التي ربطت «ألبيرتوس ماجنوس» بالخيمياء كانت رائجة، ومنتشرة حتى قبل وفاته، وقد كان نجاح «ماجنوس» في عزل عنصر الزرنيخ، حوالي عام ١٢٥٠م، دليلًا على اهتمامه بالأخلاط والعناصر، مما يعد مدخلًا قويًا له إلى سراديب الخيمياء الملتوية، وهناك ما يدل على كونه أجرى عدة تجارب خيميائية بنفسه.

أما الأسطورة فقد نسبت إليه حدثًا هامًا وحلمًا خيميائيًا سعيدًا، وهو تمكنه من تحضير حجر الفيلسوف، وأنه قام بأخذه إلى «توماس الأكويني» Thomas Aquinas، إذ أودعه أمانة لديه، ولكن الأخير أقدم على تدمير الحجر الثمين، خوفًا من تهم التواطؤ مع الشيطان، وبرغم تهافت هذه القصة وعدم معقوليتها، فإن القديس سجل في مذكراته أنه كان شاهدًا على عمليات تحويل معادن رخيصة إلى ذهب، وهو واحد من طموحات الخيمياء الكبرى مثلما أسلفنا، وقد تكون هذه الشائعات سببًا في عزلة «ألبرتوس» في نهاية عمره، والغموض الذي يكتنف أيامه الأخيرة ووفاته.

وغير «ألبرتوس ماجنوس» مارس الكثير من رجال الكنيسة المعتبرين الخيمياء، بشكل أو بآخر، وكان من المتعارف عليه أن الخيمياء لا يجرى عليها سيف التحريم، الذي نال علومًا أخرى مثل الفلك والتنجيم، لأن الأخيرة توصلت إلى نتائج ومفاهيم جديدة زعزعت عقائد الكنيسة الراسخة فيما يخص الكون، ومركزية كوكب الأرض وخلافه، بل وصلت العلاقة بين الخيمياء والكنيسة حد أن الثانية كانت تعتبر الأولى لونًا من ألوان القوى الإلهية، التي تعيد إحياء قصة خلق الكون على يدي الرب، وظهرت تفسيرات خيميائية لقصة الخلق التوراتية الواردة في سفر التكوين.

على الجانب الإصلاحي، الذي قام في وجه الكنيسة الكاثوليكية مطالبًا بإصلاحها، حتى انتهى الحال إلى الانفصال التام بين الإصلاحيين والتقليديين، من دعاة عصمة الكنيسة والبابا، وتأسيس الكنيسة البروتستانتية، كان مارتن لوثر مؤيدًا لاستمرار الخيمياء ويرى فيها علمًا وحكمة مماثلة لحكمة القدماء، بل اعتبرها عملًا شبيهًا

بأعمال الإله الذي ينقي البشر ويصهرهم يوم القيامة، مستخلصًا الطيبين، طاردًا الأشرار والمذنبين إلى بوتقة النار، مثلما يصهر الخيميائي المعادن والعناصر ويترك الرواسب التي لا قيمة لها متراكمة في قعر المحرقة أو المصهر، وقد عبر زعيم الاتجاه الجديد في كتاب تأملاته عن دعمه للخيمياء بهذه العبارة الواضحة كل الوضوح:

((The science of alchymy I like well))

(أنا أحب علم الخيمياء جدًا)

وقد أطرى الراهب الفرنسسكاني والخيميائي «Jean de Roquetaillade» (حوالي ١٣١٠-١٣٦٦م) صنعته، فكتب بفخر واصفًا كيف أن العمليات الخيميائية، التي تجرى على المواد والمعادن، تماثل ما تعرض له المسيح من عذابات وهو على الصليب من أجل تخليص وتحرير البشرية، كما أن حجر الفيلسوف الذي يحول وينقي المعادن الرخيصة، يشبه الموت والقيامة اللذين يحولان الإنسان من حالته الأرضية الفاسدة، إلى حالة النقاء والتوحد مع المشيئة الإلهية العليا!

وكان من الشائع في تلك الفترة الربط بين الخيمياء والقوى الإلهية، والتدليل على سمو هذا العلم بتشبيه عملياته المتعددة بأعمال مقدسة ترتبط بالرب أو بالمسيح وخلاصه الإعجازي لبني الإنسان، وقد تجلى هذا الموقف في تشبيه الخيميائية «آنا ماريا زيجلرين» Anna Maria Zieglerin للزيت الذي انتجته، ونسبت إليه خواص خارقة، وأطلقت عليه اسم (دم الأسد) (lion's blood)، وما رافقه من عمليات معقدة بما فيها التضحية بطائر صغير إبان ذلك، بأنه تمثيل لعملية التضحية الكبرى التي قام بها «يسوع المسيح»، وتمخضت عن تخليص البشرية من آثامها بدمه.

وحتى إن عمليات تحويل المعادن الخيميائية المعروفة (بالأوبوس الخيميائي) opus alchymicum، التي شملت أربع مراحل، وُصفت بأنها تشرح وتطبق مراحل والأحداث التي مرت في أثناء حياة المسيح على الأرض.

من ناحية أخرى، وبرغم وجود عديدين من رجال الكنيسة، أو ممن خلت حياتهم من أية شبهة مروق أو انحياز لأي أقوال أو أراء مناهضة للكاثوليكية، فإن بعض المنتمين إلى الأخيرة دأبوا على النظر إلي الخيمياء بتوجس وحذر، بعضهم أراد تطبيق مبادئ صارمة تفرض نوعًا من الوصاية الأخلاقية على طموحات هذا العلم في حال تحققها على أرض الواقع، أو على الأقل ضمان ألا يدفع الطموح الجنوني الخاص بأحلام هذا العلم، المحاط بالأسرار والجدل، من يقومون به إلى الإقدام على تضحيات خطرة في سبيل تحقيق ما يصبون إليه، اليسوعيون على سبيل المثال، كانوا يأخذون الخيمياء بحذر، خشية أن يكون الحلم بتحويل المعادن إلى ذهب دافعًا ممارسي الخيمياء إلي بيع أرواحهم، أو طلب المعونة من الشياطين وكيانات الشر لتحقيقه!

ولكن تدريجيًا توترت العلاقة بين الكنيسة والخيمياء، وكان تورط عدد ممن مارسوا الخيمياء في بعض القضايا التي تمس المروق من العقيدة، أو مزاولة السحر المحرم، سببًا في بداية موجة من التضييق على الخيمياء وعلمائها، وبدأ شهر العسل بين الكاثوليكية والخيمياء يتحول إلى مواجهة صريحة، وإن لم تكن كاملة كما حدث بين الكنيسة والسحر، نادرًا ما تمخضت عن أخطار جسيمة حاقت بالخيميائيين، لكن تم وصم العلم وتشويه أهدافه بما يكفي، وراح عدد من زعماء ومعلمي الكنيسة البارزين يحرمون على تلاميذهم تعلم أو ممارسة الخيمياء، ورويدًا رويدًا بدأ الأمر ينحو تجاه استخدام سلطان الحرم الكنسي والتحريم الصريح مثلما حدث في القرار البابوي الشهير، الذي أصدره البابا يوحنا الثاني والعشرون Pope John XXII في عام ١٣١٧م، والمعروف بـSpondent Pariter، الذي أدان فيه الخيمياء وحرم ممارستها، غير أن الدافع إلى إصدار ذلك القرار لم يكن لا هوتيًا، ولا صلة له بالخوف على سلامة العقيدة، إنما كان سببه هو احتيال بعض الخيميائيين، الذين يبدو أنهم استغلوا ولع الناس بحلم تحويل المعادن الرخيصة إلى الذهب النفيس، من أجل القيام بعمليات احتيال متقنة، تضمنت سلبًا واستيلاءً على الأموال بطريقة غير مشروعة.

على الناحية الأخرى كان للملوك والأباطرة والأثرياء موقف مغاير ومختلف تمامًا

تجاه الخيمياء وممارسيها، فهؤلاء الملوك وإن كانوا يخضعون لسلطة كنيسة روما الروحية والزمنية، ويخافون سيف الحرمان الكنسي المعلق فوق رقابهم، عند أي انحراف عن تعاليم الكاثوليكية أو أي انتقاص من سلطان البابا المطلق، إلا أنهم، ومراعاةً لمصالحهم، شجعوا صنعة الخيمياء، بل منهم من علق عليها أحلامه وآمل في أن تنقذه من ديونه ومصاعبه المالية، فملك إنجلترا «هنري الرابع» (١٣٩٩-١٤١٣م) شجع رعاياه على تعلم الخيمياء، وممارسة فنونها، وكان يهدف من ذلك إلى دفع الضرائب التي أثقلت كاهل مملكته، وذلك عن طريق اكتشاف حجر الفيلسوف، والاستفادة من قدراته في تحويل المعادن العادية إلي ذهب!

غير أن الملك يبدو أنه واجه مخاوف خيالية ناجمة عن القلق من نجاح البعض في عمليات خيميائية تهدف إلى تكثير الذهب والفضة من العدم، ومن ثم يؤثر ذلك في سلطة التاج والحكومة، ولذلك عاد فأصدر قرارًا يعرف بـ The Act Against Multiplication (قانون ضد المضاعفة) (تترجم كلمة Multiplication أيضًا بتوالد أو تكثير أو توفير)، وذلك في ١٣ يناير ١٤٠٤م، وكان ذلك القرار تجنبًا لنوع جديد من التحدي ضد سلطة حكومته، التي واجهت الكثير من الثورات والانتفاضات ضد حكمه.

بنظرة صغيرة تدلنا كل تلك القرارات، التي اتخذ بعضها الصبغة الرسمية الصارمة، على مبلغ علو شأن الخيمياء في العصور الوسطى بأوربا، والقدر الكبير من التصديق والتسليم بحقائق أحلامها، مثل صنع حجر الفيلسوف، الذي كان يؤخذ بجدية كاملة.

لكن هل تحقق ذلك فعلًا؟

هل نجح شخص ما في التوصل إلى سر صناعة إكسير الحياة، أو حجر الفيلسوف، وأفاد من السر بنفسه، أو احتفظ به وأخفاه وضاع بموته؟!

الفصل الثاني

(كاتمو الأسرار)

الرجال الذين يعرفون كل شيء!

رجل الأسرار الذي لا بداية ولا نهاية لحياته:

(ملكي صادق الملك النبي هل كان خيميائيًا مقدسًا؟!)

تطالعنا أقدم الكتب السماوية المعترف بها الآن، وهو كتاب التوراة المعروف بـ(العهد القديم) بقصة شيقة ومثيرة للغاية في أول أسفاره، وهو سفر التكوين، الذي يروي قصة الخليقة منذ بدايتها وسير الآباء الأولين، الذين يعتبرهم كلٌّ من اليهود والمسيحيين أسلافًا ومؤسسين لعقيدتيهما، برغم الخلاف الحاصل بينهما على حقيقة شخصية «المسيح»، ومبعثه أو البقاء تحت سيف انتظار ظهوره حتى اليوم، وفي الإصحاح رقم (١٤) نرى مغامرة عسكرية يقوم بها «إبراهيم» لإنقاذ أخيه وسائر بيته من الأسر، وفي طريق عودته يلتقي بمن يصفه النص بملك شاليم «ملكي صادق»، ويضيف أن هذا الرجل كان كاهنًا لله العلي، لا مزيد من المعلومات عنه في الأسفار الخمسة الأولى، لكن في سفر المزامير نجد إلحاقًا آخر يمجد ملكي صادق، واعدًا شخصًا تدور حوله النبوءات بأن يُمنح الدرجة العظمى .. درجة الكهنوت على رتبة ملكي صادق!

نحن إذًا أمام شخصية عظيمة، لا يوصف بالعظمة والأهمية في ذاته فحسب، بل إن له درجة مكرسة باسمه، تُمنح للمختارين والمُنعم عليهم من قبل الرب .

أما العهد الجديد (الإنجيل) فيطالعنا بأبعاد جديدة لهذه الشخصية الملغزة، تضفي عليه صفات تقرب جدًا من صفات أنصاف الآلهة والأبطال الخارقين، فهو ذو مكانة حتى إن «إبراهيم» ذاته جعل له العشر من كل شيء، وليس هذا فحسب كما تروي لنا (رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين)، بل إن «ملكي صادق» له أبعاد فوق طبيعية أيضًا، فهو لا يشاطر بقية البشر في منشئهم وطريقة خروجهم إلى الحياة، فلا أب ولا أم له، ولا بداية ولا نهاية لحياته، بل إنه وصل من العظمة درجة جعلت «يسوع المسيح» ذاته يوعد، بقسم من الرب، بأن يكون كاهنًا إلى الأبد على رتبة «ملكي صادق»!

فمن هو صاحب كل تلك الألقاب والتشريفات والنعوت المهيبة وغير الاعتيادية؟!

الشروح والتفاسير الرسمية للكتاب المقدس بعهديه تحاول وضع قصة «ملكي صادق» في حجمها الطبيعي، مستبعدة العناصر الخارقة منها، ومقدمة تفسيرًا بسيطًا لكل صفة عجيبة وصف بها، لكن هذه التفاسير تعلن حقيقة أنه أعظم من «إبراهيم» لكونه قد قدم إليه الخبز والخمر، وهو إشارة إلى القربان الإلهي الذي كرسه «يسوع المسيح» بتسميره على الصليب، في حين دفع الأخير إليه العشور. دليلًا على الخضوع والتبعية، كما يعتبر المسيحيون كهنوت «ملكي صادق» أعظم شأنًا من كهنوت «هارون» واللاويين، لكنهم يفسرون عبارات «بلا أب ولا أم ...» بأنها تعني أن الكهنوت لم ينحدر إليه عن طريق الوراثة، ولا نسب إلى سبط «هارون»، أما عن وصفه بأنه لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة، فيفسر بأن الكتاب المقدس لم يذكر شيئًا عن ميلاده، أو عدد سنين عمره أو وفاته!

وبعيدًا عن التفسيرات الرسمية التي لا تشبع فضول محبي القصص الخارقة، ومتتبعي الشخصيات المحاطة بالغموض والألغاز استحضرت شخصية «ملكي صادق» بقوة في أدبيات الغموض، وقصص الرجال الذين يعرفون كل شيء، وقد لعب دورًا غير مُنكَرٍ في الكتب وقصص السحر بل والأدب القصصي، لعل آخر وأشهر ظهور له في عالم الأدب كان في (الخيميائي) alchemist لباولو كويلو، وقد ألهبت عبارات الكتاب المقدس حول «ملكي صادق» الأخيلة، وربطته فورًا بالممارسات القديمة، والعلوم السرية والطموحات الخيميائية.

بدايةً، شكك البعض في ترجمة الاسم الذي حمله هذا المدعو الغامض فـ«ملكي صادق»، واعتباره أن معناه هو «ملك البر» أو «ملك السلام» وجد من يشككون فيهما بقوة، ويؤكدون على معنى مغاير وأكثر شمولية لعبارة «ملك على رتبة ملكي صادق» Order of Melchizedek، فمثلًا المقطع الثاني من اسمه قد يكون مشتق من Sydyk وهو اسم إله عَبَده الفينقيون فيكون معنى اسمه حينذاك «صادق ملكي» أو إلهي، بعض التفسيرات تعتبر (رتبة ملكي صادق) ترتيب أو درجة كهنوتية، أو درجات منظمة تشبه الماسونية، وترتيب جماعة الصليب الوردي بعد ذلك بزمن طويل، ويلفت الأنظار أن التفسيرات التي وضعها الربانيون اليهود توحد «ملكي صادق» مع شخصية «سام بن نوح»، أو «لامك» والد نوح، ومنهم من اعتبره تجسيدًا للمسيح

قبل ظهور «يسوع المسيح» في العصر الروماني، بل تجعله مخلوقًا أوليًا (في أول أو بدء الزمان وغير معروف كيفية ظهوره على مسرح التاريخ).

مؤرخ الكنيسة الكبير«يوسابيوس» من قيصرية، هو الآخر نوّه بتلك الشخصية الغامضة الملتبسة في كتابه (تاريخ الكنيسة) قائلًا:

((أما ملكي صادق هذا فقد برز في الكتب المقدسة ككاهن الله العلي، لم يمسح بأي زيت معدّ إعدادًا خاصًا، ولا يتصل في نسبه بكهنوت اليهود، لذلك فعلى رتبته، لا على رتبة الآخرين الذين نالوا الأمثلة والرموز، نودي بمخلصنا بقسم، مسيحًا وكاهنًا))

ملحوظة: هناك نص منتشر على مواقع مختلفة خلال شبكة الإنترنت ومنسوب إلى الكتاب المشار إليه آنفًا، ويقول بأن «يوسابيوس» ينسب «ملكي صادق» إلى الله ذاته، وأنه آتي إلي الوجود قبل نجمة الصباح، لكن هذا النص زائف ويخلط بين رأي المؤلف عن «ملكي صادق»، وما قاله بعد ذلك حول شخص «يسوع المسيح»، ولذلك وجب التنويه لئلا يقع أحد في خطأ يجعله يقتبس النص على علاته، دون مراجعة النص الأصلي مثلما ورد في الكتاب المطبوع.

في تعاليم الروزيكروشية يحتل «ملكي صادق» مكانة سامية ويعتبر تجسيدًا قديمًا لـ«يسوع المسيح»، ويصفه كتاب «أخنوخ» بأنه ابن لعذراء تمامًا كالمسيح، وتضفي عليه صفات الحكمة والهيمنة على مصادر النور، من ناحية أخرى وفي نفس السياق يعتبر البعض «ملكي صادق» أحد ظهورات «يسوع» المتكررة عبر العصور، التي يؤمن بعض المسيحيين بأنها حدثت في عدة صور وعلى فترات زمنية متباعدة، هذه السلسلة من الظهورات تسمى بالظهور المسياني **Christophany**.

اكتسب «ملكي صادق» أهمية بالغة في التعاليم المنسوبة إلى كريستيان روزنكروز مؤسس ما يعرف بالروزنكروشية، وبالمثل حصل على مرتبة مهمة في التعاليم الماسونية، لكن الطريف أن هذه الشخصية المهيبة ربطها البعض بشكل متعسف أحيانًا بمصر، معتبرين أن «ملكي صادق» هو كائن أسمى من تخيل البشر، ليس إلهًا بالطبع، لكنه نوع من حفظة الأسرار والكائنات السامية الموكلة بإرشاد البشر عبر العصور، ويعتقدون أنه كُلف بمهمة تعليم البشر والحفاظ على سموهم الروحي

وتقدمهم في اتجاه معرفة الله في العصور الموغلة في القدم، إذ كانت هناك قارة مجهولة تسمى «ليموريا» تحتل منزلة البيت الأول للبشر، ثم بعد دمارها انتقل «ملكي صادق» بروحه ومهامه الروحية والتعليمية إلى أطلنطس، التي لم تلبث أن دمرت هي الأخرى، بسبب إسراف البشر في استخدام التكنولوجيا، واستنزافهم لقواهم الروحية في الصراع من أجل الماديات الوضيعة، وأخيرًا، وقبيل استقراره النهائي في العالم القديم كمرشد ومعلم وكاهن وملك في آن واحد، أسس مدرسة، أو جملة مدارس، لنشر مذهبه وتعليم البشر، كان أحد أكثرها أهمية، وفقًا لهذه النظرية المدهشة في تفاصيلها، في مصر، بالتحديد في معبد سيتي الثاني الكائن بأبيدوس القديمة في صعيد مصر حاليًا، وإذًا يكون هذا المعبد الرائع ليس إلا مدرسة «ملكي صادقية»، وبقايا من ثقافة وتعاليم هذا الكائن الذي اختلف الجميع حوله، ولم تتحدد حقيقة وجوده التاريخي وكينونته قبل أو بعد عصر النبي «إبراهيم»، وعلاقته بالظهورات المسيانية، ولم يتفق الجميع على حل مرضي للغزه القديم حتى اليوم!

حقيقة الوجود التاريخي من عدمه بالنسبة إلى «ملكي صادق»، لا تنفي الصلة الوثيقة التي تربط لغزه بلغز علم الخيمياء بأسراره الموغلة في القدم، يقدم الكتاب المقدس صورة لإنسان أو كائن سامي يعرف كل شيء، ومن تمام تلك المعرفة هو الخبرة بالأخلاط والوصفات والتركيبات والأمزجة، وهو مدار صنعة الخيمياء بتطبيقاتها التي أخفى الدهر معظم أسرارها طي الكتمان، نلمس في شخصية «ملكي صادق» جانب معرفي سحري وباطني، فهو يعلم الغيب، ويملك سلطة تجعله أعلى من الأنبياء في زمنه، مقدمًا عليهم إلى حد أنهم مكلفون بدفع العشور إليه، وكأنها ضريبة يقدمونها للهيكل، هيبة الشخصية الأسطورية جعلت البعض يتساءلون إن كان «ملكي صادق» هو الله نفسه متجسدًا؟!

اللغز الكبير يتمثل في حقيقة خلود تلك الشخصية، ونحن هنا نتكلم عن الخلود المادي، التفسير الذي يعتمد أن شرح عبارة (لا بَدَاءَةَ أَيَّامٍ لَهُ وَلاَ نِهَايَةَ حَيَاةٍ. بَلْ هُوَ مُشَبَّهٌ بِابْنِ اللهِ. هذَا يَبْقَى كَاهِنًا إِلَى الأَبَدِ) بأنها تعني عدم التطرق إلي معلومات عن حياته أو نسبه أو موته في الكتاب المقدس تبدو بعيدة الاحتمال، وربما مناقضة حتى لما يليها من عبارات، إذ أنه إذا كان «ملكي صادق» مجهولًا فقط من ناحية

الأب والأم والنسب والمولد والممات، فما وجه الشبه إذن بينه وبين المسيح ؟!

ولمَ رُفع عاليًا إلى حد أن المسيح هو من نال رتبة «ملكي صادق» وليس العكس؟ بعيدًا عن الأمور الاعتقادية التي لا شأن لنا بها، فإن الوصف المنطبق على «ملكي صادق» يجعلنا إزاء شخصية فوق طبيعية، لا تنطبق عليها صفات البشر، على الأقل بعض تلك الصفات، كما أنه يملك سلطة أعلى من كل الناس، والمكلفين من قبل الله في زمنه، فلمَ يا ترى نال «ملكي صادق» هذه المكانة كلها؟!

وأهم نقطة هي التأكيد على خلوده وبقاء كهنوته إلى الأبد، فإذا كان «ملكي صادق» هو تجسيد مسياني قبل زمن المسيح، فنحن إذًا أمام شخصية (متعددة الظهورات)، تلك الخاصية الفريدة التي أثبتتها الأديان لبعض الشخصيات الغامضة، الخضر والدجال كنموذج في الإسلام، وفي تلك النقطة الأخيرة تحديدًا يلتقي «ملكي صادق» مع شخصيات أخرى، بعضها حديث زمنيًا جدًا، قيل إنهم شوهدوا في عصور وأزمنة مختلفة، منهم الكونت الشهير«سان جيرمين» و«فولكانيلي»، وإنهم خالدون بشكل ما، ذلك الخلود الذي ارتبط دومًا بعنصرين: السحر واكتشافات الخيمياء السرية!

هل يمكن أن يكون «ملكي صادق» بدوره خيميائيًا موغلًا في القدم، وأن تكون أسطورة خلوده عائدة أصلًا إلى مشاهدات تخص احتفاظه بشبابه بشكل غير مفهوم، أو بظهوره ثانية بعد زمن من إعلان موته، ربما بصورة أخرى، وأن تكون السلطة التي يملكها لا ترجع لاختيار الله له فحسب، بل لكونه أيضًا يتحفظ على أسرار خيميائية وقوى سحرية، تفوق كل قوى وقدرات أهل زمنه والأزمان اللاحقة أيضًا؟!

قورح «قارون الذي ابتلعته الأرض»:
(هل كان خيميائيًا بارعًا؟!)

يطالعنا العهد القديم (الجزء الأول من الكتاب المقدس) بقصة مدهشة في بعض تفاصيلها، وهي تحكي عن شخص يدعى «قُورَح بن يصهار بن قهات بن لاوي»، وهو ينتمي إلى بني إسرائيل الذين ولدوا في مصر، وعاشوا فيها إبان فترة وجود ذرية «يعقوب» بها، فهو من قوم «موسى» إذًا، وقد كان، بحسب سفر العدد، رجلًا قاسيًا متمردًا، وقد حرض الشعب، المقصود قوم «موسى» الذين خرجوا معه من مصر، وادعى أن «موسى» وأخاه «هارون» يتكبران على بقية الشعب، ويرتفعان عليه، وعندئذ دخل «قورح» ومن ناصروه، «داثان» و«أبيرام» وهما أخوان، ورجل ثالث اسمه «أُونْ»، وجميعهم من سبط «رأوبين»، في تحدي ضد النبي وأخيه، فأنذر «موسى» العصاة أن غدًا قريب، وسوف يعلن الرب من هو رجله المقدس، وأمرهم بأن يحرقوا البخور أمام الرب، وكذا فعل «موسى» ومن انحازوا إليه، وفي اليوم التالي أبيد «قورح» وجميع أعوانه، وابتلعتهم الأرض بمساكنهم وبيوتهم وأموالهم، أما باقي المتمردين وعددهم مئتان وخمسون (٢٥٠) فقد أكلتهم النيران، وهم يقربون البخور إلى الرب كنوع من العقوبة المرعبة!

ومن هذا العرض السريع نستنتج أن العهد القديم، ولا الاستشهادات القليلة بقصة «قورح» في العهد الجديد، لم تشر إلى ثروته البالغة، أو كونه يحوز قدرًا كبيرًا من الأموال.

غير أن الوضع مختلفًا تمامًا في القرآن الكريم، ففي سورة القصص نقرأ الآيات التالية:

((إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)) [القصص: ٢٨].

وفي نفس السورة ترد الآية:

((فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا

أوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)).

وفي سورة العنكبوت ورد ذكر «قارون» مقرونًا بفرعون وهامان:

((وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)).

وأيضًا:

((إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)).

وهذه الآية الأخيرة من سورة غافر.

وقارون هو القراءة العربية لاسم «قورح» العبري.

إذًا، نحن أمام رجل موصوم بكل نقيصة، فهو متفاخر متكبر، وهو باغٍ وظالم ومتجبر بما لديه من أموال، وأيضًا مكذب للأنبياء وكافر برسالة السماء.

غير أن قصة «قارون» تحوي إشارة ملهمة تستحق التوقف عندها، وهي الكلام حول ثروته، فطبقًا للوصف القرآني يكون لدى «قارون» أموال جزيلة، إلى حد أن مفاتيح الخزائن التي تحتويها، وليس هي نفسها، لا تستطيع عصبة من الرجال أو مجموعة أن تحملها إلا بمشقة شديدة!

فما مصدر هذه الثروة الهائلة يا ترى؟!

في التفاسير والكتب الإسلامية روايات كثيرة حول هذا الأمر، بعضها يعتمد على تفسير وشرح مبسط للآيات الكريمة، في حين أن البعض الآخر يسرف في سرد قصص وروايات في غاية الغرابة والإثارة، ففي تفسير الطبرسي المعروف بـ(مجمع البيان في تفسير القرآن) نقرأ التفسير التالي للآية رقم (٢٨) من سورة القصص:

«}قال{ قارون:{ إنما أوتيته على علم عندي} اختلف في معناه فقيل: أراد إنما أعطيت هذا المال بفضل وعلم عندي ليس ذلك عندكم. عن قتادة يعني إنه قدر أن هذا ثواب من الله له لفضيلته كما أخبر سبحانه عن ذلك الكافر بقوله: {ولئن رددت إلى ربي لأجدنَّ خيرًا منها منقلبا} [الكهف: ٣٦]. وقيل: معناه لرضا الله عني ومعرفته

باستحقاقي، عن ابن زيد وهذا قريب من الأول. وقيل: معناه إن المال حصل له على علم عندي بوجوه المكاسب وبما لا يتهيأ لأحد أن يكتسبه من التجارات والزراعات وغيرها. وقيل: على علم عندي بصنعة الذهب وهو علم الكيمياء عن الكلبي وحكى أن موسى (عليه السلام) علَّم قارون الثلث من صنعة الكيمياء وعلم يوشع الثلث منها وعلم ابن هارون الثلث منها فخدعهما قارون حتى علم ما عندهما وعمل بالكيمياء فكثرت أمواله {أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون} الكافرة بنعمته {من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا} كقوم عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ثم بيَّن سبحانه أن اغتراره بماله وعدده من الخطأ العظيم لأنه لا ينتفع بذلك عند نزول العذاب به كما أن من كانوا أقوى وأغنى منه لم تغنِ أموالهم عنهم شيئًا عند ذلك {ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون}».

وشرح مشابه نجده في تفسير الإمام الرازي المعنون (التفسير الكبير):

«وخامسها: قوله: } وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ{ والمراد ما كان عليه من الظلم والبغي وقيل إن هذا القائل هو موسى عليه السلام، وقال آخرون بل مؤمنو قومه، وكيف كان، فقد جمع في هذا الوعظ ما لو قيل لم يكن عليه مزيد، لكنه أبـى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال: إنما أوتيته على علم عندي، وفيه وجوه:أحدها: قال قتادة ومقاتل والكلبـي: كان قارون أقرأ بني إسرائيل للتوراة فقال: إنما أوتيته لفضل علمي واستحقاقي لذلك، وثانيها: قال سعيد بن المسيب والضحاك: كان موسى عليه السلام قد أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهبًا».

وتأكيدًا لنفس المعنى يقول»القرطبي»في تفسير ذات الموضوع ونفس الآيات:

«قوله تعالى:}وَآتَيْنَاهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ { قال عطاء: أصاب كثيرًا من كنوز يوسف عليه السلام. وقال الوليد بن مروان: إنه كان يعمل بالكيمياء».

«ابن كثير» في تفسير ضاد وعارض الرأي الأول مبينًا تهافته ولا معقوليته فقال نصًا:

«وقد روي عن بعضهم أنه أراد: (إنما أوتيته على علم عندي) أي: إنه كان يعاني علم الكيمياء: وهذا القول ضعيف، لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل، قال الله: (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له) [الحج: ٧٣]، وفي الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال:»يقول الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة». وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل، فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى، هذا زور ومحال، وجهل وضلال . وإنما يقدرون على الصبغ في الصورة الظاهرة، وهو كذب وزغل وتمويه، وترويج أنه صحيح في نفس الأمر، وليس كذلك قطعًا لا محالة، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله تعالى من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهبًا أو فضةً أو نحو ذلك، فهذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يرده مؤمن، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسماوات، واختياره وفعله، كما روي عن حيوة بن شريح المصري، رحمه الله، أنه سأله سائل، فلم يكن عنده ما يعطيه، ورأى ضرورته، فأخذ حصاة من الأرض فأجالها في كفه، ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هي ذهب أحمر. والأحاديث والآثار [في هذا] كثيرة جدًا يطول ذكرها.

وقال بعضهم: إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم، فدعا الله به، فتمول بسببه، والصحيح المعنى الأول: ولهذا قال الله تعالى- رادًا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال (أوَلم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا) أي: قد كان من هو أكثر منه مالًا وما كان ذلك عن محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) أي: لكثرة ذنوبهم.

قال قتادة: (على علم عندي): على خيرعندي.

وقال السدي:على علم إني أهل لذلك.

وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله: (قال إنما أوتيته على علم عندي) قال: لولا رضا الله عني، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال».

أما كتب الأحاديث النبوية ففيها ذكرٌ لـ»قارون» في باب الذم والتمثيل به كشخص مارق ملعون، انتهت حياته نهاية مروعة ويجب أن يعتبر الناس مما حدث له ويتعظوا، فنقرأ مثلًا في الحديث الذي رواه «عبد الله بن عمرو» وصححه «ابن حبان»:

((٢- عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه ذكَر الصَّلاةَ يومًا فقال: (مَن حافَظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يومَ القيامةِ ومَن لم يُحافِظْ عليها لم يكُنْ له برهانٌ ولا نورٌ ولا نجاةٌ وكان يومَ القيامةِ مع قارونَ وهامانَ وفِرعونَ وأُبَيِّ بنِ خلَفٍ)).

وفي حديث صححه «ابن حجر العسقلاني» في كتابه (فتح الباري) يرد ذكر لـ»قارون» في هذا الحديث الموجز:

((١٣- عن ابنِ عباسٍ أنه [أي قارون] كانَ ابنَ عمِّ موسى)).

إذًا اتفقت أحاديث النبي مع آيات القرآن الكريم في جعل «قارون» كافرًا مارقًا، وفي ذمه وجعله أمثولة لكل عاصي وجبارعنيد، بيد أن الآيات والأحاديث لم تذكر مصدر ثروة «قارون»، بل ألمحت فقط إلى أنه امتلك ثروة هائلة، لم يكن له أي مصدر معقول لامتلاكها، فهو لم يكن ملكًا ولا رجل دولة أو وزيرًا، وإن كان معاونًا أو تابعًا لملك مصر (فرعونها) إبان خروج «بني إسرائيل» من مصر، فهذا لا يفسر ذلك اللغز: كيف امتلك «قارون» ثروة عظيمة كتلك ومن أين حصل عليها؟!

التفاسير أشارت صراحة إلى منبع ثروة «قارون» ومصدرها: الكيمياء!

لكن الكيمياء بمعناها ومعارفها المتداولة الآن، أو حتى في أثناء العصور القديمة، لا تتضمن ممارسةً تجلب كل هذه الأموال الطائلة، فمن الواضح إذًا أن ربط ثروة «قارون» بالكيمياء، مثلما نفهم معنى المصطلح الآن، غير صحيح، والعلم الذي يُعزى

إليه أصل ثروة «قارون» أو «قورح» المهولة هو الخيمياء!

لكن من أين تعلَّم «قارون» الخيمياء، وهل فعلًا نجح في التوصل إلى أحد ألغازها وأحلامها الكبرى: تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب؟!

في كتب التراث والتاريخ الإسلامي نجد روايات بعضها بالغ الإثارة وحافل بمعلومات أو قصص محملة بالدهشة حول (لغز قارون) الذي امتلك ثروة لا يكاد يذكر لها مثيل في التاريخ الخاص بالأديان الإبراهيمية الثلاثة، وقد انصبت تلك الروايات حول تفسير الآية الكريمة }إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي{.

ونبدأ من موسوعة (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري، إذ نجد الرواية الطريفة الآتية:

«ويقال: إن قارون كان أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه، وكانت من حديد، فلما ثقلت عليه جعلها من الخشب، فثقلت عليه، فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع، تحمل معه على أربعين بغلًا.

وقال بعضهم: أراد بالمفاتيح الخزائن. وإليه ذهب أبو صالح.

وقال أبو رزين: لو كان مفتاح واحد لأهل الكوفة كان كافيًا.

واختلفوا في سبب اجتماع تلك الأموال لقارون؛ فقيل: كان عنده علم الكيمياء.

قال سعيد بن المسيب: كان موسى يعلم الكيمياء، فعلم يوشع ثلث العلم، وعلم كالب ثلثه، وعلم قارون ثلثه؛ فخدعهما قارون حتى أضافا علمهما إلى علمه.

وحكى الكسائي: كان قارون من فقراء بني إسرائيل، فأوحى الله إلى موسى أن يحلي تابوت التوراة بالذهب، وعلمه صنعة الكيمياء؛ فجاء قارون إلى أم كلثم أخت موسى - وقد قيل: إنها كانت زوجته- فسألها: من أين لموسى هذا الذهب؟ فقالت: إن الله تعالى قد علمه صنعة الكيمياء. وكان موسى قد علمها الصنعة، فتعلمها قارون منها.

قالوا: فكان ذلك سبب أمواله، فذلك قوله كما أخبر الله تعالى عنه: «قال إنما

أوتيته على علم عندي»».

أما كتاب (متشابه القرآن والمختلف فيه) لمؤلفه «أبي جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب» فقد وردت فيه المناقشة التالية لقصة «قارون»:

«قوله تعالى: }إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي{[القصص: ٧٨].

لم يقل قارون: أوتيته بعلم . وليس في اللغة أن يقال: أعطيت كيت على علم، أن يكون العلم سببًا للعطية على أن العلم كثير فمن أين لنا أن المراد به، الكيمياء؟

ومعنى الآية: إن الله أخبر بمثل ذلك عن كل من يؤتيه الله مالًا، إنه يقول مثل ما قال قارون، ولما قال: }إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي{ رد عليه ذلك بقوله: {بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ} [الزمر: ٤٩]. يعني: امتحان، لا استحقاق. ولا تعلق في ذلك بقوله: {عِندِي}، لأنه يريد: أن هذا كما قلته فيما أراه، وأتوهمه.

وقالت المعتزلة: الكيمياء باطل، لأن أصحابه يدعون قلب الجنس.

وعندنا إنه من المعجزات، ولا يؤخذ إلا بالوحي مثل الطب والنجوم.

وقالوا (١): إن موسى علم قارون منها الثلث، وعلم يوشع الثلث، وعلم ابن هارون الثلث، فخدعها قارون.

ويقال: إن موسى -عليه السلام- سألته امرأته شيئًا، فقال: خذي من هذا النبت، فاجعليه على المس، فإنه سيصير ذهبًا.

فسمع منه قارون، ونهاها عن ذلك، وأعطاها شيئًا، واشتغل به))

ابن كثير أورد نقدًا صريحًا وتكذيبًا لمسألة الكيمياء في الجزء الأول من (البداية والنهاية) إذ يقول:

«وأما من زعم إن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم، فاستعمله في جمع الأموال، فليس بصحيح، لأن الكيمياء تخييل وصبغة، لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق».

في هذا العرض المختصر نرى تباين الآراء، فمن المفسرين والمحدثين من يرى أن «قارون» كان يزاول صنعة الكيمياء، أشرنا هنا إلى أن المقصود هنا هو الخيمياء، لكون عملية تحويل المعادن العادية إلى ذهب ليس من بين فروع أو أفكار الكيمياء العلمية، وبعضهم يرفض هذا الرأي ويشجبه!

لكن في كل الحالات:هل حاز «قارون» ثروته من الخيمياء فعلًا، وإذا لم يكن هذا صحيحًا فما هو المقصود بإشارته إلى العلم الذي ناله والذي عاونه في تكوين هذه الثروة العظيمة؟!

تنوعت آراء من فسروا وشرحوا آيات القرآن الكريم فيما يخص تفسيرهم للآية } إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي{.

فمنهم من ذهب إلي أن العلم المقصود، والذي هو مصدر ثروة قارون الكبيرة، هو معرفة التجارة وفنون الصناعة، وبعضهم قال إنه عثرعلى كنوز «يوسف»، الذي كان من بني إسرائيل مثله، وقد شغل مناصب مهمة بعد بيعه من قبل إخوته عبدًا، واسترقاقه في مصر لفترة، أو إنه أي «قارون» كان أمينًا على خزانة «فرعون»، وربما ورث هذا اللقب والمهنة عن «يوسف بن يعقوب»، أما الرأي الأخير والأكثر إثارة، فهو يتحدث عن معرفة «قارون» بطريقة تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، وهو لب وأحد الطموحات الكبرى لعلم الخيمياء القديم البائد!

بالنظر إلى أن «قارون» وقومه كانوا يعيشون في مصر، بل ولد ونشأ على أرضها، فإنه إن كان فعلًا عالمًا بالخيمياء فلن يكون له مصدر لتعلم هذا العلم الغامض سوى من كان يعيش معهم وبينهم: المصريون القدماء!

لكن هل عرف المصريون القدامى صنعة الخيمياء حقًا؟!

لا جدال في أن للمصريين القدماء باع كبير في علم الخيمياء، بل إن هذا العلم، على أغلب الآراء والآثار المتبقية، أنطلق أصلًا من أرض مصر، بل إن اسمه ذاته يشير إلى موطنه الأول وهو مصر أيضًا، وقد مر بنا سابقًا ظهور إرهاصات خيميائية تخص شخصية غامضة ارتبطت بشكل وثيق، كما تسرد أسفار العهد القديم، بـ«إبراهيم»

أبي الأنبياء، والجد الأعلى لبني إسرائيل، وهو «ملكي صادق»، الذي لا يقل غموضًا وإلغازًا عن كثير من الشخصيات التاريخية التي عاشت واختفت في ظروف ملتبسة، و«إبراهيم» نفسه يشار إلى أنه كان له علاقة من نوع ما بعلم الخيمياء، بل إنه يسمى في بعض الأحيان «بالخيميائي الأول العظيم the first great alchemist».

ومع انحدار أحفاده من كنعان (حيث كان مستقرهم الأول) إلى مصر، التي جاؤوها مع أبيهم «يعقوب» ونسله من الأسباط الاثني عشر، لا بد أنهم اختلطوا بالمصريين، مهما كانت معاملة الأخيرين لهم وتعاليهم التي تشير إليها النصوص المقدسة عليهم، وفي النهاية فإن «موسى» نفسه لم يكن سوى رجل مصري بالتنشئة والتربية، وتربيته في قصر ملك مصر تعني أنه نال قسطًا من علوم المصريين وآدابهم، وليس من المستبعد أن يكون قد لُقن مبادئ وأساسيات الخيمياء على يد الكهنة المصريين، إن كان قد خضع لنفس نظام التعليم الذي خضع له من تربى ونشأ بينهم من أولاد الأسرة الملكية المصرية، وهو نظام كان مركزًا في يد الكهنة في الأساس!

إذًا معرفة «موسى» بالخيمياء واطلاعه عليها أمر وارد جدًا، وهنا يلفت نظرنا ارتباط قصة «موسى» وخروج (بني إسرائيل) بالذهب مرتين في حادثتين لافتتين جدًا للنظر: الأولى هي قصة «قارون» وثروته مجهولة المصدر، أو التي لم يتفق حتى الآن على مصدر مؤكد لها.

والثانية هي قصة «العجل الذهبي» الذي عبده «بنو إسرائيل» في البرية حينما استبطؤوا عودة «موسى» إليهم واتخذوه إلهًا لهم.

(سوف يتم تفصيل مسألة العجول الذهبية لدى اليهود القدماء وصلتها بمصر، وشبهة كونها رمزًا خيميائيًا في الأساس في الجزء الخاص بها الذي سيرد تاليًا)

لكن وكما هو معروف في أحداث قصة (العجل الذهبي)، فإن «موسى» يذهب للقاء ربه، وتلقى التعاليم والوصايا منه فوق جبل «سيناء»، ويترك الشعب في رعاية أخيه «هارون»، وفي حين هو يتلقى الكلمات من الرب يخبره بأن الشعب ارتد وعكف على عبادة عجل من الذهب، صنعه لهم وفق رواية التوراة «هارون» بنفسه، فيعود «موسى» إليهم من فوره وقد ملأه الغضب والحسرة، حتى إنه يلقى بلوحين يضمان

كلمات الرب فيتكسران، ويوبخ أخاه بعنف، ومن ثم يأخذ العجل الذهبي ويطحن ما تبقى منه، بعد أن يقوم بصهره، حتى يجعله غبارًا ينثره على سطح الماء ويسقي بقية الشعب، في حين يأمر من خالفوا أوامر ربهم وذهبوا خلف إله باطل وهو العجل المصوغ من الذهب، أن يقتلوا أنفسهم تكفيرًا عما اقترفوه، فيفنى من شعبه ثلاثة آلاف شخص في ساعات قلائل، يخالف القرآن القصة التوراتية في بعض المواضع، أهمها أنه بالطبع يبرئ»هارون» أخا «موسى» من تهمة صناعة العجل، وينسبها إلى رجل غامض يسمى «السامري»، في كل الحالات يلفت نظرنا في تلك القصة أمرين: أولهما الشكل الذي صنع الإله المزعوم عليه (شكل عجل).

والثاني: هو نقطة سقي الشعب المارق من الماء الممزوج بغبار الذهب الذي كان عجلهم مصنوعًا منه.

الأول يسهل تفسيره باعتبار أن «بني إسرائيل» أقاموا فترة كبيرة في مصر، يقدرها البعض بنحو مئتي عام، وعاشوا مع المصريين واختلطوا بهم، وليس من الغريب عليهم أمرعبادة العجل، التي كانت شائعة في مصر تحت مسميات عدة مثل «أبيس»، الذي كان عجلًا يرمز للإله بتاح.

الثاني هو الأمر الأكثر أهمية فلماذا أقدم «موسى» على جعل الشعب يشرب الماء المختلط بغبار الذهب؟!

بعيدًا عن البعد الديني للقصة فإن «موسى» نفسه، وبحسب القصص التي ساقها المفسرين، والتي أشرنا إليها سابقًا، أوتي قدرًا من علم الخيمياء، حتى إن شقيقته «مريم»، التي تسميها المرويات الإسلامية «أم كلثوم»، كانت خيميائية كذلك، ونسب إليها نقل معارف الخيمياء إلى «قارون»، عند وضع كل هذه المعطيات بجوار بعضها لا يفوتنا أن نلحظ بعدًا خيميائيًا واضحًا في قصة الماء المخلوط بغبار الذهب، إذ إن غبار الذهب **gold dust** ينال أهمية كبيرة في الخيمياء، وقد استخدم كعلاج لفترات طويلة، وقد نُسبت إليه قدرات علاجية مذهلة، كما كان هناك تحضير خاص لجعل الذهب صالحًا للشراب فيما يسمى **aurum potabile**.

ولأهميته الفائقة في تحضير الأدوية التي تشفي من أمراض كثيرة، اكتشفت

فوائد علاجية كبيرة للذهب في العصر الحديث، فإن من الجائز أن إقدام «موسى» على جعل شعبه يشرب غبار الذهب، المتبقي بعد تدمير ونسف العجل، هو عمل ذو صبغة خيميائية في الأصل، كنوع من محاولة علاجهم وتطهيرهم من نوازع المعصية والتمرد، وربما تحصينًا لهم من جملة أمراض يمكن أن تصيبهم في حياة الصحراء القاسية، التي لم يألفوها في مصر الخصبة!

إن كان الأمر كذلك فإن قصة «قارون»، التي حدثت قبلًا، قد تقدم دليلًا على توغل الخيمياء في الفكر القديم، فإن الأول إن لم يكن مصدر ثرائه هو اكتشافه لكنوز «يوسف» المدفونة، أو معرفته بطرق التجارة والصناعة، وإن كانت الأخيرة لا تحقق له هذا المقدار الهائل من الثروة، فإن قصته سوف يكون من المشروع إعادة قراءتها كلغز آخر، يضاف إلى تلك القائمة الكبيرة من الألغاز التي يحفل بها هذا العلم الغامض الممزوج بالسحر: الخيمياء الخالدة!

السامري «صانع العجل»

(كيف خار الجماد؟!)

غير بعيد عن قصة «قورح»أو«قارون» لا نزال مع بني إسرائيل، وقصص الشخصيات الغامضة التي ظهرت في هذه الفترة القديمة والملتبسة من تاريخ الشرق، لكن وبالخلاف للكتاب المقدس هذه المرة، نرى قصة شخصية ملغزة أخرى انفرد القرآن الكريم بذكره وسرد طرف من قصته، وهو المسمى بـ»السامري» ولما كنا قد أشرنا من قبل إلى أن التوراة تتهم «هارون» أخا «موسى» بصنع العجل الذهبي، وأمر الشعب بالعكوف على عبادته، في أثناء غياب «موسى»، فإنه من فضول القول أن القرآن لا يوافق العهد القديم في تلك النقطة، ويخالف فيها الرواية التوراتية مخالفة تامة، فبدلًا من شخص «هارون» ينسب القرآن صنع العجل إلى «السامري»، ولكون الرواية القرآنية لا تقدم أية معلومات تفيد في تحديد شخص «السامري» أو تكشف حقيقة وجوده التاريخي، فإننا سنعتمد على كتب التفسير وتراث السيرة النبوية لنتعرف ظروف وملابسات ظهور واختفاء هذه الشخصية الغامضة المثيرة.

ولنبدأ من الآيات التي ذكر فيها «السامري» وقصته الشائنة:

«وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ٨٣ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ٨٦ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ٨٩ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ٩٠ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ٩١ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ٩٣ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٩٤ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ٩٦ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا» [طه: ٨٣ - ٩٧].

إذًا نرى في هذه الآيات مجموعة من التفاصيل التراكمية للقصة:

1.ف«موسى»النبي سارع إلي مكان لقائه بربه، تاركًا قومه خلفه في رعاية أخيه «هارون».

2.الله يبلغ نبيه أن قومه قد ضلوا، وأن الذي أغواهم شخص يدعى «السامري».

3.يعود«موسى»إلى قومه يملؤه الغضب والحزن على ما صدر منهم من كفر وجحود في حق ربهم، الذي أخرجهم من مصر ونجاهم من فرعون.

4.القوم يعتذرون معلنين أنهم وقعوا ضحية «السامري»، وأنه أخذ منهم ما حملوه معهم من ذهب المصريين، القصة التي روتها التوراة تفصيليًا في سفر الخروج.

5.السامري أخذ الذهب من قوم«موسى»، ثم ألقاه في النار، صهره وسبكه، وجعل منه صورة عجل له جسد كبير.

6.السامري تمكن من جعل العجل المسبوك من الذهب يخور، أي يصدر صوت البقر!

7.«هارون» يحاول إثناء القوم عن عبادة هذا العجل العجيب، لكنهم يرفضون الأخذ بنصيحته، ويظلون عاكفين على عبادته حتى يرجع إليهم «موسى».

8.حينما يواجهه «موسى» يكشف «السامري» عن الطريقة التي استطاع بها جعل العجل الجامد يخور ويصدر صوتًا، وهي أنه أخذ قبضة من أثر الرسول فنبذها!

9.يُعاقب «السامري» بعقوبة مبتكرة، وهي أنه يظل طوال ما بقي له من عمر لا يتحمل أن يمسه أحد، لعله أصيب بداء جلدي، وأن يمضي ملعونًا في الدنيا والآخرة.

10.أخيرًا يقوم«موسى» بحرق العجل الذهبي ونسفه، أي صهره ونثر بقاياه على وجه الماء!

تتراكم هنا سلسلة من التساؤلات حول هذه الحادثة، التي ضمت جملة من العجائب تحتاج منا تقصي وبحث مستفيض:

- فأولًا: من هو«السامري»هذا؟ وهل «السامري» اسم له أم لقب؟ أم إنه نسبة إلى

مكان ما؟

• وثانيًا: كيف استطاع «السامري» صهر وسبك الذهب في البرية،هل له خبرة بسباكة المعادن ومن أين حصل عليها؟!

• ثالثًا: وإذا فهمنا قدرته على سبك الذهب على شكل عجل، مع أن هذا يتطلب مهارة خاصة يبدو أنها لم تكن تعوز«السامري»، فتكون النقطة الأهم هي كيف تمكن من جعل كتلة من المعدن الجامد المصور تصدر صوتًا كأنها جسد حي؟!

التبرير الذي قدمه «السامري» لا يقل إدهاشًا في حد ذاته عن فعله العجيب، فمن هو الرسول الذي أخذ قبضةً من أثره، وما معنى هذه العبارة الملتبسة، وكيف تستطيع قبضة من أثر نبي أو رسول ما أن تمنح جسدًا جامدًا مسبوكًا بعض خصائص الأجساد الحية؟

ذهب المفسرون مذاهب شتى في تفسير وقراءة الآيات الخاصة بقصة (العجل والسامري)، سوف نعرض مقتطفات منها ثم نعلق عليها، ونعرض رأيًا مغايرًا غير شائع وسط عموم الناس.

فمن تفسير«ابن كثير» لآيات سورة طه نقتطف هذه السطور:

«قَالَ فَإنَّا قَد فَتَنَّا قَومَكَ مِنۢ بَعدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» قَالَ فَإنَّا قَد فَتَنَّا قَومك مِن بَعدك وَأَضَلَّهمْ السَّامِرِيّ». أَخْبَرَ تَعَالَى نَبِيّه مُوسَى بِمَا كَانَ بَعده مِنْ الْحَدَث فِي بَنِي إسْرَائِيل وَعِبَادَتهمْ الْعِجْل الَّذِي عَمِلَهُ لَهُمْ ذَلِكَ السَّامِرِيّ. وَفِي الْكُتُب الْإِسْرَائِيلِيَّة أَنَّهُ كَانَ اِسْمه هَارُون أَيْضًا وَكَتَبَ اللَّه تَعَالَى لَهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّة الْأَلْوَاح الْمُتَضَمِّنَة لِلتَّوْرَاةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاح مِنْ كُلّ شَيْء مَوْعِظَة وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْء فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمك يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَار الْفَاسِقِينَ».

أَيْ عَاقِبَة الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِي الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِي».

«...قَالَ فَمَا خَطْبك يَا يَقُول مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام لِلسَّامِرِيِّ مَا حَمَلَك عَلَى مَا صَنَعْت؟ وَمَا الَّذِي عَرَضَ لَك حَتَّى فَعَلْت مَا فَعَلْت قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق عَنْ حَكِيم بْن جُبَيْر عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: كَانَ السَّامِرِي رَجُلًا مِنْ أَهْل باجرما وَكَانَ مِنْ

قَوْم يَعْبُدُونَ الْبَقَر وَكَانَ حُبّ عِبَادَة الْبَقَر فِي نَفْسه وَكَانَ قَدْ أَظْهَرَ الْإِسْلَام مَعَ بَنِي إِسْرَائِيل وَكَانَ اِسْمه مُوسَى بْن ظَفَر وَفِي رِوَايَة عَنْ اِبْن عَبَّاس أَنَّهُ كَانَ مِنْ كَرْمَان وَقَالَ قَتَادَة كَانَ مِنْ قَرْيَة سَامِرَا...».

}... قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي{.

(قال بصرت بما لم يبصروا به) أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أي: من أثر فرسه. وهذا هو المشهورعند كثير من المفسرين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن السدي، عن أبي بن عمارة، عن علي، رضي الله عنه، قال: إن جبريل، عليه السلام، لما نزل فصعد بموسى إلى السماء، بصر به السامري من بين الناس، فقبض قبضة من أثر الفرس قال: وحمل جبريل موسى خلفه، حتى إذا دنا من باب السماء، صعد وكتب الله الألواح وهو يسمع صرير الأقلام في الألواح . فلما أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده قال: نزل موسى، فأخذ العجل فأحرقه. غريب وقال مجاهد: (فقبضت قبضة من أثر الرسول) قال: من تحت حافر فرس جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع.

قال مجاهد: نبذ السامري، أي: ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلًا جسدًا له خوار حفيف الريح فيه، فهو خواره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا علي ابن المديني، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا عمارة، حدثنا عكرمة، أن السامري رأى الرسول، فألقى في روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها في شيء، فقلت له: «كن» فكان. فقبض قبضة من أثر الرسول، فيبست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات وكان بنو إسرائيل استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السامري: إنما أصابكم من أجل هذا الحلي، فاجمعوه. فجمعوه، فأوقدوا عليه، فذاب، فرآه السامري فألقي في روعه أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت: «كن» كان . فقذف القبضة وقال: «كن»، فكان عجلًا له خوار، فقال:(هذا إلهكم وإله موسى) .

ولهذا قال: (فنبذتها) أي: ألقيتها مع من ألقى (وكذلك سولت لي نفسي) أي: حسنته وأعجبها إذ ذاك.

أما «البغوي» فيورد في تفسيره ما يلي:

(قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك) أي: ابتلينا الذين خلفتهم مع هارون، وكانوا ستمئة ألف، فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفا (من بعدك) أي: من بعد انطلاقك إلى الجبل. (وأضلهم السامري) أي: دعاهم وصرفهم إلى عبادة العجل وأضافه إلى السامري لأنهم ضلوا بسببه».

«... (ولكنا حملنا) قرأ أبوعمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر، ويعقوب: «حملنا» بفتح الحاء، وتخفيف الميم. وقرأ الآخرون بضم الحاء وتشديد الميم،أي: جعلونا نحملها وكلفنا حملها، (أوزارا من زينة القوم) من حلي قوم فرعون، سماها أوزارًا لأنهم أخذوها على وجه العارية فلم يردوها . وذلك أن بني إسرائيل كانوا قد استعاروا حليًا من القبط، وكان ذلك معهم حين خرجوا من مصر. وقيل: إن الله تعالى لما أغرق فرعون نبذ البحر حليهم فأخذوها، وكانت غنيمة، ولم تكن الغنيمة حلالًا لهم في ذلك الزمان، فسماها أوزارًا لذلك. (فقذفناها) قيل: إن السامري قال لهم: احفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى. قال السدي قال لهم هارون إن تلك غنيمة لا تحل، فاحفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى، فيرى رأيه فيها، ففعلوا. قوله:(فقذفناها) أي: طرحناها في الحفرة. (فكذلك ألقى السامري) ما معه من الحلي فيها، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أوقد هارون نارًا وقال: اقذفوا فيها ما معكم، فألقوه فيها، ثم ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل. قال قتادة: كان قد أخذ قبضة من ذلك التراب في عمامته ...».

ولم تبتعد معظم التفاسير الأخرى عن تلك المعاني ونفس الشروح النمطية تقريبًا، فمن هذا نرى أنه لا اتفاق على حقيقية شخصية «السامري» أو نسبته، كما أن تفسير (قبضة من أثر الرسول) بكونها حفنة من تراب مرت عليه سنابك فرس «جبريل»، مكرر وشبه متواتر بين الشراح والمفسرين المسلمين!

غير أن ذلك لا يحل اللغز الكبير: كيف تمكن «السامري» من جعل كتلة من المعدن تخور ويصدرعنها صوت كما الأجسام الحية؟!

إن مسألة استطاعة «السامري» سبك الذهب، الذي نهبه بنو إسرائيل قبيل خروجهم من مصر، على شكل عجل تعتبر أسهل جزء في القصة، إذ لا يستبعد أن يكون للرجل إلمام بطرق صهر وتشكيل المعادن، بل ليس من المستحيل أنه كان يمارس هذه المهنة إبان وجوده في مصر، على أساس أن قوم «موسى» عاشوا طويلًا بين المصريين واختلطوا بهم، وتكلموا لغتهم وعملوا معهم، ولا تعتبر مسألة استعبادهم من قبل المصريين مانعًا من السماح لهم بتعلم وممارسة الحرف اليدوية التي برع فيها أهل البلاد، مثل أعمال البناء والنقش على الجدران وسبك المعادن، أما أول نقطة غامضة حقًّا في قصة «السامري» فهو أصله الذي اختلف فيه المفسرون، إذ إن نسبته إلي بلدة تسمى سامرة أو سامراء هي محالة تمامًا، فالأولى (السامرة)، لم تظهر إلى الوجود إلا في عصر الملك «عُمْري» سادس ملوك المملكة اليهودية الشمالية(مملكة إسرائيل)، وقد كان زمن بنائها هو منتصف القرن العاشر قبل الميلاد، وبون شاسع بين تاريخ خروج «بني إسرائيل» من مصر ووقوع قصة عبادة العجل، وبين هذا التاريخ المفترض للمملكتين اللتين انحلت إليهما مملكة «داود» وابنه «سليمان»، بعد بضع مئات من السنين، أما المدينة الثانية التي تحمل اسمًا يطابق نسبة «السامري» فهي مدينة «سامراء» العربية، التي بنيت في عهد خلافة «المعتصم» العباسي، وهي فرضية يعد تناولها وطرحها في حد ذاتها استهانة بعقول القراء والدارسين.

إذًا فلا مناص لدينا من الاعتراف بعجزنا عن معرفة حقيقة أصل السامري، إلا إذا انحزنا إلى الآراء التي تعتبر أن لفظة «سامري» هي وصف وليس نسبة، بمعنى أنها قد تكون مشتقة من كلمة يحرس العبرية שׁוֹמֵר עַל، وتنطق شومير shomer، وقد يكون «السامري» حارسًا أصلًا أو ينتمي لعشيرة تحمل هذا اللقب أو خلافه، كما لا يجب أن يفوتنا أن نتذكر أن اسم مالك جبل السامرة، الذي اشتراه «عمري»، ليبني عليه مدينته الجديدة كان يحمل اسم «شامر»، وربما كان هذا هو اسمه الأصلي، و«السامري» ما هو إلا تعريب لاسمه العبري الأصل.

وإذا كانت النقطة الأولى قد حلت ببساطة مع ذلك، فإن قصة جعل جسد جامد يصدر صوتًا هي الأهم والأكثر تعقيدًا، وهناك حلان مطروحان لتلك القضية، فإما أن الرجل كان لديه خبرة ما مكنته، عبر استخدام أساليب ميكانيكية بدائية من إحداث ثقوب على مسافات محددة في بدن العجل الذهبي، يمر فيها الهواء فيحدث صوتًا شبيهًا بصوت خوار البقر، وهي آليّة بسيطة وإن كانت تحتاج إلى مهارة، لا يصعب على رجل مثل «السامري»أن يحوزها!

وإما التفسير الثاني لقصة (خوار العجل) الذي أورده المفسرون وشراح الآيات من أحاديث وآثار حول كون «السامري» أخذ قبضة من أثر فرس الملاك «جبريل»، وقد قيل إن «السامري» اسمه «موسى»، وأنه ولد بلا أب ولا أم، يعني أنه لم يكن له من يرعاه، وترك في البرية فتكفل الله به وبعث إليه برسوله الأمين ليربيه ويرعاه إلي حين أن يشتد عوده، فلاحظ «السامري» أن فرس «جبريل» لا يطأ شيئًا إلا صار حيًا يضطرب ويتحرك، فلما صح عزمه على خداع وتضليل قوم «موسى»، مستغلًا غياب نبيهم، وعدم قدرة أخيه «هارون» على ردعهم، خوفًا من وقوع فتنة بين صفوف القوم، أخذ قبضة من أثر الرسول، أي من الثرى الذي وطأته سنابك فرس «جبريل»، وألقاها في فم العجل المصنوع من الذهب، فصار يخور مثل البقر المخلوق من لحم ودم!

هذا تفسير ذكره غير واحد من المفسرين، وفي كتاب (قطب الإرشاد) الذي وضعه «فقير الله بن عبد الرحمن الحنفي النقشبندي» رواية نقلًا عن الطبري، والتي تسرد كيف قرر «موسى» حرق عجل السامري الذهبي، فطلب من «قارون»، الذي أخذ علم الكيمياء عن «موسى»، أن يحرقه، فأخبره الأخير أن الذهب لا يحرق بل ينصهر فيزداد جودة، حينذاك دعى «موسى» ربه فأرشده إلى نبتة تسمى «الكيمياء» على شاطئ البحر، وعلمه أنها إن القيت في النار مع أدوية أخرى، ربما المقصود مواد أو معادن أخرى، صارت ذهبًا، لكنها إن رميت في النار وحدها احترقت، وهذه وصفة خيميائية لا شك فيها!

في كتابه (قصص الأنبياء)، الذي أثار جدلًا ومنع من قبل الأزهر، يورد د«عبد

الوهاب النجار» رأيًا مغايرًا وفريدًا في مسألة (العجل الذهبي)، فهو بعد أن يسرد الآراء الأخرى المتقدمة، يقدم تبسيطًا للقصة بأن العجل لم يكن ربما مصنوعًا من الذهب على الإطلاق، بل إن «السامري» ربما لجأ إلى خداع قومه، فاستحل ذهبهم المسروق أصلًا وأخذه لنفسه، ثم أحضر لهم عجلًا حقيقيًا مدعيًا كونه مصنوعًا من الذهب الذي طرحه أمامهم في النار، وليس من المستبعد على قوم على هذه الدرجة من الغفلة وبساطة التفكير أن يصدقوا أمرًا كهذا أبدًا، خصوصًا مع تعودهم رؤية مظاهر تقديس المصريين للعجل في صورة إلههم المسمى «أبيس»، أو «هابيس» الذي كان يعد رمزًا للإله «بتاح»، وكان يحاط بمظاهر التقديس والتبجيل، فيحنط عند موته ويدفن في مقبرة مخصصة للعجول المقدسة!

أما (قبضة من أثر الرسول) فقد يكون معناها تعاليم ووصايا النبي «موسى»، التي نبذها «السامري» نبذًا حقيقيًا، أي تجاهلها وكفر بها، لا أنه ألقاها في جوف العجل مثلما فسرها الآخرون.

تفسير مدهش، وقد يكون مطابقًا للقراءة الدقيقة للقصة، وربما غير ذلك، غير أن قصة «قارون» ثم رواية «العجل الذهبي»، وحضور الرموز والتلميحات الخيميائية فيهما أمر يستحق التفكير حقًا، خصوصًا إذا كان هناك تفسير مغاير وأكثر إثارة للدهشة لقصة «السامري»، وهذا التفسير العلمي البحت، برغم كونه أسطوريًا تمامًا وغير مدلل عليه بأي طريقة حتى الآن، موجود في ثنايا قصة مشابهة، لكنها أحدث زمنًا بكثير، ومثال أكثر عصرية، وهو قصة الرؤوس المعدنية الناطقة، المعروفة بالرؤوس البرونزية **brazen head**!

جدير بالذكر أن علاقة بني إسرائيل بعبادة العجول الذهبية لم تنتهِ بتدمير ونسف عجل «السامري»، وإنزال العقاب بصانعه والعاكفين على عبادته، بل إنه من المدهش هو تمسك اليهود بتلك العبادة، وارتدادهم إليها عدة مرات، حتى انتهى الحال بهم إلى اعتمادها عبادة رسمية، تقرها وترعاها المملكة في عهد «يربعام بن نباط»!

سليمان بن داود:
(أسطورة الملك النبي والخيميائي)

لم يرتبط اسم شخصية من العصور القديمة بالعجائب والأمور الخارقة للقوانين الطبيعية مثلما ارتبط بها النبي الملك «سليمان بن داود»، ووفقًا للعهد القديم فإن «سليمان» هو ابن الملك «داود» من زوجته «بَثْشَبَعَ»، التي كانت لقائده«أوريا الحثي» قبله، وقد روى سفر(الملوك الأول) كيف اختار«داود» ابنه «سليمان» ليملك على شعب إسرائيل في أواخر أيامه، ثم انفرد الأخير بالملك حين وفاة أبيه.

وتنسب إلى «سليمان» أربعة من أسفار العهد القديم (أمثال سليمان، والجامعة، ونشيد الأنشاد، والحكمة) كما يُعزَى إليه اثنان من مزامير سفر المزامير، ولم تذكر التوراة أمورًا خارقة تخص «سليمان»، مثلما لم يُضْفَ صفة النبوة عليه، أما «سليمان» في القرآن الكريم فله قصة أخرى أكثر إثارة ولفتًا للانتباه.

وبداية فقد ذكر«سليمان» في آيات القرآن الكريم سبعة عشر مرة في سبع سور، هي: البقرة والأنبياء والنمل وص والنساء والأنعام وسبأ، وقد تضمَّنَ إشارات القرآن إلى «سليمان» عدد من الآيات والأعاجيب التي أعطيت له مثل:

1.قدرته على فهم منطق (أي لغة) الطيور والحيوانات والحشرات.

2.تسخير الجن لخدمته وإطاعة ما يأمرهم به، مع قدرته على حبسهم وإنزال العقوبات بالعصاة والمتمردين منهم.

3.تسخير الرياح له.

4.إسالة عين القطر له، أي جعل النحاس مذابًا مصهورًا.

وفي المقابل تعج هذه الآيات بالقصص حول غرائب النبي «سليمان»، مثل قصة إحضار عرش ملكة سبأ إليه، ومحادثته مع الهدهد، وقصة موته الغامضة التي اختلف المفسرون حول حقيقة بقائه زمنًا طويلًا، قيل أنه بلغ العام، ميتًا مستندًا إلى عصاه دون أن يشعر به أحد!

كل تلك القصص والآيات، مع اختلاف تأويلها وفهم المفسرين لها، جعلت من «سليمان» شخصية تتمتع بقدرات فوق طبيعية، ولم يكتفِ المفسرون بما ذكره القرآن حول عجائبه والكرامات والآيات التي مُنحت له، فامتلأت كتب الأحاديث والسنة بسلسلة مدهشة حقًا من التراث النبوي الشفهي، والتفاسير المذهلة لما كان يجري على يدي الملك النبي «سليمان».

وبعيدًا عن تلكم القصص التي لا تمت بصلة إلي موضوع كتابنا هذا، فإن «سليمان» مثلما نُسبت إليه عجائب ترتبط بالسحر، والقدرات الخارقة لفهم منطق المخلوقات غير البشرية والهيمنة على مصادر القوة، والتحكم في العفاريت والجن والكائنات الما ورائية، فإن ثمة قصص وحكايات من ضمن قصص «سليمان» تبدو أقرب إلى المنطق العلمي، وأساليب تحقيق الأغراض باستخدام قوانين واكتشافات علمية لم يعرفها البشر في عصره، فنسبوها إلى السحر والكرامات النبوية، وكثير من هذه القصص تتلامس بشدة مع موضوعنا الأثيرعن الخيمياء.

من ضمن القصص (الخيميائية) في سيرة النبي الملك «سليمان»»خاتم سليمان» Seal of Solomon، الذي قيل إنه كان يحمله معه دائمًا، وكان هذا الخاتم يملك قوة شفائية وسحرية خارقة، إذ كان وفقًا للروايات اليهودية عبارة عن شكل نجمة سداسية الجوانب أو ما يسمى هيكساجرام HEXAGRAM، وله قدرات خارقة، أما الروايات الإسلامية فتصف لنا هذا الخاتم بصفات مرهقة للخيال، وعسيرة على الاستيعاب إذ تجعل منه مناط حكمة «سليمان» وحكمه وملكه، وتصف لنا كيف يعرضه فقدان هذا الخاتم لأخطار رهيبة تصل حتى خسارته لعرشه وسلطانه وكل شيء، في التفسير الذائع الصيت للقرآن والذي وضعه «ابن كثير» نقرأ هذه الرواية المدهشة التي نوردها بالتفصيل:

((حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية أخبرنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء فأعطى الجرادة خاتمه - وكانت الجرادة امرأته وكانت أحب نسائه إليه- فجاء الشيطان في

صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي. فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتمي. قالت: قد أعطيته لسليمان، قال: أنا سليمان. قالت: كذبت، لست سليمان، فجعل لا يأتي أحدًا يقول له: أنا سليمان، إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله -عز وجل-. قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتنكرن من سليمان شيئًا؟ قلن: نعم إنه يأتينا ونحن حيَّض، وما كان يأتينا قبل ذلك، فلما رأى الشيطان أنه قد فُطِن له ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتبًا فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس، وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم، فأكفر الناس سليمان -عليه السلام- فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر فتلقته سمكة فأخذته، وكان سليمان يحمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكًا فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمل لي هذا السمك؟ فقال: نعم. قال: بكم؟ قال بسمكة من هذا السمك، قال: فحمل سليمان -عليه السلام- السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم؛ فأخذها سليمان فشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها فأخذه فلبسه. قال: فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين، وعاد إلى حاله، وهرب الشيطان حتى دخل جزيرة من جزائر البحر؛ فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطانًا مريدًا، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه، حتى وجدوه يومًا نائمًا؛ فجاؤوا فبنوا عليه بنيانًا من رصاص، فاستيقظ فوثب، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص قال: فأخذوه فأوثقوه وجاؤوا به إلى سليمان، فأمر به فنُقِر له تخت من رخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سد بالنحاس، ثم أُمِر به فطرح في البحر، فذلك قوله: }وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ{ [ص: ٣٤]. «قال: يعني الشيطان الذي كان سلط عليه».

من هذه الرواية نخرج بنتيجة واحدة مهمة، وهي أن خاتم « سليمان » كانت له أهمية قصوي، وكما تصف لنا الروايات فقد كان على الخاتم نقش يحمل تعظيما له،

وقد كان لهذا النقش قوة هائلة في تسخير الجن والعفاريت، وإلزامهم بطاعة أوامر « سليمان » وخدمته، وكانت هذه الكلمات على هيئة سطر واحد جاء فيه (سبحان من ألجم الجن بكلمته)، بينما تذكر كتب أخرى أن خاتم سليمان كان به فص أرسل إليه من السماء، وكان محفوزًا عليه (أنَا الله لا إله إلاَّ أنَا مُحَمَّدٌ عَبْدِي وَرَسُولِي). رأي ثالث أقل انتشارًا يشير إلى أن النقش على الخاتم الأسطوري كان إنما كان طلسمًا بالأحرف العبرانية والسريانية، يتضمن الحروف الأولى من سبع كلمات منها ستة من أسماء الله وهي: (فرد، جبار، شكور، ثابت، ظهير، خبير) والسابعة هي كلمة (زكي)، وهي تعويذة لها قوة رهيبة وتعطي سلطانًا لصاحبها على الجن والشياطين.

نُقش خاتم سليمان بالأحرف السبعة الأولى كما يزعم البعض، ومثلما يُروى فإن قوة هذا الخاتم قابلة للانتقال والتحول إلى من يملكه، وعلى ذلك فقد تمكن شيطان تسميه المصادر اليهودية / المسيحية «أسموديوس» أو «صخر» في الرواية الإسلامية الموازية، من الاستحواذ على قوة الخاتم الخارقة، حينما تمكن من خداع إحدى نساء الملك، وحكم مملكة «سليمان» أربعين يومًا، حتى أعيد الخاتم إلى صاحبه الأصلي بطريقة إعجازية، لا تخلو من طرافة ومغالاة في استعمال نظرية الصدفة وحسن الحظ .

بيد أن خاتم النبى «سليمان» ليس وحيدًا كخاتم ذي قوًى خارقة في التاريخ الأسطوري والميثولوجي، فهناك قصة ذكرها المؤرخ اليهودي «جوزيفوس فلافيوس»حول البطل القومي «إليعازر»، الذي استخدم خاتمًا سحريًا لطرد الأرواح الشريرة والشياطين في حضرة الإمبراطور «فسباسيان»، الذي سمح له بذلك، في سياق متصل عرفت عدة خواتم مسحورة في الثقافات المختلفة من بينها الثقافات النوردية والشرقية، التي ظهرت فيها عدة أدوات وحِلًى تمتلك مواصفات خاصة وإمكانيات لاستدعاء قوى من وراء الطبيعة، وتضج الليالي العربية وقصص ألف ليلة وليلة بتلك الأدوات المشتهاة، لعل أشهرها مصباح علاء الدين وخاتم سليمان وغيرها .

يعرف خاتم سليمان بتابات شلومو Taba'at Shlomo، ويُعتقد أنه قطعة

سماوية الأصل أرسلت إلى «سليمان »، من أجل إعطائه قدرة الهيمنة على الجنيات والعفاريت، القصص المرتبطة بشخصية «سليمان» لم تقف عند خاتمه ذي القوة الأسطورية، بل إن البعض ادعى أن نقوش خاتم سليمان لديها القدرة على تسخير الجن وحبس الكيانات الشريرة، إذا استعملت بشكل صحيح.

وبعيدًا عن الخاتم المسحور بقواه الفائقة، فإن هناك لغزًا آخر يكتنف سيرة «سليمان»، الذي إذا صدقت الروايات التي بين أيدينا، يكون هو أول من استخدم الإشعاع النووى وسخره للقيام بعمليات صناعية مدهشة!

ففي قصة مذهلة مصدرها القسم الثالث من أقسام مشنا التلمود اليهودي، المسمى «سدر نشيم» أي النساء، نجد فصلًا يسمى sotah أي (الخائنة)، ويتكلم عما يجب أن يفعله الزوج الذي يشك بسلوك زوجته، نقرأ تلك الكلمات (ومنذ أن خرب الهيكل توقفت دودة الحجر..).

ويعلق المترجم موضحًا (دودة الحجر يقال إنها خلقت قبل غروب شمس يوم الجمعة، يمكنها تكسير الأحجار الصلبة، حيث استعملها الملك سليمان لبناء الهيكل المسمى باسمه)، ووفقًا للإشارات الوارد حول الشامير Solomon's shamir في هذا القسم فإن هذا الشيء مجهول الهوية:

1.من ضمن العلامات والمميزات التي أعطيت لبنى إسرائيل، مثل المن وقوس قزح.

2.استعمل «سليمان» الشامير في قطع وتشكيل أحجار الهيكل (المعبد).

3.توقفت قوة الشامير بعد تدمير وتخريب الهيكل.

4.كانت الشامير تقوم بقطع الأحجار، دون أن تلامسها، بمجرد تمريرها بالقرب من خطوط الكسر التي يقومون بحفرها عليها (تقطع عن بعد)

5.الشامير قديمة جدًا، لدرجة أنها صنعت في نفس الوقت الذي صنع فيه الكبش الذي قدمه إبراهيم فداء لولده!

6.تعمد أحد خدم «سليمان» سرقة الشامير، الذي أعطي له ليكسر به الزجاج.

إذًا، نحن أمام شيء غامض، غير محدد الهوية بالضبط، ووَصْفه بأنه دودة لا يزيل اللبس ولا يزيل الغموض المحيط به، ونحن أمام سؤالين هامين:

إذا كان هذا الشامير دودة أو مخلوقًا حيًا فكيف له أن يقطع المعادن ويشكلها ؟

وإذا كان آلة أو أداة غير معروفة المصدر أو الشكل، فكيف لها أن تتعطل بمجرد خراب الهيكل وتصبح غير ذات نفع؟ هل كان لها نظام أو شيفرة تشغيل لم يكن يطلع عليها ويملك تعطيلها وقت اللزوم إلا «سليمان» وحده، أو هو ومساعدوه المقربون الذين يثق بهم؟!

وبحسب تفاصيل القصة التلمودية فإن « سليمان « لم يرد أن يستخدم آلات حادة أو قاطعة، مما قد يستغل عادة لسفك الدماء وإزهاق الأنفس في تقطيع المواد المعدة لبناء وتزيين هيكل الرب، وذلك وفقًا لآية من سفر الخروج تقول (وإن صنعت لى مذبحًا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة. إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها)

ووفقًا لروايات الجمارا، التفسير الملحق بمشنا أي متن التلمود، فإن (شامير) التي يُشار إليها ككائن حي في أكثر القصص، كانت تقوم بقطع الحجارة الصلبة، وتفكيك الكتل الحجرية الضخمة، أو قطع النحاس والحديد والألماس اللازم للبناء، (شامير) التي تطورت القصص الخاصة بها لاحقًا مصورة إيّاها كقطعة من الحجر الأخضر، يجب أن تلف بالصوف وتوضع بعيدًا في حاوية مصنوعة من الرصاص، ومليئة بنخالة الشعير، وإذا حُفظت في وعاء من مادة أخرى فإن الوعاء سوف ينفجر تحت تأثير قوتها الغامضة!

تمضي القصة فتصف كيف كانت المواد المعدة لبناء الهيكل، من أخشاب وحجارة ومعادن وأحجار كريمة، يؤتى بها لتعرض لقوة الشامير، فتصير تلك المواد قابلة للتقطيع والتسوية والصقل، دون حاجة إلى استخدام آلات حادة من أي نوع، تطور القصة المستمر جعل أسطورة (شامير) تنتهي إلى اعتبارها مادة ذات حبات كل واحدة منها بحجم حبة الذرة أو الشعير، لها تأثير قاطع على المواد الصلبة والقاسية، وتخزن تبعًا للشروط المشار إليها سابقًا، ويشار إلى أن تلك المادة اعتبرت في مرحلة لاحقة كائن حي من قبل الحاخامات، الذين شرحوا وفسروا التلمود، وفقًا

للكتب القانونية الثانية، الأبوكريفا، فإن (شامير) أهديت إلى الملك سليمان من قبل «عشموديوس» رئيس الشياطين، وفي نسخة أخرى من نفس القصة كانت المادة في حراسة ديك الغاب، أو ما يعرف بدجاجة الأرض، Woodcock، وقد كشف «عشموديوس» هذا السر لسليمان، حين قُبض عليه، وعليه أرسل النبي الحكيم أحد خلصائه لإحضار المادة الثمينة!

كدودة يقال إن دم (شامير) كان له أثر مذيب، يؤدي إلى تسهيل النقش ووضع الأختام العميقة على الأحجار الثمينة، مما يمنحها أيضًا قوة سحرية أو ربما قدرات شفائية كذلك.

وكما يفترض فإن (شامير) قد فقدت قوتها مع تخريب الهيكل على يد «نبوخذ نصر» البابلي، واستيلائه على مقتنيات الهيكل ومحتوياته وتدميره عن آخره!

التفسير الأكثر إدهاشًا وإثارة لحكاية (الشامير) هي ربطها بالمواد المشعة، فقد روى الحاخامات كيف أن (نظرة) من شامير كانت هي كل ما يلزم لنحت الأحجار الكبيرة، ومرورها عليها كاف لقسم كتلة حجرية ضخمة إلى نصفين متساويين، هذه النظرية تبناها اثنان من العلماء المتخصصين في دراسة عصر الملك سليمان، وهما «إيمانويل فليكوفسكي» و«فردريك جونيمان»، ويفسران ما رواه القدماء عن (نظرة الشامير)، التي تؤدي إلى انقسام وتفتت الكتل الكبيرة بتأثير مشابه لتأثيرأشعة ألفا، أما فقدان المادة لقوتها فقد يكون بسبب وصولها إلى نقطة عمر النصف(Half-life t١/٢)،التي تبدأ المواد المشعة في الانحلال والخمود، واضمحلال نشاطها الإشعاعي عندها!

كما أن الأعراض التي وصفت كتأثير التعرض للشامير مطابقة، من عدة أوجه، للآثار المعروفة طبيًا في العصر الحديث الناتجة عن التعرض للمواد المشعة!

جدير بالذكر أن تلك القصص تشير بوضوح إلى كون (الشامير) معروفة سلفًا، قبل أن يستخدمها «سليمان» وبنائيه، وبالنظر إلى أن الهيكل قد استحضر له بناءين من كنعان، فقد يكون مصدر (الشامير) هو بلاد كنعان كذلك، أغرب النظريات حول الشامير وأشدها خيالًا وجموحًا تجعل هذه المادة الفريدة، أو الكائن الحي الغريب،

من عمل زوار من كواكب وحضارات أخرى، كانت أكثر تقدمًا من سكان الأرض في تلك العصور البعيدة!

ارتباط «سليمان» بقصة ذلك المخلوق، إن كان شيئًا حيًا، أو تلك الآلة، إذا كانت أداة مجهولة لدينا، يجعلنا نتساءل حول ما إذا كان الشامير في الأصل مادة مذيبة مجهولة التركيب، أو آلة تقوم برش مادة ما تساعد على فلق وتحطيم أعتى الصخور وأشدها صلابة، وإن كان الأمر كذلك فهل يرتبط ذلك بتركيبة خيميائية غير معروفة ؟ قصة الشامير ليست وحدها ذات الطابع العلمي، وهي تحوي إشارات خيميائية خفية، بل إن ثمة أسطورة أخرى ارتبطت بالتلمود بها أبعاد خيميائية مذهلة، وتحقق واحدًا من أعتى وأغرب الطموحات الخيميائية العتيقة: حلم خلق حياة حية وعاقلة من الجماد!

الداوية:
(فرسان الرب الذين عبدوا الشيطان)

على مر الزمان ظهر العديد والعديد من الجمعيات والمنظمات السرية، بعضها لم يترك أثرًا يذكر، بل تلاشى مع الحتمية التاريخية، مكتفيًا بأن يبقى كسطر أو سطرين في كتب الآثار والقصص، أو المراجع المتخصصة، وبعضها خلف أثرًا عظيمًا، إلى درجة أن تاريخه وأسراره بقيت محل نقاش وجدال محتدم طوال قرون، من أهم المنظمات التي نالت قدرًا وفيرًا من الاهتمام بتاريخها ودواخلها، واهتمامًا أشد بنهايتها المفجعة والمريبة في نفس الوقت، هي منظمة فرسان الهيكل knights Templar، أو كما هو اسمهم الكامل (الأتباع الفقراء للمسيح ومعبد سليمان).

The Poor Fellow-Soldiers of Christ and of the Temple of Solomon

وهم مجموعة من الفرسان الصليبين، سبعة على وجه التحديد، الذين اجتمعوا وقرروا عام ١١١٩م إنشاء منظمة هدفها الدفاع عن الأراضي المقدسة، فلسطين والقدس تحديدًا التي كانت بالفعل تحت سيطرة الصليبيين منذ عام ١٠٩٩م، بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى في نهب أربعة من المدن الإسلامية، وتحويلها إلى إمارات وممالك صليبية في المشرق، كان هدف المنظمة معلنًا لكنه كان غريبًا، فالأرض المقدسة بالفعل تحت أيدي الصليبين، فما حاجتها إلى حماية أصلًا، السؤال الثاني هو أهمية إقحام (هيكل سليمان) تحديدًا في لقب الجماعة الرسمي، والأهم من كل ذلك فكيف لبضعة رجال، مهما كانت درجة فروسيتهم وبسالتهم، أن يؤمّنوا الطريق عبر الأرض المقدسة بمفردهم؟!

ولدت جماعة فرسان الهيكل تحت رعاية ملك بيت المقدس «بلدوين الثاني»، وكان مؤسسها الرئيس هو الفارس الفرانكي، الفرنجي، هوجو دو باين Hugues de Payens، وخلال سنوات قليلة توسعت الجماعة، بضم الكثيرين إلى عضويتها، وتعاظمت قوتها بما حصلت عليه من أموال الهبات والعطايا، ثم اقتحمت مجال

الأعمال التجارية، فتحولت إلى منظمة بالغة القوة والانتشار، لكن المدهش حقًا هو أن الهدف الأصلي للجماعة، هو العمل على حماية الأرض المقدسة، لم يكن من ضمن أولوياتهم، صحيح أنهم شاركوا في القتال في المشرق، لكنهم لم يقودوا أبدًا حركة الدفاع الصليبية، خصوصًا بعد ظهور قوى الزنكيين والأيوبيين، خلال قرن من الزمان تحولت المنظمة، التي كان شعارها الفقر والزهد، ودافعها الدفاع عن العقيدة المسيحية، إلى مؤسسة مريبة، لها أسرارغامضة، وتحوذ قوى كبيرة ومجهولة المصدر، وتعاظمت ثرواتها بشكل غامض جدًا، ارتبطت ثروات فرسان الهيكل بأسطورتين، أسطورة أنهم وجدوا، أسفل الحرم القدسي، إذ كان يوجد مقرهم الأول، بقايا معبد سليمان، أو هيكل أورشليم الشهير، وهناك عثروا على كنز هائل، احتفظوا به لأنفسهم، قيل حتى إنهم تمكنوا من إيجاد تابوت العهد الأسطوري، الذي ألهب خيال الباحثين والمهتمين طوال ألوف السنين، الأسطورة الثانية تربط كنز فرسان الهيكل بأسرار معينة أوتمنوا عليها، وكانت السبب وراء حصولهم على القوة والثروة معًا!

لكن ما طبيعة هذه الأسرار التي حافظ فرسان الهيكل عليها، واستأثروا بها لأنفسهم؟

الجواب، يمكن الحصول على جزء منهم من خلال النهاية التي لقيتها منظمة فرسان الهيكل، وقائمة التهم التي قادت الجماعة، التي كانت ذات يوم تحوز رضا الكنيسة وتفويضها الكامل في الأرض المقدسة، ورضا المؤمنين وإعجابهم، وكانت قبلة يقصدها الأثرياء والإقطاعيين بهباتهم وعطاياهم رغبة في نوال رضا الرب وعطف الكنيسة، قادتهم إلى نهاية مروعة متهمين، ليس فقط بالتجديف والهرطقة والمروق من الدين، بل بالوثنية والانخراط في عبادات غامضة وغريبة وشيطانية!

آخر زعيم، أو أستاذ أعظم للجماعة جاك دي مولاي **Jacques de Molay** **أعدم حرقًا بتهمة الهرطقة والتجديف في ١٨ مارس عام ١٣١٤، وكان بين الخامسة والستين والسبعين من عمره، ونكل ببقية الفرسان، وأعدم عدد منهم حرقًا، بعد تعذيب وحشي ومستمر، وبالطبع صودرت أموالهم وأملاكهم كافة، نهاية غريبة جدًا لمنظمة**

قامت أصلًا من أجل خدمة الكنيسة والعقيدة!

بغض النظر عن الدوافع المالية التي قيل إنها كانت سببًا في إيقاع وتآمر ملك فرنسا «فيليب الرابع»، الذي كان مدينًا للفرسان بمبالغ طائلة عجز عن تسديديها، فإن مصدر الثروة الهائلة لفرسان الهيكل بقيت مثار جدال وصد ورد، ومع بروز تهم الهرطقة والوثنية، برزت أمور أخرى مرتبطة أشد الارتباط، خصوصًا مع انتعاش حركة السحر والشعوذة الحديثة، وعودة الاهتمام بالعلوم الباطنية والسحرية، فنوقشت أدلة تربط بين فرسان الهيكل وممارسات مغرقة في القدم والسرية، ممارسات مرتبطة بالصنوين اللذين طالما ألهبا الوعي الشعبي والخيال الأسطوري للجنس البشري: السحر والخيمياء!

هل بالإمكان أن تكون ثروة فرسان الهيكل المتجمعة نتاج التوصل أو الاستحواذ على أسرار وخبايا سحرية وخيميائية فريدة؟!

سنحاول الإجابة على ذلك السؤال بمناقشة الأدلة التاريخية المتوفرة.

سر الخمسة قرون:
البافوميت الشيطان
الذي عبده فرسان الرب!

بدأت منظمة فرسان الهيكل كجماعة ذات طابع ديني/عسكري، فدمجت خبراتها العسكرية مع حماسها الديني، الذي كان طابع القرون المظلمة، في سبيل تحقيق أحلامهم في الاستحواذ على الأرض المقدسة وكنوزها، وهكذا ظهر دافع مالي ونفعي بحت، لكن الطريقة التي تحول بها الفرسان من مجموعة صغيرة تعتمد على الهبات والعطايا، الموهوبة من المؤمنين والنبلاء والملوك، إلى جماعة تسيطرعلى اقتصاديات دول أوربية كثيرة، وتتجاوز قوانينها الداخلية، وتُعفى حتى من القيود الكنسية فيما يخص هيمنة البابا الدنيوية والسياسية لهو أمرعجيب حقًا، الأعجب أن تنتهي تلك المسيرة المذهلة على يد اثنين ممن كانوا دائمًا الداعم الأكبر لتلك الجماعة المنظمة بالغة القوة: بابا وملك!

فالبابا «كليمنت الخامس» اتهمهم في منشور بابوي رسمي بالمروق الديني والكفر الصريح، وحل جماعتهم وسحب كل دعم كنسي لهم، والملك الفرنسي «فيليب الرابع» نكل بهم، وعذبهم وشردهم، وأعدم رؤساءهم ومقدميهم بأبشع الطرق الممكنة، فلما انتهى الأمر بتلك الطريقة المرعبة؟!

من بين الاتهامات التي طالت فرسان الهيكل، والمتعلقة بالشق الديني من قائمة التهم الموجهة إليهم، هي الكفر، وإنكار المسيح، التجديف على الرب، والبصق على الصليب، وأيضًا عبادة وثن غريب يسمى البافوميت!

لم يحدد أحد من الفرسان المتهمين، الذين أدلوا بتلك الاعترافات تحت مقامع الجلادين، شكل أو هيئة هذا الوثن بالضبط، فقد عرفوه بأنه على شكل رأس فقط، واجتاحت العالم حمى محاولة تحديد شكل هذا الرأس، وإلام يرمز، وعقدت مقارنات لا حصر لها بين الشكل التقريبي لذلك البافوميت، والأشكال المنحوتة على جدران وواجهات بعض الكنائس، التي بنيت تحت سلطة فرسان الهيكل، ولا بد أنها تحمل

جزء من عقائدهم وأفكارهم الدينية الحقيقية، لكن هل من المنطقي أن يضع الفرسان صورة أو رمز لوثن شيطاني يتعبدون له سرًا في مواقع يراها ويغشاها ألوف الناس كل عام؟!

وهكذا بقى الشكل الحقيقي للبافوميت لغزًا، حتى جاء الساحر الأشهر في العصر الحديث، الفرنسي «أليفاس ليفي « Eliphas Lévi(١٨١٠-١٨٧٥م)، الذي يعتبر بحق رائد إحياء الاهتمام بالسحر، والمعتقدات الباطنية والشيطانية ذات الأصل الشرقي، في العصر الحديث بأكمله، الرجل الذي امتهن تقديم العروض السحرية، ودراسة تاريخ السحر والعلوم الباطنية والإبليسية، ونشر بين عامي ١٨٥٤ و١٨٥٦م مجلدين لكتاب بعنوان (عقائد وطقوس السحر الفائق) Dogme et Rituel de la Haute Magie، وفيه ظهر أول رسم واضح التفاصيل ودقيق للوثن المسمى بافوميت، الذي اتهم فرسان الهيكل بعبادته والتقرب إليه.

الشكل الموجود أمامنا يجمع بين عدة صفات أو نقائض:

1.يجمع صفات الإنسان والحيوان (الماعز تحديدًا) .

2.يجمع صفات ذكرية وأنثوية.

3.يجمع صفات مجهولة، وصفات وخصائص تخص آلهة وثنية معروفة، وعلى رأسها pan إله المراعي والغابات الإغريقي الشهير، الذي كان يصورعلى هيئة ماعزا!

إن هذا الشكل الغريب الملتبس له أوثق الصلات بعلم الخيمياء القديم الغامض، إذ إن من ضمن قواعد ذلك العلم الملتبس هو الجمع بين النقائض، خصوصًا طبيعتي الذكر والأنثى، ويعد التخنث عنصرًا أساسيًا من أسس الخيمياء، ويقال إن حجر الفلاسفة، إن اكتشفه أحد ما، فسوف يمنح لمستخدمه، إضافة إلى الخلود المادي، طبيعة مزدوجة تجعله نصف ذكر ونصف أنثى.

وكصلة مؤكدة بالخيمياء لا ننسى ما قيل عن مصادر ثروة فرسان الهيكل الهائلة، التي يُستبعد جدًا أن تكون مجرد تراكم للهبات والعطايا، والمنح من الكنيسة والأفراد، أو حصيلة نشاط تجاري واسع ومؤكد، رعاه الفرسان واعتنوا به، وكل تلك

الشائعات تجمعت والتفت عند نقطتين غامضتين جدًا:

4.علاقة الفرسان بهيكل سليمان، الذي اشتقوا الاسم الرسمي لمنظمتهم منه، والشائعات التي عبرت الأزمان والقرون حول عثورهم على كنز كبير أسفل الحرم القدسي، ربما يكون مرتبطًا بهيكل سليمان، رغم عدم وجود دليل تاريخي واحد يثبت حقيقته المؤكدة، أو كنز روماني كبير جدًا، يعود إلى عبادة وتقديس الإله جوبيتر، الإله الأكبر للرومان.

5.صلة الفرسان المؤكدة بالكاثار، وهى علاقة غريبة جدًا وغير مفهومة إطلاقًا، بين جماعة تكرس حياتها وقوتها لحماية عقيدة الكنيسة الكاثوليكية، وحماية مكتسباتها الروحية والزمنية، وبين جماعة مهرطقة تقوم عقيدتها أصلًا على إنكار الكاثوليكية بأسرها، والإيمان بعقائد باطنية وسرية، تلتقي كلها عن رمزية الكأس المقدسة، بمرجعيتها الخيميائية الواضحة تمامًا.

وقف الفرسان على الحياد إبان الحملة الكاثوليكية على الكاثار والإلبيجنسين، بل ساهموا في إنقاذ بعضًا منهم، وساعدوهم على إخفاء كنوزهم ومخطوطاتهم، فهل كان الأمر مجرد تعاطف إنساني بحت مع جماعة مضطهدة ومظلومة، أم أن فرسان الهيكل حصلوا على شيء مقابل تلك المساعدة المشكورة؟!

وعودة إلى البافوميت، معبود الفرسان المتأخرين الملغز، نجد أنه يشكل رمزًا خيميائيًا وسحريًا واضح جدًا، ويجمع كذلك خصائص آلهة الخصب، التي كانت تجري مراسم عبادتها وفق مراسم شائنة في الأزمان القديمة، إن صحت نسبة البافوميت بمميزاته وخصائصه الهجينة الواضحة تلك، **فإن الزعم بأن فرسان الهيكل تحفظوا على أسرار ومطويات خيميائية وسحرية سرية لن يكون بعيدًا جدًا عن الواقع!**

فاوست:
(الساحر والخيميائي
الذي نكل به الشيطان)

بالتأكيد سمع كلنا أو معظمنا عن «فاوست» الدجال الرهيب، الرجل الذي خان علمه وثقافته مُلقيًا بنفسه في أتون الحريق المضطرم بالتعامل مباشرة مع الحية القديمة، عدو الجنس البشري الأول، وعدو الرب والكنيسة، الشيطان في صورته المصغرة، مفيستوفليس إبليس الصغير المرح، الروح الشريرة التي اهتبلت فرصة الضياع الروحي والتشتت العقلي لعقل من أهم وأعظم العقول التي عرفها التاريخ البشري، إنه عقل «فاوست» الضال المضلل المهتز، إنها القصة الأشهر ربما في تاريخ البشرية، قصة التضليل الشيطاني، فاوست هنا صورة معكوسة من آدم، رجل لم يستدعه الشيطان، بل استدعاه هو وطلب خدماته، وفاوست وإن كان أسطورة في مخيلة معظم الناس، فإن الشعراء والفنانين والموسيقيين والأدباء تضافروا لتحويله إلى أسطورة حية، واقعية ومحملة بالجمال والحزن والخيالات القادرة على إلهاب أشد العقول إغراقًا في الجمود والمنطقية، وخضوعًا لإملاءات الواقع المشددة، لكن ما علاقة فاوست بالخيمياء؟، وهل عاش رجل مناظرًا أو مطابقًا لشخصية «فاوست» الأسطورية فعلًا؟!

في القصة الخيالية أن «فاوست» العالم والدارس واسع المعارف سئم شظف العيش، وقلة نصيبه من متع الحياة فتمرد على واقعه، وتمرد على ربه ممثلًا فيما قدره عليه من حياة ضيقة وخالية من كل لذة أو سعادة، وحين تبلغ الأزمة بالعقل الجبار غايتها يأتي الشيطان في موعده كالعادة ليظفر بالروح الثمينة، ويقرر«فاوست» الرضوخ للأغراء فيوقع عقدًا مع إبليس ينص على أن يعطي الثاني للأول كل ما يطلب من متع وفرص الحياة، مقابل أن يمنح الأول للثاني روحه خالصة عقب موته مباشرة، كان العقد موقوتًا، مثلما اتفقت أساطير وخرافات ذلك الزمان بمدة محددة، وكان على «فاوست» أن يجرب كل شيء قبيل حلول الموعد المنتظر، لكنه وقبل انتهاء المهلة الممنوحة له يقرر التراجع، يتوب وينكص عن وعده، يحاول

إنقاذ روحه من الضياع الأبدي، لكن الشيطان لا يتنازل عن عقوده أبدًا، وفي نسخة القصة التي تناقلتها العامة بينهم تكون نهاية فاوست وحشية مرعبة، يأتي الشيطان ذات ليلة غاضبًا، فينكل بفاوست الذي يحاول التفلت من قبضته، ويقتله شر قتلة، ثم يدع أعضاء جسده المنتزعة معلقة من سقف غرفته، كنوع من التحذير والتهديد الذي لا يمكن تجاهله، تلك القصة المرعبة، والمحملة بالجمال الخفي أيضًا، ألهبت معظم مبدعي العالم الكبار، وسجلوها وخلدوها بكل صورة ممكنة، لكن هل كان هناك «فاوست» حقيقي فعلًا؟!

من بين المشكوك بأمرهم أنهم الأصل لأسطورة «فاوست» المرعبة:

1.«يوهان جورج فاوست»عاش بين عامي ١٤٨٠ و١٥٤٠ في ألمانيا دجالًا وممارسًا للسحر وخيميائيًا ومزاول للطب الشعبي، وكان دجالًا جوابًا يتجول بين القرى والبلدات الصغيرة عارضًا بضاعته، وفي زمن سادت فيه الاعتقادات المرعبة حول تحكم الشيطان في مجرى حياة الإنسان، وتدخله في كل ما يحل بالأخير من مصائب، فإن وجود رجل ربما امتلك قدرات طبية أو علمية، نسبت إلى السحر والعلوم الشيطانية كالعادة، أو لعله كان يقوم ببعض التجارب العلمية السرية، يعد مادة خصبة للحديث حول الصفقات الشيطانية، والعقود الموقعة بدماء السحرة الخارجين عن طاعة الرب، إلى آخر تلك الأساطير الشعبية القاسية.

2.«فاوست» آخر كان مسجلًا كعامل طباعة في سجلات مدينة «ماين» الألمانية، ولعل مقاربته مع «فاوست» الساحر الأسطوري عسيرة جدًا

3.«فاوست» الثالث عاش في مدينة جلينهاوزن **Gelnhausen**الألمانية، وربما كان له دور في إضفاء بعض الملامح على الأسطورة الخالدة لاحقًا .

4.الرابع كان«فاوست» حقيقيًا، فيه كل صفات وخصائص الشخصية الأسطورية، لكنه يملك أيضًا ملامح تخالفها تمام المخالفة، هذا المشتبه به الأول والأقرب لفاوست الشعبي هو «فاوست» الخيميائي، ولد في عام ١٤٨٠ بمقاطعة (فورتمبرج)، كان اسمه مسجلًا مقرونًا بالسحر والدجل عام (١٥٠٦)، لكنه عمل بمنصب مدير لمدرسة ببلدة (باد كرويتسناخ)

Bad Kreuznach في عام ١٥٠٧، لكن العجيب حقًا في تلك الشخصية هو ظهور اسمه في سجلات عدة مدن على فترات زمنية متقاربة، مما يعني أنه لم يكن موضع ترحيب، وغالبًا كان يطرد أو ينفى من كل مدينة يحاول أن يستقر فيها، فلما يا ترى؟!

مع تعدد المهن التي مارسها، وظهور اسمه مقترنًا بصفات متعارضة ومتناقضة، كان هذا الرجل مثيرًا للاهتمام فعلًا، لكن طريقة موته هي التي خلدت قصة حياته، فقد هلك «فاوست» هذا في حوالي عام ١٥٤٠أو ١٥٤١ في مدينة «ستاوفين»، أودى به انفجار تسببت فيه تجربة غامضة كان يجريها، قيل إنها كانت تجربة خيميائية وقد تشوهت جثته نتيجة الانفجار، وربما كان لظهور بقايا جثة «فاوست» مشوهة وممزقة أثر في الظن أنه مات بعمل شيطاني، أو بتدخل الشيطان نفسه في عملية قتل مروعة نتيجة إخلال «فاوست» باتفاقه مع سيد الظلام، لكن هل كان فاوست ضحية التجربة السرية تلك خيميائيًا حقًا!

إن أحد الشخصيات الأساسية التي اشتبه في كونها الأصل الذي أخذت منه شخصية «فاوست» الأسطورية، وهو يوهان جورج فاوست كان خيميائيًا بشكل مؤكد، ولعل تلك النقطة كانت ضمن اعتقادات «جوته» Goethe بشأن شخصيته الملهمة العظيمة، لذا فسوف نجد أن ملحمته الخالدة «فاوست» حشد بها عددًا من الرموز الخيميائية الواضحة والصريحة، فقد جعل من شخصية الشيطان «مفيستوفليس» صورة من الأوروبورس *Ouroboros (الثعبان الذي يلتهم ذيله)* وهو رمزًا *خيميائيًا معتبرًا وقديمًا جدًا، أما في الحقيقة فقد كان* «يوهان جورج فاوست» *محط اهتمام باحثين نقبا في سيرته بكل دقة، وهما البروفيسور فرانك بارون Professor Frank Baron*، والمؤرخ الانجليزي ليو رويكبي Leo Ruickbie، وفي دراساتهما حول شخصية «يوهان جورج فاوست» حددا الكثير من الأحداث والوقائع الحقيقية التي تتشابه مع المعالم الأسطورية لقصة فاوست الغامضة، ووجد الباحثان ساحرين كانا يحملان لقب «فاوست» أحدهما كان نشطًا خلال الفترة من ١٥٠٥ وحتى ١٥١٥، واسمه الأول هو «جورج»، والثاني «يوهان فاوستوس» ظهر اسمه كساحر معروف عام ١٥٣٠م، وظهرت أدلة أخرى مثيرة على

أن «فاوستوس» هذا نال شهادة جامعية من جامعة هايدلبرج عام ١٤٨٤م، ثم فجأة يظهر «فاوستوس» كساحر ودجال في سنة ١٥٠٦م، فهل حائز شهادة البكالوريا الجامعية هو ذاته الساحر والمشعوذ؟!

هذه نقطة غامضة جدًا، لكن يبدو أن «فاوست» هذا كانت سمعته سيئة جدًا، إذ وجدت رسالة كتبها الراهب والمؤرخ واللغوي الألماني «يوهان تريثيموس» إلى شخص يدعى يوهان فيردونج، وهو منجم معروف في القرن السادس عشر، محذرًا من شخص يكنى نفسه بـ«فاوست الصغير»، واسمه الأصلي جورجيوس سابيليكوس، ووفقًا للسجلات بلغت الجراءة بفاوست الصغير هذا حد الادعاء بأنه قادرًا على إعادة تنفيذ كل معجزات المسيح، بما فيها إحياء الموتى، لكن المحير في الأمر أن نفس هذا الدجال والساحر كان مدرسًا رسميًا، وله منصب معروف أيضًا!

فكيف تجتمع هاتان الصفتان المتناقضتان في شخص واحد؟!

سجلات أخرى تصف ذلك الشخص الغريب بصفات متناقضة، بعضها تشيد بمعارفه الطبية واتقانه للتنجيم وقراءة النجوم، وأخرى تحذر منه وتعتبره مهرطقًا ودجالًا خطيرًا، توفى فاوستوس في مدينة ستاوفين، إذ كان يقيم في أحد فنادقها، ويسمى زوم لوفين، وتسببت تجربة خيميائية غريبة كان يجريها في انفجار مروع، خرجت منه جثته بحالة مرعبة وخطرة من التشويه، والغريب أن يتخذ رجال الدين منه أمثولة في عظاتهم، ويفسر تشوهه ساعة وفاته بأنه نتيجة هرطقته وتجديفه وصلاته مع الشيطان، المدهش حقًا في القصة هو أن «فاوست» يعاود الظهور بعد تاريخ موته المسجل وهو ١٥٤٠ أو ١٥٤١م، ويراه بعض الناس مسافرًا في ظلمة الليل، مصطحبًا معه كلبًا وحصانًا، وتمضي الأسطورة مؤكدة أن الكلب المرافق لفاوست ليس سوى خادمه، وأنه يتحول إلى صورته البشرية الحقيقية في بعض الأحيان!

توجد عديد من المخطوطات والأعمال التي تُنسب إلى دكتور«فاوست» الحقيقي، لكن طبعًا من المحال التحقق من صحة نسبتها إليه، ومن الممكن جدًا أن يكون عالمًا أو دجالًا لاحقًا قد انتحل اسم الرجل الأسطوري، ليحقق نجاحًا وانتشارًا على حسابه!

تكاد تكون تهمة الاشتغال بالخيمياء أساسية في سيرة حياة كل عالم، أو شخص

موهوب بشكل استثنائي ظهر في فترة القرون الوسطى المظلمة تلك، لكن هل الخيمياء مرعبة ومخيفة، ومستحقة لشيطنتها في المعتقدات الشعبية إلى ذلك الحد؟

سنجيب عن ذلك السؤال حالًا.

نيكولاس فلاميل:

لم يكن فولدمورت الشرير يطارد وهمًا!

يعرف قراء ومحبو سلسلة روايات وأفلام «هاري بوتر» هذا الاسم جيدًا، إنه الاسم الذي علقت عليه الفتاة النابغة «هيرميونى جرينجر» بعبارة:

is the only known maker of the Philosopher's Stone!

«إنه الشخص الوحيد المعروف بأنه صانع حجر الفيلسوف»

إذًا، فيبدو أن السيد «فلاميل» قد نجح في صناعة أحد الأحلام الخيميائية الكبرى وهو حجر الفيلسوف، لكن حجر الفيلسوف ليس إلا خرافة، وهكذا يكون «نيكولاس فلاميل» خرافة أيضًا، لكن لحسن الحظ فإن «فلاميل» حقيقي فعلًا، حقيقي جدًا، وكل الشائعات حول توصله إلى سر صناعة وتحضير (حجر الفيلسوف) تداولت لمدة خمسة قرون، قبل أن تكتب «جوان رولينج » حرفًا واحدًا في سلسلة «هارى بوتر»، لكن ما هو الفيصل بين الحقيقة والخرافة في قصة ذلك الرجل؟!

ولد «نيكولاس فلاميل» عام ١٣٣٠م، زمن شراسة وقسوة عصور الظلام الأوربية بظلمتها الحالكة، في فرنسا إذ عاش حياة تقليدية، تمتع بالثراء وتزوج امرأة موسرة، منحته ثروات ورثتها من زيجات سابقة، فتضاعف ما لديه، وطبقًا للوقائع المثبتة كان كريمًا، وداوم هو وزوجته على التبرع للكنائس ورعاية الفقراء، توفى «فلاميل» وفاة طبيعية عام ١٤١٨ عن سبعة وثمانين عامًا، وقبره موجود حاليًا في كنيسة أثرية فرنسية، وفقًا للسجلات كان مصدر ثروته الأصلي معروفًا ومحددًا وهو التجارة، وثروة زوجته التي انتقلت إليها بالإرث أيضًا، لكن في القرن السابع عشر انتشرت شائعات قوية، صدق عليها بعض رجال العلم المشاهير في ذلك الزمان، ربطت مصدر ثروة «فلاميل» الكبيرة بالخيمياء، وقيل إنه اقتنى مع زوجته كتبًا سحرية وخيميائية بالصدفة، وتمكنا من فك الرموز والشفرات، وهكذا توصل إلى سر صناعة حجر الفيلسوف تدريجيًا، فحول المعادن الرخيصة إلى فضة، ثم لم يلبث أن نجح في تحويلها إلى ذهب، بل تعاظمت الادعاءات، حتى وصلت إلى حد الاعتقاد بأن

الزوجين «فلاميل» نجحا في الوصول إلى سر الخلود، عبر تحضير إكسير الحياة الذي ظل البشر يحلمون به لألوف السنين!

لكن إلى أي مدى انتشرت تلك الشائعات والقصص؟ إلى حد أن عالمًا بثقل «اسحاق نيوتن « قد صدقها، ووصف رمزًا خيميائيًا في أحدى مقالاته بأنه (الصولجان أو تنانين فلاميل)، واستشرت سمعة فلاميل «الخيميائي» في كثير من المؤلفات الشهيرة والخالدة.

لم يقتصر الأمر على مجرد كومة من الشائعات، بل لقد دخل «فلاميل» تاريخ الخيمياء، إذ صار يمتلك رمزًا خيميائيًا خاصًا به، ويحمل اسمه كذلك، وهو شعار يشبه شعار اسكلبيوس إله الطب، وعدد من الرموز والشعارات الخيميائية والسحرية الأخرى.



الفلاميل: وهكذا تخلد اسم «نيكولاس فلاميل» في تاريخ الخيمياء

يرمز ذلك الشعار إلى عدة أمور، من بينها صلة «فلاميل» بحجر الفيلسوف الأسطوري، كما يشير إلى أحد مراحل تصنيع وتحضير بعض الوصفات والعلاجات الطبية، التي كانت تشكل جزءًا من محتوى علم الخيمياء بشكله القديم.

ترك «نيكولاس فلاميل» وراءه بعض المؤلفات، التي لم يثبت تمامًا نسبتها

إليه، وأشهرها وأهمها هو مخطوط يحوي ما سُمّي بـ(الهيروغليفية الخيميائية) Alchemical hieroglyphics، وقد نشر المخطوط عام ١٦١٢م في باريس، وربما كان منتحلًا بالكامل.

المدهش في قصة «فلاميل» هو أمران:

فكرة أن سُمْعَته كخيميائيٍّ بارع ومكتشف لبعض أسرار ذلك العلم الكبرى قد تكون مبنية بالكامل على سلسلة من الشائعات الكاذبة.

الثانية: هو تكرار أسطورة مشاهدات بعض الناس لـ«فلاميل»، بعد زمن طويل من تاريخ موته المثبت، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأن ظهوره دليلًا على أنه قد توصل حقًّا إلى سر حجر الفيلسوف، ونجح في تحضير إكسير الخلود المنشود!

نيكولا بوسان:
(حارس الأسرار الذي ترك اللغز مفتوحًا في لوحة)

فى عام ١٦٣٨/١٦٣٩م ظهر إلى النور عمل فنى جديد بتوقيع الرسام الفرنسي «نيكولا بوسان» Nicolas Poussin، العمل يحمل اسم (رعاة أركاديا)

The Arcadian Shepherds

وهو عبارة عن رسم بالزيت على قماش (الكانفاه)، بارتفاع ١٢١ سم، وبطول ١٨٥سم، ويصور العمل ثلاثة من الرجال يلتفون حول قبر حجري، وامرأة تقف في جانب الصورة تنظر إليهم، كلهم يرتدون ثيابًا وصنادل عتيقة الطراز، وتشير مناظرهم وألبستهم إلى مرجعيتهم كمنتمين إلى (أركاديا) القديمة، أركاديا اليونانية التي كانت حلمًا بكرًا، أرض معزولة محاطة بالجبال، حيث الطبيعة لا تزال عذراء، والبشر لا يزالون بسطاء على فطرتهم الأولى، اللوحة التي تم العمل عليها بتكليف من «كاميلو ماسيمو» Camillo Massimo الأكبر، وأنجزت نسختها الأولى عام ١٦٢٧، في حين ظهرت النسخة الثانية، الأكثر شهرة وغموضًا، بعدها بنحو أحد عشرعامًا، وقد وصلت اللوحة إلى يديْ ملك فرنسا «لويس الرابع عشر»، واحتفظ بها في قصر اللوفر، في قاعة الذخائر الملكية منذ العام ١٦٨٥، ولم تغادر بيتها الدافئ بعدها، ولم يكن بإمكان أحد مشاهدتها إلا بإذن من الملك شخصيًا!

تتلخص فكرة اللوحة في الرعاة، الذين يدرسون باهتمام قبرًا مبهمًا منقوشًا عليه عبارة أكثر إبهامًا وغموضًا هي:

Et in Arcadia Ego

التي تترجم (وفي أركاديا أيضًا) أو (وفي أركاديا أيضًا أنا موجود)، التي يقول التفسير الأولي البسيط أنها ترمز إلى الموت، بقوته وسطوته التي تصل حتى الجنة المنعزلة في أركاديا،التي كانت اسما يطلق على منطقة وسط شبه جزيرة (بلوبونيز)،

لكن تفسيرات أخرى تجعل الأمر أكثر تعقيدًا وغموضًا، فليس الأمر مجرد رعاة بدائيين يتفقدون قبرًا غريب الشكل، ولم يكن «بوسان» نفسه مجرد رسام يفعل ما يؤمر به، كما أن القبر الموجود باللوحة ليس في أركاديا القديمة، ولا هو من نسج خيال، إنما هو موجود فعلًا، وأقرب إلى يد «بوسان» من أركاديا ورعاتها وقصصها الريفية، إن القبر في فرنسا حيث وُلدت (رعاة أركاديا) وفنانها الغامض، ذو التاريخ المحمل بالأسرار، والتعمق في علاقات مجهولة مع جمعيات وطوائف سرية!

ولد «نيكولا بوسان»

Nicolas Poussin (١٥٩٤-١٦٦٥م)

فى يوم ١٥ يونيو من عام ١٥٩٤، ببلدة تابعة لمقاطعة نورماندي بمملكة فرنسا، في ملكية «هنري الرابع»، الذي حكم فرنسا من فبراير ١٥٩٤ وحتى وفاته في الرابع عشر من مايو من عام ١٦١٠م، «بوسان» تلقى تعليمًا جيدًا في صباه، وتعلم قليلًا من اللاتينية، ويبدو أن موهبته قد تفتحت في سن مبكرة، وقد تتلمذ على يد رسام يدعى «كوينتين فارين»، وفي سن الثامنة عشرة نزح «بوسان» إلى باريس، ربما بحثًا عن الشهرة، وأكمل تلمذته الفنية على يدي «فرديناند إيلي» و«جورج لالماند»، وكان من حسن حظ الفنان الشاب أن وصل إلى باريس في تلك الفترة، التي كان فيها الفن يلقى رعاية ودعم رسميين سخيين من قبل الملكة «مارى دي مديتشي»، ولأنه أغرم بالفن والنقوش الإيطالية عزم الفنان الشاب على النزوح مرة أخري، ولكن إلى روما تلك المرة، بيد أنه لم يتمكن من الوصول إليها، بل عاد من البندقية (فلورنسا)، ربما كان اعتلال صحته وراء هذا الأمر.

التحول الكبير في حياة «بوسان» وولوجه عالم الطبقات العليا بدأ في عام ١٦٢٢، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، بلقائه بشاعر القصر الخاص بالملكة «ماري دي مديتشي» المسمى «جيامباتيستا مارينو»، الذي كلف الفنان الشاب بوضع رسوم لطبعة جديدة من (تحولات أوفيد)، وهو من الأعمال القليلة الموثقة لـ«بوسان»، قبل مرحلته المهمة في روما، هذه العلاقة مع رجل مقرب من البلاط أفادت «بوسان» كثيرًا فيما بعد.

في روما تفتحت عبقرية «بوسان»، وحاذ على رعاية كبار الشخصيات، وتميز أسلوبه بالدمج بين الطابع العصري في الرسم، والتأثيرات الحيّة للفنون القديمة، وبنظرة سريعة ندرك ولع الفنان بالموضوعات الدينية والأسطورية، والقصص المستقاة من الكتاب المقدس، في لوحاته التي تضم أسماء جديرة بلفت الأنظار نذكر منها: الطاعون في أشدود (١٦٣٠م)، حكم سليمان (١٦٤٩م)، رجال أريحا المكفوفين (١٦٥٠م)، تدمير القدس (١٦٣٧م)، العبرانيون يجمعون المن (١٦٣٩م)، ومجموعة (الأسرار السبعة) التي رسمها بين عامي ١٦٣٧ و١٦٤٠م، وقبل ذلك كله تأتي رائعته، وسره الكبير المخبوء، وسط رسالة غامضة مشفرة في لوحة (رعاة أركاديا).

من الجلي أن قصة (رعاة أركاديا) وقبرهم الغامض كانت تشغل بال الفنان الفرنسي الشهير، لأنه رواها بريشته مرتين، الأولى في عام ١٦٢٧م، التي تمتلك منظرًا مغايرًا بشكل واضح عن الشكل النهائي للنسخة الأحدث والأخيرة، وهي النسخة الأشهر والأكثر رواجًا للوحة، ورغم التشابه الذي يبدو من الوهلة الأولى، لكن ثمة فروق ظاهرية كبيرة بين النسختين ومن أهمها: انجراف وتغير شكل القبر الملحوظ في النسخة الأحدث، لكي يشبه تمامًا قبرًا حقيقيًا موجودًا، لا في أركاديا القديمة، بل في مقاطعة رين لو شاتو الفرنسية Rennes le Chateau

أي في نفس البلاد التي ولد ونشأ فيها «نيكولا بوسان» نفسه!

نصف اللغز الآخر:
لعنة ميداس المحببة
وكل شيء يصبح ذهبًا!

إن تكليف «كاميلو ماسيمو» الأكبر لـ«بوسان» لم يكن بصدد لوحة «رعاة أركاديا» فقط، بل شمل الاتفاق رسم لوحة أخرى، توأم غير متطابق للرعاة، وهي اللوحة المعروفة بـ«ميداس يغتسل في نهر باكتولوس» Midas Washing his Face in the River Pactolus، واللوحة الثانية هذه تروي قصة ملك أسطوري مشهور في الميثولوجيا الإغريقية «ميداس»، وهو شخصية عجيبة منحه أحد الأرباب قدرة استثنائية، بناءً على طلبه مكافأة له على معروف ما، وهي قدرته على تحويل أي شيء إلى ذهب، فرح الملك بتلك المقدرة الفريدة في البداية، ثم ما لبث أن اكتشف أنها وبال عليه، إذ تحوّل طعامه وشرابه وقصره وخدمه، وحتى ابنته العزيزة، إلى تماثيل ذهبية، ما أن يمس أي منها بيده، ولتخليصه من اللعنة ينصحه الإله ديونيسوس بأن يغتسل في نهر يسمى باكتولوس، ففعل «ميداس» وزالت لعنته، بينما صار النهر عامرًا بحبيبات الذهب من حينها، هذه الأسطورة كانت سببًا في ظهور ما يسمى «لمسة ميداس «« midas touch، والتي تشير إلى لمسة سحرية قادرة على تحويل أي شيء إلى ذهب، والآن ما الصلة بين «ميداس» ومقدرته الفريدة، وبين الرعاة في أركاديا، وهل يمكن أن يكون في لوحة «ميداس» سر أو شفرة سيُكشف عنها فيما بعد بشكل يستعصى على التصديق؟!

قبل أن تظهر أهمية عمل «بوسان» الذائع الصيت، حدث أن ذهب راعٍ فقير، يدعى «إيجناس باريس» Ignace Paris، في ربيع عام ١٦٤٥م، خلف شاة له ضلت طريقها، وتتبعها نزولًا إلى تجويف صخري، وهناك عثرعلى غنمته الضالة، وأيضًا كنز كبير من العملات الذهبية القديمة!

وتمضي القصة القديمة فتصف كيف أن مالك الأرض، التي وجدت في رحابها هذه الكنوز المطمورة، أراد استيضاح مكان العثور عليها بالضبط، ويبدو أن الراعى ماطل

في الكشف بدقة عن مكان التجويف الصخرى المقصود، مما دفع سيد الأرض، وكان يدعى بلايز هاوتبول إلى تعريض الراعى لتعذيب شديد، يبدو أن الأخير لم يكن مهيئًا لتحمله، ففقد الراعي تعيس الحظ حياته تحت أيدي الجلادين!

الذي يسترعي النظر حقًّا هو تواتر عدة نسخ من القصة، وانتشارها شفهيًا بين سكان إقليم (لانجدوك)، ومنها نسخة تصف رؤى شيطانية خارقة دفعت الراعي إلى الفرار، فور جمعه لبعض العملات والقطع الذهبية، ليهرب من الشيطان الذي ظهر له محاولًا القفز على ظهره، النقطة المهمة الأولى في تلك القصة أنها وقعت بحسب رواتها في إقليم (لانجدوك) الذي تقع فيه بلدة (رين لو شاتو)، وأيضا هو نفسه المعقل القديم لطائفة الكاثار الهرطوقية وأسرارها الغامضة حول الكأس المقدسة، وكنوز فرسان الهيكل المخفية بعناية، لكن ما علاقة هذه الراعي وقصته المأساوية بـ«بوسان» ولوحته المثيرة للأقاويل والجدل؟!

الحقيقة أن حادثة الكنز الذهبي لم تمر بسلام، فقد احتدم فور مصرع الراعي، دون أن يقدم معلومات شافية، صراعٌ ملتهب للعثور على بقية الكنز، أو على أصله، أطرافه هم «نيكولا بافيبو» أحد قساوسة مذهب الجانسينية، الموصوم بالهرطقة من قبل الكنيسة الكاثوليكية، والسيد «هاوتبول» مالك الأرض التي عُثر على الكنز فيها، والأخوان «نيكولا وفرانسوا فوكو»، قس بارز، وثري صاحب أملاك وضياع، وأخوان أحدهما هو أسقف ناربون، والآخر ليس إلا وزير مالية الملك لويس الرابع عشر!

ترى هل كانت قيمة الكنز المادية، مهما بولغ في تقديرها، كافية لدفع هؤلاء السادة العظماء للدخول في صراع حامي الوطيس، من أجل أسبقية الوصول إليه، والسيطرة على مصدره؟!

الأمر الأكثر إثارة هو إقدام الأخ «فرانسوا»، شقيق حضرة وزير المالية، على القيام بزيارة إلى مدينة روما، للالتقاء بـ«بوسان» صاحب اللوحة الشهيرة، والاجتماع معه بشكل سري، ثم إرساله رسالة إلى شقيقه يصف فيها نتائج لقائه بالفنان الشهير، قائلًا بلهجة تشي بأن في الأمر لغزًا، وكنزًا أكبر من مجرد بضع صناديق مملوءة بالذهب، أو بقطع من كنوز فرسان الهيكل، أو فدية الملك القديس الأسير لدى المسلمين، قال الأخ

في الخطاب المثير للتأمل (... أمور من شأنها أن تمنحك، من خلال السيد بوسان، امتيازات سيتعين حتى على الملوك أن يجتازوا آلامًا عظيمة كي يستخلصوها منه).

ويمضي الأسقف المبجل، واصفًا الأمور المتعلقة بكل تلك القصة الغامضة، بأن خلفها أموزًا (.. شديدة التعقيد، إلى حد نكتشف معه أنه لا شيء على هذه الأرض، قد يمثل ثروة أكبر منها أو حتى يساويها في القيمة).

فما الذي يمكن أن تكونه هذه الثروة، التي حتى الملوك سيتحملون آلامًا عظيمة لكي يستخلصوها منه، ومن المشار إليه بالضمير (منه)، هل هو «بوسان» نفسه؟!

وقبل كل شيء ما سبب تعلق السر بـ»بوسان» تحديدًا، ولماذا اطلق عليه لقب (حارس الأسرار)، وأية أسرار هي بالضبط ؟!

وفي النهاية دارت الدائرة لتنتهي بحصول الملك لويس الرابع عشر على (لوحة رعاة أركاديا)، بعد محاولات عديدة، وعزلها في قاعة خاصة في اللوفر، كان وقتها قصرًا ملكيًا، ومنع أي أحد من الاطلاع عليها إلا بإذن شخصي منه!

أي سر يمكن أن يكمن في لوحة بسيطة، تعبر عن مجموعة رعاة يحملقون في قبر منعزل غامض، بلا شاهد أو علامات مميزة، ما عدا تلك الجملة الغامضة (وفي أركاديا أيضًا أنا موجود)!

مات «نيكولا بوسان» في عام ١٦٦٥، تاركًا وراءه إرثًا فنيًا عريضًا وجديرًا بالإعجاب والتقدير، تأتي على رأسه لوحته الرائعة والغامضة معًا (رعاة أركاديا)، لكن القبر المحوري، في النسخة الثانية للوحة، كان يحمل سرًا، رهبة من نوع خاص، ولزيادة الغموض المحيط بسيرة هذا الفنان (حامل الأسرار) كما لقبه أهل زمانه، نجد أن موته نفسه شغل بال عدد من الفنانين الآخرين، فرسم «فرانسوا ماريوس جرانى» مشهد وفاة «بوسان» بالزيت على القماش، عام ١٨٣٤م، لكن هذا لم يكن كافيًا إذ جاء فنان آخر بعده، فيلكس براكمو، ليعيد إنتاج مشهد موت «بوسان»، بالحفر الحمضي، لكن الغريب أن «براكمو» لم يلتزم الأمانة في نقله للمشهد المرسوم بيد سلفه، إذ إنه غيّر تفصيلة مهمة جدًا، وصغيرة، في المنظر الكلي، إنه صبى المذبح الذي يقف

أقصى يسار الصورة، في حين يلتزم الحياد في الصورة الأولى، ويقف ميممًا بصره ناحية سرير المحتضر، بيدين فارغتين، فإنه، في لوحة «براكمو» يدير وجهه صوب المتطلعين، وقد حمل شيئًا غريبًا في يده

نعم إنها كأس؟!

هل من المصادفة أن صاحب العمل الأول «جراني» كان ينتمي إلى طائفة فرسان القديس «ميشيل»، التي تعتبر أحد الورثة الشرعيين لفرسان الهيكل المنكوبين، وإلام يشير «براكمو» بالتعديل الصغير الغريب، الذي أجراه على الأصل الذي نقل منه العمل ؟! ما رمزية الكأس في لوحة تصور مشهد فنان عظيم يحتضر، ولمَ شغل بال موت «بوسان « تحديدًا، رسامين وفنانين آخرين إلى حد تسجيله، وإعادة إنتاجه بتفاصيل غريبة وغير مفهومة، دُمرت لوحة «موت بوسان» الأصلية عام ١٩٤٥م، لكن نسختها المعدلة لا تزال موجودة وتستحق الدراسة.

وحينما تفتحت الأعين بما يكفي، وجد أن هذا الجدث القديم ليس إلا تجسيدًا لقبر غامض في مقاطعة فرنسية، قبر توارثته عدة أسر، وشُغل فترة من الزمن، حتى بقي فارغًا مهجورًا في النهاية.

كونت دو سان جيرمين:
(النسخة الباريسية من الدجال)

من بين كل الشخصيات التي ارتبطت سيرهم بالسحر والخيمياء والشعوذة ربما ليس هناك شخصية أكثر شهرة، أو رجل غامض سمع به معظم الناس، وإن لم يعرف أغلبهم قصته بالضبط، أكثر من الرجل الذي حمل لقب (كونت سان جيريمين) Count of St. Germaini

وأولًا وقبل كل شيء نؤكد هنا أن تناول هذه الشخصيات في هذا الكتاب ليس من قبيل الترويج لهم، أو التصديق على الشائعات والأقاويل المدهشة التي ترتبط بقصص حياتهم، وإنما تأكيدًا على فكرة صغيرة وواضحة وهي أن العالم يحفل بسلسلة ألغاز أكبر مما نتخيل، وأن وراء كل لغز كبيرغالبًا ما تكون هناك حقيقة صغيرة، أو بسيطة بولغ كثيرًا في عرضها وكتابتها .

اسم «كونت سان جيريمين» الحقيقي غير محدد أو معروف على وجه الدقة، التاريخ المتفق عليه لميلاد الكونت هو ١٧١٢م، مجهول الأب ومع ذلك حظي بعدة ألقاب نُبلٍ وشرف مثل (ماركيز دى مونتيفرات)، كونت (بيلماري)، فكيف حصل على كل تلك الألقاب وهو مجهول الأب والنسب؟!

اعتبره بعض الأمراء من أهم الفلاسفة في كل العصور، وقد كان يقدم نفسه لبعض خاصة النبلاء ذاكرًا أن سنه هو ٥٠٠ عام.

ظل نسبه غامضًا لكنه صرح قبل وفاته المفترضة بأن أباه هو الأمير فرانسيس الثاني راكوشزي أمير ترانسلفانيا، لكنه لم يقدم ما يثبت ادعاءاته، هناك دراسات حديثة تؤيد ذلك الزعم، وتذكر اسمًا لأم الكونت وهي الأميرة «بياتريس دو بافاريا»، اختلط اسمه بأسماء آخرين حملوا نفس اللقب (سان جرمين).. مما أدى إلى تزايد الغموض المحيط بشخصيته.

لوحظ على الكونت أشياء غريبة:

1.فأولًا لم يكن يتناول أي طعام، عدا الماء وخبز الشوفان.

2.ولم تظهر عليه ثانية أي علامات للتقدم في العمر، وظل محتفظًا بمظهره الشاب الرجولي القوي حتى وفاته.

وقد حدث شيء زاد قصته غموضًا، إذ إنه عندما نزل مقاطعة (شيلزفيج) بالنمسا، في عام ١٧٧٩ أخبر أميرها «تشارلز أوف هيس كاسل» أن عمره ٨٨ عامًا، مما يعني أنه ولد في عام ١٦٩١، والمشكلة أن أباه المدعو «فرانسيس راكوشزي» كان في الخامسة عشرة من عمره حينذاك!

أول ذكر لشخصية «كونت دو سان جيرمين» كان في عام ١٧١٠م، إذ ظهر في أوربا حينها كرجل ناضج في الأربعينيات من عمره، ثم اختفى لفترة في ثلاثينيات القرن الثامن عشر (١٧٣٧ حتى عام ١٧٤٢م) وبرر اختفاءه بأنه كان في بلاد فارس (بارثيا)، يتعلم الخيمياء، ذكر بلاد فارس هنا مهم جدًا، لأنه أساس الأصل الشرقي للكونت، إذ قيل إنه قادم من هضبة التبت وليس من بلاد فارس.

بداية ظهوره في أوساط النبلاء كانت في عام ١٧٤٠

وعُرف منذ ذلك الحين بلقبه الشهير (الكونت دو سان جيرمين)، كانت إنجلترا من الدول التي ظهر فيها الكونت، ويقال إنه ساهم في كتابة بعض الأوبرات التي مُثلت في أشهر مسارح لندن، لكن جرى في الفترة من ٩ فبراير وحتى ٢٠ إبريل من نفس العام القبض على الكونت لسبب غير معروف، وقد عُثر على خطاب كتبه المؤلف الشهير «هوراس والبول»، مؤلف رواية (قلعة أوترانتو)، ذكر فيه أن سبب القبض على الكونت هو اتهامه بالتجسس لصالح اليعاقبة Jacobites .

ذكر هذا الكاتب الشهير لتلك الشخصية الغامضة تعد من أهم الأسانيد على وجوده فعلًا . وقد ذكر والبول قائمة مذهلة من الأشياء التي يعرفها والتي ادّعاها «كونت سان جرمين» وعدد مواهبه: مثل العزف والغناء والتأليف وصياغة المجوهرات، وذكر أنه أسباني وأنه إيطالي، ولديه ثروة في المكسيك وأشياء أخرى مذهلة.

ظهر الكونت في فرنسا في عام ١٧٤٨، وقد عمل مبعوثًا دبلوماسيًا لصالح الملك

لويس الخامس عشر، وقد كان يمنح دهانات ومستحضرات تجميل غريبة، يحضرها بنفسه لرجال وسيدات البلاط، وكان يخبرهم بأن مستحضراته كفيلة بالحفاظ على شبابهم، في حالة إذا اتبعوا نصائحه وتعليماته.

وقد نال حظوة لدى عشيقة الملك الشهيرة «مدام دى بومبادور»، وتمكن من الحصول على مكان متسع، وأموال لبناء مختبر لصناعة الأصباغ التي قال له إنه سيغير بها تاريخ صناعة الأقمشة في فرنسا.

ظهر الكونت في عدة دول مؤدِّيًا مهامَّ غريبة، لم يُعرف من الذي كلفه بها:

فقد ظهر في هولندا محاولًا عقد صلح بين فرنسا وإنجلترا، وفي عام ١٧٧٩ وصل إلى شيلزفيج، وبقيَ لفترة في ضيافة أميرها، الذي كان عضوًا في عدة جمعيات سرية، ومهتمًّا بعلوم التنجيم والفلك والخيمياء.

من ضمن مظاهر الدهشة في حياة هذا الرجل هي تعدد مواهبه بشكل لا يصدق، فهو عازف بارع، ويغني ويرسم ببراعة، ويعرف عشر لغات على الأقل بإجادة تامة، كما كان موهوبًا في صياغة المجوهرات، كما امتلك أيضًا موهبة فريدة في زمانه، وهي قدرته على إصلاح الأحجار الكريمة المعيبة، وكان يستطيع تنقية قطع الماس الفريدة من العروق والشوائب التي تقلل قيمتها، بوسيلة سرية لم يطّلع عليها أحد، ولم يكن صانعو وصائغو المجوهرات في عصره يعرفون عنها شيئًا!

تاريخ الوفاة الرسمي لكونت دو سان جيرمين هو ٢٧ فبراير من عام ١٧٨٤، ودفن في الثاني من مارس في كنيسة القديس نيكولاي، بسجل دفن رسمي ومختوم، ولكن أعيد دفنه في قبر خاص آخر في يوم ٣ إبريل، وأعلن عن ممتلكاته ليطالب بها ورثته، لكن لم يتقدم أحد يقدم ما يثبت أنه وريث للكونت، فذهبت كل أملاكه لصالح التاج الفرنسي.

هذه هي المعلومات المتوفرة عن الكونت دو سان جيرمان، لكن الغريب أن الرجل ظهر في بلاد أخري، وفي سنوات تلي تاريخ وفاته الرسمي، فقد ربط البعض بينه وبين شخص يدعى (جنرال سوليتكوف)، كان من المهيجين الأساسيين في ثورة

١٧٦٢ في روسيا، وقد كان على صلة بسيدة من المجتمع الباريسي الراقي تدعى (الكونتيسة أديمار)، وقد أوصلته إلى الملكة «ماري أنطوانيت»، وحذرها من تفاقم الأوضاع في فرنسا، ولكن رجال الملك لويس الخامس عشر حذروا الملك الجديد منه، فصدر أمر بالقبض عليه من قبل وزير الملك.

وبرغم أن وفاته أُعلنت في عام ١٧٨٤، فإن الكونت ظهر بلحمه وشحمه في البلاط الروسي في عام ١٧٨٦، أي بعد وفاته المزعومة بعامين!

ممن ذكروا مشاهداتهم للكونت «سان جيرمان»، وهو بكامل صحته ولياقته، رغم تقدمه في العمر، أو حتى بعد إعلان وفاته «فولتير» الذي قال عنه «هو الشخص الذي لا يموت»!

و»جياكومو كازانوفا»، والإمبراطورة الروسية «كاترين العظمى»، وعالم التنويم المغناطيسي الشهير «أنطوان ميسمر» .

من الحلول المطروحة للغز الكونت سان جيرمان: أنه مسافر زمني يتنقل بين العصور المختلفة بطريقة ما، البعض يعتبره أحد السادة الكبار في الصوفية والماسونية، لسان جيرمين مكانة وأهمية كبيرة في فلسفة الثيوصوفية، التي كانت مدام بلافاتسكي رائدتها الأشهر في التاريخ، وقد كان ينظر إليه في كتب ومصادر الثيوصوفية أنه من ضمن المعلمين الشرقيين الخالدين، أو من يسمون بالبارعين أو السادة Oriental Adepts!

وبسبب توافر الأدلة الكافية على وجوده، وأيضًا على تكرار ظهوره في أزمان وعصور مختلفة ومتباعدة، فقد ظهرت عدة نظريات تعلل وتفسر ظهور واختفاء، ثم تواتر ظهور تلك الشخصية الملغزة:

1.البعض يراه مسافر زمني يتنقل عبر العصور.

2.هناك فريق يعتقد أن كونت سان جيرمين كان خالدًا من مبدئه، أي إنه كائن من بعد آخر، أو ربما مخلوق من كوكب آخر وصل بوسيلة مجهولة لدينا إلى الأرض، وربما يكون ظهوره من أجل تأدية مهمة معينة في فترة زمنية محددة.

3.أنه أحد السادة الكبار، أو المعلمين الأوائل المخوّل إليهم تعليم البشرية، وهم يتجسدون على فترات زمنية متباعدة، وفي شخصيات متعددة.

4.أنه خيميائي وساحر، وصل بعلمه الغزير إلى تحضير الماجنوم أوبوس، أو العمل الأعظم، وعن طريقه حصل على الخلود الكامل، أو القدرة على التجسد بروحه في أجسام مختلفة في عصور متباعدة.

5.أغرب الفرضيات تلك التي أعلنها بعض ذوي الخلفيات الإسلامية، والتي يوحدون فيها شخصية «كونت دو سان جيرمين»بشخصية الدجال، أو المسيخ الدجال، الذي تشير المرويات الإسلامية، المنسوبة إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أنه يظهر في آخر الزمان ليضل الناس، ويظنون أن ذلك الدجال يظهر في عصور مختلفة بأسماء وشخصيات متنوعة، وأن الكونت المريب هو أحد تجلياته أو تجسداته المثبتة.

إن أغرب ادعاء أعلنه الكونت سان جيرمين في حياته، هو ذلك الذي قاله في معرض محاولته إثبات قدمه، ووجوده الموغل في القدم، فكان بالإضافة إلى روايته أحداث وأمور دقيقة جدًا حدثت لجدود وأسلاف مستمعيه الذين ماتوا منذ قرون، ولا يعلم أحد عنها شيئًا خارج أفراد الأسرة نفسها، فإنه زعم أنه كان حاضرًا بشخصه في مجمع نيقيّة المسكوني (٣٢٥م)، مستندًا إلى تلك الحادثة الغريبة التي أثبتتها سجلات ومحاضر المجمع، هي وجود واحدًا إضافيًا زيادة عن عدد القساوسة والكهنة المدعوين، الذين حضروا الاجتماعات بشكل رسمي، وهو ٣١٨ شخصًا، في حين في كل مرة كان يتم عد الحضور كان العدد يصل حتى ٣١٩!

التفسير الديني يبرر ذلك بحضور الروح القدس شخصيًا لمباركة المجمع، وتثبيت القساوسة على مبادئ الإيمان القويم، وتحريم البدع التي أعلنت خارجة عن العقيدة في ذلك المجمع، في حين ادعى «سان جيرمين»، بمحضر من شهود، أن الشخص رقم ٣١٩، لم يكن سواه هو شخصيًا، نحن إذًا نتحدث عن أكثر من ألف وأربعمئة عام بين تاريخ ذلك المجمع المهم جدًا، وبين ظهور شخصية الكونت المحيرة على مسرح التاريخ!

مَن كونت سان جيرمين الحقيقي؟ من أين جاء؟ وإلى أين ذهب أو اختفى؟!

لن نعرف الإجابة المؤكدة عن كل تلك التساؤلات أبدًا!

أليفاس ليفي:
(شيطان بنكهة شرقية)

أليفاس ليفي Éliphas Lévi

أو الكونت «ألفونس لويس كونستانت»، المولود في باريس عام ١٨١٠م، وهو يعتبر محيي السحر القديم، أو الرجل الذي بعث الاهتمام بالفنون السوداء والسحر من مرقده، «كونستانت» كان تلميذًا مجتهدًا، وكان يفترض أن يسلك سبيلًا مختلفًا تمامًا، إذ التحق بواحدة من أهم المدارس اللاهوتية في الغرب، مدرسة سان سولبيس اللاهوتية وكان من المنتظر أن يرسم قسًا، ليتدرج بعدها في المناصب الكهنوتية، غير أن هذا لم يحدث، لأن الطالب النجيب هجر الدراسة بسبب امرأة أحبها، وغادر المدرسة في عام ١٨٣٦م، وفيما يبدو كانت عائلته تعلق عليه آمالًا كبيرة، لأن فشله ومغاردرته للمدرسة قبل حصوله على شهادته قد ألقى أمه في وهدة يأس قاتل، ودفعها إلى الإقدام على الانتحار، تحولًا جذريًا شهدته السنوات اللاحقة من عمر «ألفونس»، الذي انخرط في حركات اشتراكية، وأعلن مساندته للحركة المعروفة باسم (الكاثوليكية الجديدة).

neo catholic movement

وشيئًا فشيئًا بدأ الشاب يضاد معتقداته السابقة، ويرى أن الكاثوليكية، بشكلها الراهن، تنحرف عن المسيحية الحقيقية وتسيء إليها، أفكاره الثورية هذه سجلها في كتاب نشره في فبراير عام١٨٤١م وعنوانه إنجيل الحرية

La Bible de la liberté

فصودر خلال ساعة واحدة من نشره، بعد بيع قليل من النسخ، وقبض على «ألفونس» في نفس الشهر، وحكم عليه بدفع غرامة مالية كبيرة، والسجن لثمانية أشهر، ويبدو أن تلك التجربة جعلت «ألفونس» أشد تطرفًا في أفكاره، واعتبر الكنائس المسيحية بمذاهبها كافة تضاد وتخالف تعاليم المسيح، واعتقد أن المسيحية الحقيقية متمثلة في المذهب الاشتراكي!

علاقة الرجل بالسحر والتراث الشرقي بدأت بعد نوبة الإحباط التي أصابته نتيجة المذابح والانتهاكات التي ترافقت مع انتفاضة يونيو العمالية الفرنسية (٢٣ -٢٦ يونيو ١٨٤٨م)، فتركته في حالة يأس جعلته يتجه بكليته نحو التصوف، الذي أبدى اهتمامًا كبيرًا به قبلًا، ودراسة التراث الشرقي الثري.

وكوصفة غير مألوفة قرر «أليفاس ليفي زاهد»، وهو الاسم الذي اعتمده «كونستانت» منذ ذلك الحين وحتى وفاته، واعتمد على ترجمة اسمه الفرنسي الأصلي إلى الصيغة العبرية الشرقية، نقد الفلسفة المادية واستبدالها بخليط من الاشتراكية الممزوجة بالسحر، والقبالاة والمغناطيسية، التي كانت مزدهرة حينها وكانت تعتبر علمًا محترمًا.

١٨٦٠ بدأ «ليفي» كتابة عمله الموسوعي الشهير تاريخ السحر

Histoire de la magie

والذي يعد المرجع الأساسي لعلوم السحر في القرن التاسع عشر وما تلاه،»ليفي» واصل التأريخ للسحر لقديم، وأظهر نظريات وإضافات جديدة دلت على تعمقه في هذا الفن، يعتبر»أليفاس ليفى» هو باعث السحر في العصر الحديث، ومؤسس مدرسة تخرج فيها بعض أهم وأشهر سحرة العالم الحديث.. على رأسهم الشيطان المتجسد «أليستر كراولى»!

واحدة من أهم إسهامات «ليفي» هي وضع أول صورة تتضمن شكلًا معتمدًا لأسطورة (البافوميت)، الذي عبده فرسان الهيكل، بحسب قوائم التُهم التي أعدتها الكنيسة الكاثوليكية والملك فيليب الرابع ضدهم، وكان الشكل يعتمد على ثنائية الشيطان /الماعز، وقد ظهرت هذه الصورة الشهيرة في الكتاب الذي أصدره «ليفي» في جزأين ١٨٥٤/١٨٥٦م المعروف بـ(طقوس وعقائد السحر الفائق

Dogme et Rituel de la Haute Magie

وهو واحد من أهم مراجع السحر في العصر الحالي، والرسم الذي وضعه ليفي» بنفسه يطرح تساؤلًا عن المصدر الذي استقى منه المؤلف هذه الملامح الغريبة

والمثالية للمعبود الغامض والمجهول الحقيقة كلية، فهل هو مجرد تخيل وتطبيق أمثلة منه، أم إنه ببساطة كان يحتفظ بوثائق عن العبادة الحقيقية لطائفة فرسان الهيكل، والتي قيل إنها انحرفت عن مسيحية مخلصة إلى وثنية شرقية، مختلطة مع طقوس سحرية ومراسم ربما تشتمل حتى على عبادة الشيطان متمثلًا في البافوميت السحري المريب هذا؟!

«أليفاس ليفي» تابع عمله ووضع عدة مؤلفات حول السحر محاولًا التوفيق بين العقائد القديمة والدين والعلم والسحر والفلسفة.

و«ليفي» هو أول من دعا إلى علمنة السحر وجعله علمًا معترفًا به، ووضع أسس لما أسماه (السحر المقارن)، تيمنًا باللاهوت وعلم العقائد المقارن، وبرغم عظم قيمة عمله وأهميته، تظل أهم اسهامات « ألفياس ليفي» الحقيقية هي أنه أحيا الاهتمام بالسحر القديم، ووضع تقليدًا أصبح السحر فيه مفخرة لمن يمارسه، بعد أن زالت محاكم التفتيش، وتلاشت مثل العصور الوسطى، التي كانت تعتبر السحر عملًا شائنًا وبغيضًا وشريرًا يستحق أقصى العقوبات، حتى الحرق حيًا للمتهم أو المدان بممارسته!

يذكر أن نهاية «ليفي» شهدت تدهورًا مؤلمًا في أحواله المادية والصحية، حتى إنه عاش لفترة على إحسان تلميذة له، وأقام في منزلها بألمانيا، وكانت هذه التابعة المخلصة ثيوصوفية متحمسة أيضًا، وبالمثل كان الغموض يلازم الرجل حتى في تاريخ وفاته، إذ إن يوم وساعة موته حددا بدقة من قبل رجل مجهول، يدعى «جوليانو كابيلا»، تقابل مع «ألفياس ليفي» لمرة واحدة لا غير، فأعلمه بأن حياته تخضع لقانون الأعداد الصارم، وأن عام ١٨٧٥م سيشهد وفاته، وهو ما حدث بالفعل .. حقيقة «كابيلا» لا تزال مجهولة حتى اليوم.. وأطرف نظرية قيلت بشأنه توحد «كابيلا» مع شخصية «كونت سان جيرمين» الغامضة الرهيبة!

مدام بلافاتسكي

وعقيدتها السرية:

(السر الأعظم الذي تحفظت عليه الشيطانة العجوز)

مدام بلافاتسكي: أكانت مُنَقِّبة وصيادة أسرار بارعة.. أم مجرد نصابة تهوى التسكع؟!

هيلينا بيتروفينا بلافاتسكي، ولدت هذه المرأة الشهيرة الغامضة عام ١٨٣١م، في الوقت الذي كان «ليفي» يخطو خطواته في عالم قُدر له فيما بعد أن ينقلب عليه تمامًا ويسلك سلوكًا معاكسًا له كليًا، وكسَلَفها كان مولدها يبشر بحياة ونهاية مختلفتين تمامًا عما جرى عليها في حقيقة الأمر، إذ كانت وريثة لعائلة ثرية ومحترمة، وكانت جدتها لأمها هي الأميرة «يلينا بافلوفنا دولجوروكايا»، وكانت أمها سيدة واعية علمت نفسها بنفسها، أما الأب فكان سليل عائلة محترمة وكان يشغل رتبة كابتن في سلاح المدفعية الملكية الروسية للخيول، وترقى لاحقًا، وأرسل للقتال ضد المتمردين على الحكم القيصري الروسي في بولندا، فلم تقع عيناه على ابنته هيلينا إلا بعد أن بلغت شهرها السادس من العمر.

ونتيجةً لمهنة والدها التي حتمت عليه، وعلى عائلته لاحقًا، التنقل حول الإمبراطورية الروسية عاشت «هيلينا» منذ نعومة أظفارها حياة الترحال من بلد إلى بلد، ورافقت أبويها في انتقالهما، حتى إن أختها «فيرا» ولدت بعيدًا عن منزل الأسرة في أوديسا، ولكن النقلة الكبرى في حياة الفتاة الأرستقراطية، التي كانت تعيش حياة عادية بالنسبة إلى طبقتها حتى ذلك الحين، كانت حين رافقت أسرتها إلى وسط آسيا، إذ يعيش شعب الكالميك، الذي كان يشكل جزء من القوميات الداخلة ضمن حدود الإمبراطورية القيصرية، وهناك في استراخان تقابلت «هيلينا» وأمها مع هذا الشعب الغريب عليهما، وتعرفت البنت لأول مرة على البوذية التبتية وبدأت في ملامسة تراث غريب تمامًا على كل ما ألفته وتعودت عليه.

مع تأثرها الواسع بالثقافة البوذية والتبتية، والتي لازمتها طوال حياتها التالية، ولكن الضربة الأولى المؤلمة في حياة «بلافاتسكي» كانت وفاة أمها، عن ثمانية وعشرين عامًا فقط، واضطرار الفتاة الأكبر مع أختها وأخيها الصغير للعيش بعيدًا عن والديها، برفقة جديها لأمها في (ساراتوف) وهناك يبدو أنها تُركت لها الحرية لتختلط بأولاد الطبقات الأخرى، وانطلقت بصورة تخالف ما اعتادته طبقتها المتحفظة المتزمتة، ومرة ثانية لعبت التقاليد التبتية دورًا كبيرًا في حياة «بلافاتسكي» المدهشة.

كان لعائلة الأم علاقة قديمة بالتقاليد الباطنية والماسونية، وفي هذه المرحلة ظهرت أولى قصص «بلافاتسكي» عن لقائها بأشخاص مجهولين قدموا لها معارف ملغزة وغير متوافرة، إنه أول ظهور للسادة masters.

الذين تكلمت عنهم «بلافاتسكي» مرارًا باعتبارهم رسل المعرفة الباطنية والسحر المجهولين للعالم كلية، وفي عام ١٨٤٤ انتقلت مع والدها وأسرتها إلى إنجلترا، ثم ذهبت للعيش مع عمتها في تيفليس، وهناك التقت بأحد كبار الماسونيين الروس وخاضت تجارب خارقة للطبيعة، وتقابلت مرة أخرى مع الهندي المجهول الذي هو أحد الأسياد الكبار!

كان من الواضح أن قصة حياة «بلافاتسكي» بدأت ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالماسونية والتفسيرات الباطنية للعقائد، والبوذية أيضًا كان لها تأثير هائل عليها، فأصبحت تدريجيًا مهيأة للعب الدور المهم الذي لعبته باقتدار فيما بعد.

شخصية كهذه لم تكن لتعيش حياة طبيعية فتورطت في زيجة غريبة برجل يكبرها بأكثر من عشرين عامًا، ثم حاولت الهروب منه عدة مرات بعد الزواج، ولم يكن من سبب لقبولها الاقتران به سوى افتتانها بهوسه بالسحر مثلها، وفعلًا فرت بعد فترة قصيرة من الزواج، وهربت عائدة إلى أسرتها، وقررت عائلتها إعادتها إلى أوديسا، ولكنها لشدة الغرابة هربت أيضًا منهم ووصلت، حسب روايتها، إلى مدينة القسطنطينية، ولتسع سنوات لاحقة سافرت «بلافاتسكي» حول العالم في رحلات كثيرة، ومع الأسف فإن كل التفاصيل عن تلك الرحلات هي من روايتها الخاصة، ولا

يمكن معرفة ما إذا كان ما روته مدام «بلافاتسكي» عن رحلاتها تلك صادق فعلًا، أم محض اختلاق من مخيلتها النشطة.

قصة حياة «مدام بلافاتسكي» تتضمن كثير من الأسفار، الألغاز، والمرويات التي لا سبيل إلى التحقق من صحتها، لكن ارتباطها بالسحر والغيبيات، وفيما بعد ادعاءها بامتلاك مفاتيح المعرفة ومعرفتها بأسرار مبهمة قديمة جدًا، تخص أعمق نواحي وجود الإنسان وكينتونته وعلاقته بالكون وبالقوى العليا، جعلت اسم «هيلينا بتروفنا بلافاتسكي» خالدًا كما هو بالضبط محاطًا بعلامات الاستفهام!

في مسيرتها تعرفت «بلافاتسكي» وتعاملت مع صنوف من البشر لم يكن من الممكن لفرد من طبقتها أو ظروف نشأتها الالتقاء بهم، سكان آسيويين قدماء، كهنة وجوالين تبتيين، ماسونيين، ممارسين للسحر والقبالاة، هنود من سكان أمريكا الأصليين بما يحملون من حكمة قديمة، بعض فروعها لا تزال سرية حتى اليوم، بالإضافة إلى عدد كبير ممن يمكن تسميتهم بـ(منحرفي الاعتقاد)، الذين كانوا يظهرون بمظهر المسيحي الورع، في حين يتكتمون على معتقدات وعقائد باطنية وسرية وغيرها.

بلا شك كان لهضبة التبت الوعرة، بتقاليدها المغرقة في القدم، وقبائلها التي لم تمسها يد التحديث إلا مسًا خفيفًا، أثرًا هائلًا على نفسية المرأة الطموحة، لكن أكثر حدث ترك أثرًا عظيمًا عليها هو سقوطها عن حصان في مينغريليا/ جورجيا، الأمر الذي أدى إلى وقوعها في غيبوبة طالت عدة شهور، ولما عادت إلى وعيها، وبحسب روايتها، بدأت تلاحظ مقدرتها على فعل أشياء غير اعتيادية، امتلكت قوى خارقة غريبة عليها، ومن بينها قدرة الاستبصار ورؤية الأشياء الخفية المحيطة بها.

الفترة التي تشكلت فيها أفكار واهتمامات «بلافاتسكي» شهدت انفجارًا في ظاهرة الاهتمام بالروحانيات والخوارق والما ورائيات والقوى الخارقة، كانت هناك المسمرية

mesmerism

ومؤسسها «أنطوان ميسمر» الطبيب الألماني الذي زعم وجود قوة تسمى

(المغناطيسية الحيوانية) وهي قوة غامضة مجهولة تملكها جميع الكائنات الحية، وكانت أفكاره أيضًا تبجل التنويم المغناطيسي كقوى روحية يملكها المعالج وبإمكانها إعادة تشكيل ماضي الشخص الخاضع لجلسة التنويم.

والروحانية والإيحائية ومحاولات الاتصال بالأرواح، التي بلغت ذروتها بظهور الأخوات «فوكس»، اللائي توجن نهاية القرن التاسع عشر بامتلاكهن قوى خاصة تتيح لهن الاتصال بالموتى ومخاطبة أرواحهم دون وسيط، وكذا ظهر عدد ممن يدعون متلاك القوى الخارقة من أهمهم الأخوان «إيدي»

William and Horatio Eddy

وهما شقيقان من «فيرمونت» زعما امتلاكهما قدرات نفسية وروحية خارقة، وقدرتهما على التواصل مع أرواح الموتى، وكان من بين القدرات التي امتلكاها القدرة على العزف على الآلات الموسيقية عن بعد، ومعرفة الخبايا والأسرار، وكانت جلساتهما تجتذب جمهورًا غفيرًا من المتعطشين للأمور الروحانية والمؤمنين بإمكانية التواصل مع الأرواح والقوى فوق الطبيعية التي تحيط بالإنسان!

ارتبط اسم السيدة «بلافاتسكي» أكثر ما ارتبط بما يسمى حركة العصر الجديد والثيوصوفية Theosophy

والأخير مصطلح يشير إلى مذهب ديني/ فلسفي باطني يختلط بتفسيرات جديدة ومدهشة للنصوص المقدسة، بما فيها العهد القديم، ويقدم تفسيرًا غريبًا جدًا للقصص الدينية الكبرى، فالشيطان على سبيل المثال لا يعد رمزًا للشر بل هو سبب من أسباب وجود العلم في العالم، إذ إن بإغواءه لآدم وزوجه تسبب في نزول الغنوص Gnosis

(المعرفة) إلى الأرض، وتأويلات الثيوصوفية للشرعمومًا مختلفة كلية عما تبنته المذاهب الدينية على تنوعها واختلافها، ومن قواعد الثيوصوفية رفض فكرة سكنى الله في السماء والإيمان بحلوله في كل شيء منظور أو غير منظور في الكون، وبرغم تعارض كثير من قواعد وأسس الثيوصوفية مع الأديان وإيمانها الرسمي إلا أن التفسير الباطني الذي اعتمدته يجعل من الممكن تفهم مبادئها بمعنى آخر.

أما ارتباط السيدة «بلافاتسكي» بالعلوم الشيطانية فيأتي من عدة وجوه:

أولًا إدعاء «بلافاتسكي» بتلقي علوم وتوجيهات سرية وباطنية من أرواح ما وراء الطبيعة، وهم من تسميهم الأسياد، واللذين يعتبرهم البعض إما كذبة محضة ودعاية مبتذلة لمنهج ومذهب «بلافاتسكي» ورؤيتها الباطنية الجديدة، أو أنهم نوعًا ما من الشياطين التي توسوس وتدس مذاهب مشوهة وملفقة بغرض تشويش البشر وإبعادهم عن عقائدهم ومذاهبهم السماوية!

ثانيًا: ارتبطت الثيوصوفية التي تعتبر «بلافاتسكي» مؤسستها الأم بإشارات وتلميحات واضحة بالشيطان، فالمجلة التي تعبر عن فكر الثوصوفية، التي بدأ صدورها في بريطانيا في ثمانينيات القرن التاسع عشر حملت اسم «لوسيفر» Lucifer

الاسم اللاتيني للشيطان، غير أن أتباع المنهج الثيوصوفي يرون في شخصيات «الله» والشيطان فكرة مغايرة تمامًا للفكر الذي يعتنقه أتباع الديانات الكتابية، ومن ثمَّ لا يرون في إتهام فكرهم أو (نبيتهم) ورائدتهم الأولى بعبادة الشيطان أو التزلف للأرواح الشريرة إلا فكرة سقيمة ومثيرة للسخرية، ناتجة عن سوء فهم وتأويل متعجل للأمور!

ثالثًا: للثوصوفيين تأويل خطير ومبتكر لكلمة «لوسيفر» إذ يرون أن اعتبارها اسمًا للشيطان هو سوء فهم متواتر وقاتل، ناجم عن تسرع مترجمي الكتاب المقدس، خصوصًا الترجمة الشهيرة المعروفة بنسخة الملك جيمس، في توحيد اسم لوسيفر المذكور في سفر أشعياء (١١:١٤-١٢)، الذي يترجم عربيًا بكلمات (زهرة بنت الصبح)، بإبليس ووفقًا لرؤية الثيوصوفيين الرسمية، المعلنة عبر موقعهم الرسمي، فإن نجمة الصباح، لوسيفر، إنما هو كنية لملك بابلي!

وكان الخطأ التاريخي الكبير في الربط بين «لوسيفر» والشيطان من عمل البابا جريجوري الكبير وتأويله الخاطئ والمتعسف للكلمة، ووفقًا لنفس المقال فإن علماء مسيحيين كبار ك«لوثر» و«كالفن» أقرَّا بخطأ ربط مصطلح «لوسيفر» بشخصية إبليس الشريرة والمخيفة بالنسبة إلى اتباع الكتاب المقدس!

وبالإضافة إلى كل ذلك فإنه تنسب للثيوصوفية بشكل عام، ولمدام «بلافاتسكي» خصوصًا عبارات ملغزة وغامضة ومن السهل جدًا تفسيرها بشكل يسيء جدًا لجمعيتها وفكرها الروحي، ويضعهما في تلك القائمة الكريهة والمخيفة من الأفكار والطقوس والعبادات التي لا يمكن أبدًا فهمها: طقوس عبادة وتعظيم الشيطان!

يتصف الفكر الباطني عمومًا، بما فيه الثيوصوفية التي أسستها مدام «بلافاتسكي» بالكثير جدًا من الغموض والتفسير المخالف لظاهر النص ومنطوق الكلمات، ولكن هناك عدة دلائل على أن الغموض الذي يحيط بالثيوصوفية يشمل أشياء أكثر من مجرد الغموض، شيء شرير ومبهم لم تفصح عنه السيدة الأم للمنهج بما يكفي أو تحفظت بشكل ما على نشر أفكارها بصورتها الواضحة، ولعل هذا في الأصل مقصود لجذب أكبر عدد ممكن من الأتباع والمعجبين، فمن المعلوم أن أورُبّي العصر الحديث، خصوصًا القرن التاسع عشر، قد أولعوا بالغموض والسحر، ومثل لهم الفكر الشرقي والغنوصي والبوذي والتعاليم السرية أمرًا محببًا، فالفراغ الروحي الذي تركه تراجع سطوة الكنيسة الأوربية وزيادة انتشار الإلحاد ونبذ الديانات القديمة جعل من المهم ملء هذا الفراغ بأفكار جديدة وعقائد مبتكرة، كانت كلها لشدة العجب مستقاة أصلًا من مصادر أو فروع شرقية قديمة خالصة، نفس التراث الذي خرجت من رحمه الديانات السماوية الشرقية التي نبذها وتخلى عنها مثقفو العصر الذي تلا عصر النهضة، باكتشافاته ومعارفه المزلزلة لكل القيم العتيقة الثابتة، مما يطرح سؤالًا مهمًا:

لماذا لا يمكن أبدًا خلق نظرية دينية أو أفكار فلسفية، مختلطة بالفكر الديني، دون أن يكون للشرق وتراثه يد ملموسة في إيجادها؟!

الأسياد أو Masters

الذين أعلنت «بلافاتسكي» تلقيها الوحي وتعاليمه منهم ضموا مجموعة غريبة حقًا من الشخصيات والأسماء، بعضهم كان خياليًا هيوليًا تمامًا، وصفت «هيلينا» وجودهم وما يلقنونه إياها دون أن تدلل عمليًا على وجودهم، وكان هذا طبيعي، إذ كانوا بحسب ما أعلنت أرواحًا عليا ذات طبيعة نورانية، أما الأسياد أو المعلمون من

البشر فقد كان من بينهم رجال لا يُعرف عنهم أي شيء على الإطلاق، مجرد مسميات مبهمة لأشخاص لا يعرف أحد هويتهم الحقيقة، أما بعضهم الآخر فقد كان معروفًا بسمعة مرعبة، أشخاص يحيط بهم غموض قاتل وريب لا نهاية له.

في كتابها العقيدة السرية The Secret Doctrine تصف «بلافاتسكي» طرفًا من محتويات كتاب يسمى «ديزان»، يحوي الحكمة السرية وخلاصة التجارب الروحية للعالم، وهو كتاب خطير وسري تمامًا زعمت أنها حصلت عليه خلال اعتزالها في التبت وتلقيها المعارف السرية والمحجوبة عن طريق رهبان الهضبة التي تسمى بسقف العالم، وتضم حضارة قديمة ومبهرة وعامرة بالأسرار والغوامض، التي لم يكشف النقاب عن معظمها بعد، وقد احتوى كتاب (العقيدة السرية) على سرد مكثف وشامل لكل العلوم الباطنية والقابلاة، وأسرار سحر المصريين القدماء، وحكايات قارات وعوالم مفقودة، مثل قارة (ليموريا) وغيرها كثير وكثير.

ومن الطريف أن حصول «بلافاتسكي» على كتاب «ديزان» وقراءتها له، ثم اعتمادها عليه في موسوعتها الكبرى (العقيدة السرية) ترافق مع حوادث غامضة وقعت لها، ومرض غريب أصابها، ولم يُشفَ إلا بطبابة ممارسين ومشعوذين هنود محليين بعد ثلاث سنوات، وانفجار الباخرة التي كانت تقلها، ومحاولات لقتلها، واختفاء الكتاب السري من خزانتها بشكل غامض، كل تلك الوقائع اعتبرت دليلًا لا يدحض، وشهادة على أهمية وخطورة كتاب «ديزان» هذا!

وعندما توفيت مدام «بلافاتسكي» عام ١٨٩١م، عن ستين عامًا، قيل أن لعنة كهنة التبت الساخطين، الذين رفضوا فكرة حصول امرأة أجنبية على أسرارهم المحفوظة الخطيرة المتمثلة في كتابهم، الذي فرت به الأولى بشكل ما، قد تحققت.. وذلك عندما تلاشت معظم أعمالها ولم يعد ممكنًا تتبع أثرها .. أو الحصول على معظم كتاباتها إلا بصعوبة وعنت شديدين!

يلاحظ أن مدام «بلافاتسكي» قد تورطت في عدة كذبات وأعمال احتيال لطخت مصداقية منشوراتها وكتاباتها، منها إرسال مجموعة ملفقة من الرسائل لبعض الشخصيات العامة الشهيرة، تحت زعم أنها مرسلة من قبل السادة الذين يتحكمون

في التطور الروحي للجنس البشري، لكن ما لبث أن تبين تلفيق هذه الرسائل.

كما أن قصتها حول كونها إحدى المسافرات القليلات، أو الراكبة الوحيدة في بعض الأحيان، الناجيات من انفجار الباخرة إينوميا steamship Eunomia

٢١ يونيو ١٨٧١م، قد تكون كاذبة، إذ تحقق بعض الصحفيين من الأمر، فتفقدوا قوائم المسافرين على الباخرة في ذلك التاريخ، ولم يجدوا اسم مدام «بلافاتسكي» ضمنها على الإطلاق.. لكن يبقى هناك احتمال أن تكون عملية تسجيل الركاب غير دقيقة كفاية وتكون الثيوصوفية الأولى محقة في قصتها!

الكاهن سونيير:
(لغز الثروة المهولة الطارئة!)

«فرانسوا بيرنجيه سونيير» كاهن بسيط، ولد في شهر إبريل من عام ١٨٥٢م» وتلقى تعليمًا إكليريكيًا، ثم نال رسامة القساوسة في يونيو ١٨٧٩م، وتم إرساله ليقوم بمهمته الرعوية، في رين دي لو شاتو، لتبدأ أسطورته الغامضة!

بعد رسامته بدأ الكاهن الشاب «سونيير» عمله كراعٍ كاثوليكي في بلدية «ألي لو بان» Alet-les-Bains بمقاطعة (أوسيتاني) بجنوب فرنسا، ومنها انتقل إلى قرية (لي كلا) Le Clat، ولكن يبدو أن سلوكيات «سونيير» لم تكن مشجعةً على تثبيته في مكان واحد، إذ سرعان ما أُلقي به في رعوية بائسة فقيرة في بلدة (رين لو شاتو) في ١٨٨٥م، وهي تمثل محطته الرابعة في سلكه الرعوي الشاق، لكن مواقف الكاهن الخامل الذكر السياسية لم تكن مستساغةً لدي الجمهوريين في فرنسا في تلك الآونة؛ لذلك قام وزير شئون العقيدة بإيقافه عن العمل كاهنًا لفترة استمرت حوالي سبعة أشهر، عاد خلالها للتدريس في ناربون، بيد أن أهالي (رين لو شاتو) ضغطوا لاسترجاع كاهنهم مرةً أخرى، فرضخ محافظ المقاطعة، وعاد «سونيير» إلي رعويته النائية، وفي مرحلته الثانية بدأت الألغاز التي أحاطت به في التشكل، وكان أولها هو علاقته غير الواضحة بخادمته «ماري دينانور»!

ويبدو أن هناك أقاويل تناثرت حول العلاقة التي تربط بين القس وخادمته، التي انتقلت بعائلتها لتقيم برفقته، وبالأحرى كانت الشائعات قويةً جدًا ورائجةً، حتى أنها تعهدت بعدم دخول غرفته، ما دام فيها، إلا في حالات المرض والضرورة القصوى، لكن هل كان الأمر مجرد الشك في (علاقة غير مستحبة) بين كاهن وخادمة، أم أن تلك المرأة كانت تعرف أشياء لا يعرفها أحد عن كنيسة (ماري المجدلية) التي يخدم فيها سيدها؟!

اللغط حول الأمر كله بدأ حينما أقدم «سونيير» على إجراء تجديدات واسعة في كنيسة «مريم المجدلية»، التي يتولى الخدمة فيها، فقد بدأ بتجديد أرضياتها،

وإنشاء مذبح جديد، وكذلك تركيب زجاج ملون للنوافذ، وعلاوةً على ذلك أنه اتفق مع نحات شهير، هو «جيسكارد» على إنشاء مجموعة من التماثيل للقديسين وليوحنا المعمدان، وقد تكلفت مراحل التجديد هذه مبلغًا وقدره ألفان وخمسمئة فرنك فرنسي (٢٥٠٠ فرنك)، تم دفعها على أقساط سنوية بواسطة سونيير، بدايةً من أواخر شهر ديسمبر من عام ١٨٩٧م، وتم تدشين الكنيسة بعد التجديد في مناسبة عيد العنصرة من نفس العام بواسطة الأسقف «بيلارد»، فمن أين لكاهن محلي محدود الدخل بالمال اللازم ليدفع مقابل كل تلك الأعمال والتجديدات؟!

لغز الأموال التي دفعها «سونيير» لتجديد كنيسته الصغيرة استفحل مع قيامه لاحقًا بسلسلة واسعة من عمليات الإنشاء حول قرية «رين لو شاتو»، ففي خلال سبع سنوات بين عامي ١٨٩٨م و١٩٠٥م قام الكاهن الفقير ببناء فيلا تسمي فيلا بيثانيا، وشراء أراضٍ، وإنشاء برج حمل اسم (برج المجدلية) أو (ماجدلا)، وحديقة تحوي قفصًا للقرود وحمّامًا للسباحة، اللغز حقًّا في الأمر، أكثر حتى من مصدر تلك الأموال غير المعروف من أين جاءت، هو أن كل تلك العقارات كانت مسجلةً باسم الخادمة «دينارنو»، بل وجعلها وريثته الوحيدة في وصيته!

لكن يبدو أن «سونيير» قد تجاوز الحد المسموح له به، أو أن ذكاءه لم يكن

كافيًا لإيقافه عند الحدود الآمنة، لأن نشاطه ما لبث أن استدعي تدخل رؤسائه في السلك الكنسي، وكان لأسقف كاركاسون Carcassonne الجديد «بيوفان» رأي فيما يخص نشاط مرؤوسه الغامض، فقرر أولًا إبعاد «سونيير» عن رعيته في رين لو شاتو، وعينه كاهنًا لقرية كوستوج، ثم استدعاه للمحاكمة والتحقيق في مايو من ١٩١٠م، بعد أن رفض «سونيير» تنفيذ الأمر الصادر إليه، واستقال مفضلًا تقديم خدماته الكنسية مجانًا، وكان للأخير لائحة اتهام عامرة شملت العصيان، والنفقات المبالغ فيها، واستغلال الجماهير، كان ثمة رأي مبدئي يتهم سونيير بأنه تحصل على كل تلك الأموال -التي أنفقها على مشاريعه داخل وخارج الكنيسة- من خلال تبرعات رعايا كنيسته، وبيع الخدمات الكنسية مقابل أجر، وهو ما يعد منافيًا ومتعارضًا مع تعاليم الكنيسة ومبادئها!

وهكذا لم يهتم «سونيير» بحضور جلستي التحقيق معه خلال يومي ١٦ و٢٣ تموز، وبناءً على ذلك تم تأجيل التحقيق الكنسي معه لمدة شهر، مع إلزامه برد الأموال التي جناها من بيع الخدمات الكنسية للجمهور، كان الظن لا زال غالبًا أن رعية سونيير هم مصدر أمواله الغامضة، لكن الرجل تنازل عن عناده، وحضر مجلس التحقيق الثالث في الخامس من نوفمبر، وانتهي التحقيق معه بإلزامه بعزلة روحية للتكفير والندم، لمدة عشرة أيام، قضاها الكاهن المكلل بالشبهات في دير يسمى (دير برولي)، ولزيادة الشبهات حوله، وتجرئه على اللجوء إلي روما طالبًا إعادته إلي كنيسته في رين لو شاتو، ألزمه أسقف كاركاسون بتقديم محررات وحسابات موثقة تكشف مصدر الأموال التي استخدمها في مشاريعه الإصلاحية والإنشائية الواسعة!

وبرغم استعانة القس بإثباتات تخص تقديم مساعدات إلي كنيسته من مانحين ومتبرعين، لكن تقاريره المحاسبية لم تستطع أن تغطي سوى ٣٦ ألف فرنك (٣٦٠٠٠) وحسب، من إجمالي مبلغ ١٩٣ ألف فرنك، تكلفة إنشاءاته في الواقع، كان الفارق بين الرقمين جسيمًا إلي الدرجة التي أجبرت رؤساءه على عقد مزيد من جلسات التحقيق معه!

ويبدو أن «سونيير» كان قد وصل المرحلة التي لم يعد عمله فيها يمثل أهميةً كبري له، لأنه امتنع عن حضور جلسة التحقيق اللاحقة معه، والتي جرى عقدها في شهر نوفمبر من عام ١٩١١م، مما ترتب عليه أن تم توقيع عقوبة (الإيقاف عن العمل)، وتجميد نشاطه الكهنوتي لمدة ثلاثة شهور، بدءًا من يوم ٥ ديسمبر من نفس العام، ولكن تلك العقوبة كانت تشتمل على تفصيلة تجعل عودة الكاهن المحلي المتمرد إلي عمله مرهونةً بقرار من المجلس الكنسي، الذي بدوره لم يكن ينوي السماح له بالعودة إلي مزاولة مهامه في الكنيسة، ما لم يقُم برد الأموال التي اجتباها من أموال رعايا الكنيسة أولًا، المدهش أن الكنيسة كانت لا تزال تصدق أن كل تلك الأموال -التي أستخدمت لبناء وتجديد هذا الكم من العقارات والأملاك- تعود إلي جيوب رعايا كنيسة رين لو شاتو الفقراء!

بعد أن طُبّق عليه قرار الإيقاف الكنسي، الذي يبدو أنه استمر لأكثر من المدة

المقررة؛ بسبب عجز «سونيير» عن تقديم إفادة منطقية عن مصدر ثروته الكبيرة، فجأةً أفتقر صاحب (برج ماجدلا)، وأصبح يتكسب من بيع المسابح والتذكارات الدينية لبعض الجنود المتمركزين في (كامباني لو بان)، والمثير للدهشة أنه كان يفكر في بناء منزل صيفي، وهو في تلك الحالة من الفقر، لكن أعوزه المال اللازم، واضطر إلي تكريس كل ما يملك لدفع أجر محاميه لدى روما، وظلت (قضية سونيير) معلقةً حتى وضع لها القدر الحل الناجع بوفاة صاحبها نفسه «فرانسوا بيرنجيه سونيير» في الثاني والعشرين من يناير ١٩١٧م، وهو في الرابعة والستين من عمره، وقد رُفع عنه الإيقاف الكنسي بمجرد وفاته، ودُفن بعد موته بيومين،بينما تولت خادمته السابقة «ماري دينارنو» دفع تكاليف التابوت، الذي حمل جسد سيدها السابق إلي مثواه الأخير، بعد ذلك التاريخ بنحو ستة أشهر!

وفاة «سونيير» الهادئة لم تقدم حلولًا لأي شيء، فبالإضافة إلى أن مصدر ثروته ظل غامضًا، وتمسك هو برفضه الإفصاح عن مصدر المئة وثلاثة وتسعين (١٩٣) ألف فرنك، التي أنفقها على جملة تجديداته وإنشاءاته، فإن الفقر المفاجئ الذي حل به، ثم الفترة الطويلة التي استغرقتها مساعدته في بيع بيته، للحصول على مقدار من المال يكفي لدفع ثمن تابوته، كلها تشي بأن هناك أمورًا غامضةً جرت بعد وفاة المهيمن الأكبر على اللغز، وهو «سونيير» نفسه!

وفوق كل ذلك، فإنه بعد موت الرجل بحوالي مئة عام، وفي شهر سبتمبر من عام ٢٠٠٤، أقدم رئيس بلدية (رين لو شاتو) على استخراج جثة «سونيير» من جدثها، ومن ثم وضعها في تابوت خرساني وأعاد دفنها، وأمر بإغلاق مقبرة البلدة أمام الجمهور، ولكن ماذا كان السبب في تلك الاجراءات الغريبة؟!

أن قبر «سونيير» تعرض لمحاولات عديدة لنبشه وسرقة الجثة، فماذا كان يبغي اللصوص من جثة رجل مات منذ قرابة قرن، وهل كانوا يريدون الجثة نفسها، أم أنهم كانوا ببساطة يأملون في العثور على شيء معين دُفن معها؟

كل تلك الأسئلة تبدو كشظايا ناجمة عن انفجار واحد لا يزال قيد البحث: من أين جاء «سونيير» بكل تلك الثروة؟ وأين ولماذا نفدت فجأةً؟

ظهرت عدة تفسيرات لثروة الكاهن المحلي المفاجأة تراوحت كلها بين مجموعة نظريات تقليدية وشائعة:

- أول تلك النظريات أرجعت الثروة المفاجئة إلى مخطوط أثري وجده «سونيير» في مذبح قديم بكنيسة «مريم المجدلية»، ويحوي وصفًا لكنز يخص الملكة «بلانش من قشتالة»، وهي زوجة الملك «لويس الثامن»Louis VIII ملك فرنسا، الذي حكم بين عامي ١٢٢٣م و١٢٢٦م، التي يقال إنها أودعت كنزًا ملكيًا سريًا في تلك البلدة الخاملة، بعيدًا عن أيدي المنقبين والفضوليين في باريس، يبلغ قدره ٢٨٥٠٠٠٠ قطعةً ذهبيةً، وهو الكنز الذي جمعته الملكة لدفع فدية ابنها «لويس التاسع»، بينما كان في سجن المماليك في مصر، وهو نفسه الكنز الذي وجده واستخدمه «سونيير» فيما بعد، تلك النظرية مع ملاحظة خلوها من أي أدلة منطقية أو تاريخية، فهي لم تزل عاجزةً عن تفسير السر في الفقر المفاجئ الذي أصاب «سونيير»، ومبرر عجزه عن العثور على المزيد من الأموال، أو حتى كيفية تصرفه في ذلك الكنز الأثري، الذي لا بد أنه يحوي قطعًا وتحفًا قديمةً وعملاتٍ عتيقةً، لا يسهل تصريفها والتعامل فيها دون لفت الأنظار، لكن تلك النظرية تنهار تمامًا حينما نعلم أنها لم تظهر إلا في عام ١٩٥٠م، على يد شخص يدعي «نويل كوربو»، وهو لم يكن إلا صاحب مطعم في المنطقة محل اللغز، واستخدم تلك الأسطورة الملفقة في الترويج لمطعمه!

- النظرية الأكثر إثارةً تربط بين ثروة «سونيير» ولغز أكثر قدمًا وخطورةً، ويتعلق بتلك القصة الشعبية الرائجة، عن دير صهيون الحقيقي العتيق، الذي كان يحمي سرًا خطيرًا وهو المعروف بسر (الكأس المقدسة والدم المقدس)، الذي يشير إلي كون «مريم المجدلية» ليست مجرد أحد تلاميذ المسيح وحسب، بل إنها كانت زوجته في الحقيقة، وأنهما أنجبا نسلًا أتت من خلاله سلالة ملوك فرنسا، المعروفين بالملوك (الميروفنجيين) Merovingian، وهي السلالة التي حكمت فرنسا لنحو ثلاثة قرون، بدايةً من منتصف القرن الخامس الميلادي، ووفقًا لتلك النظرية كان هناك كنزًا يخص السلالة ذات الدم الملكي المقدس، بالإضافة إلى وثائق خطيرة تكشف هذا السر، الذي يمكن أن تتصدع بسببه المسيحية والكنيسة بأسرها، وأن «سونيير» سعيد الحظ قد عثر على كل ذلك، تلك النظرية تعتمد جزئيًا على تلك

الحادثة المثيرة التي رواها الإنجيل عن (معجزة تحويل الماء إلي خمر)، والمعروفة بقصة (عرس قانا الجليل)، والتي تُظهر أن السيد المسيح وأمه كانا يقومان بدور المضيف للحضور في العرس، وتمضي النظرية فتتساءل عما إذا كان المسيح حاضرًا للعرس باعتباره ضيفًا، أم أنه كان في الحقيقة عرسه هو على «مريم المجدلية»؟!

النظرية المرفوضة كنسيًا، والتي تستخدم تفسيراتٍ متعسفةً حقًّا، وبعض أجزائها مبني أصلًا على رقوق ووثائق مزيفة، تربط بين عدة خيوط: المسيح ونسله المفترض، وكنز رين لو شاتو، والمجدلية التي كان لها وضع خاص بين التلاميذ، وأخيرًا تلك المنظمة الغامضة، التي يقال أنها ورثت السر وأمانته عن فرسان الهيكل المنكوبين على يد «فيليب الرابع»، ويقال أيضًا أنها تحتفظ بأسرار دينية وتاريخية مروعة، وإرث سحري وطقوسي غامض موروث عن (الكاثار) الملعونين الذين حرمتهم الكنيسة، وأوقعت بهم، وأبادتهم عن بكرة أبيهم، المنظمة التي لا يوجد دليل واحد على حقيقة وجودها وهي المسماة بدير صهيون!

على فرض أن كل تلك النظريات السحرية، التي تلهب خيال محبي القصص الشعبية، والألغاز التاريخية التي تُجمّد الدماء في العروق، ليست إلا هلوسة أناس مولعين بنظريات الأسرار والمؤامرات الغامضة، فهل يمكن العثور على تفسير أبسط وأقرب من كل ذلك؟!

هل يمكن أن يكون مصدر ثروة القس الخامل هو استغلال التبرعات والعطايا المقدمة من المؤمنين لكنيسته في رين لو شاتو، وربما بعض المؤمنين الأثرياء، ومن ثم استخدامها في عمليات التجديد والإصلاح فيها، واستغلال الباقي لمنشآته الخاصة، التي سجلها باسم خادمته؛ هروبًا من الاعتراف بتلك الحقيقة والمساءلة حولها، لكن تظل هنا نقطة غامضة، فمن أين لرعايا منطقة فقيرة خاملة كبلدية رين لو شاتو، بكل ذلك القدر من الأموال، وبالمثل لماذا رفض «سونيير» تأدية وظيفته الكنسية في أي مكان آخر، هل كان يعز عليه استغلال رعايا آخرين غير أهالي رين لو شاتو!

ولماذا ببساطة لم يخترع أي حجة يبرر بها ثروته، ويقدمها لمجلس التحقيق

الكنسي، ويسكتهم بها معللًا الأموال التي حصل عليها بأنها من تبرعات رعايا كنيسته الأبرار المتقين؟! هل كان يخشي اتهامه بالخديعة ومخالفة واجبات وظيفته، واستخدام الأموال في مصالحه الشخصية؟!

بسهولة كان بوسعه دفع تلك التهمة بإثبات أن كثيرًا من العقارات التي أقدم على إنشائها، كانت لخدمة سكان البلدة، وبالفعل كان بعضها مكرسًا لهذا الهدف، وتكفيه إصلاحاته وتجديداته الواسعة في مقر رعيته تأكيدًا لحسن نيته، لماذا التزم «سونيير» بالصمت حتى آخر لحظة من حياته؟!

وإذا كانت القصة كلها مجرد قصة (كاهن محتال) لعوب، تمكن من سلب الفقراء والمتبرعين أموالهم، ألم يكن أهالي البلدة هم أول من يُفترض أن يعرفوا تلك الحقيقة ويؤمنوا بها؟! إذًا لماذا عكفوا على محاولة نبش قبر الرجل بعد موته؟! ولماذا قام غيرهم بمحاولة تدنيس ذلك القبر الغامض الغفل من البيانات والمعلومات، الذي يشبه تمامًا، بل يتطابق مع القبر الذي رسمه منذ قرون فنان غامض يحمل اسم نيكولا بوسان؟!

قصة «سونيير» ونهايته الغامضة، وإبهام مصدر ثروته وسبب نضوبها المفاجئ، وكذلك تراث «بوسان» الفني، ولغز رعاة أركاديا، وحكايات الكنوز المطمورة، وكل ذلك الخليط من أساطير فرسان الهيكل، والميروفينجيين والكأس المقدسة، وأكاذيب جمعية صهيون، والرقوق والوثائق المزورة، والقبر المجهول ووجوده في نقطة المركز، هذا كله دفع شباب ومراهقي (رين لو شاتو) إلي إقلاق راحة مُلاك قطعة الأرض، التي يوجد بها القبر المشابه من كل الوجوه؛ لذلك الذي يقف في مركز انتباه وتأمل رعاة أركاديا -حافظي الأسرار القدماء-، هذا الإقلاق المتعمد تمثل في محاولات لا تنتهي لنبش القبر، واستجلاء ما يوجد بداخله أو حوله من تفاصيل أو لقيات أو معلومات، قد تؤدي للكشف عن اللغز الذي قطع أنفاس أهالي المنطقة، وربما فرنسا بأكملها إثارةً، آخر من آلت إليهم تلك القطعة من الأرض السيد «روسيت»، يبدو أنه لم يكن يملك ما يكفي من الصبر والتحمل؛ ليقوم بدور القائم والحافظ على درة أثرية وعجائبية كتلك، فقد نال ما يكفيه من إزعاجات الشباب والمراهقين،

وتعديهم على حمى أرضه وأملاكه الخاصة، مما دفعه إلى التفكير في طريقة للتخلص من هذا الإزعاج بشكل دائم ونهائي، وهكذا جمع الرجل أمره، وعقب تفتت أجزاء من القبر وسقوط بعض الأحجار منه؛ بسبب أعمال الحفر والنبش التي تجري حوله سرًا وخفيةً عن مالكه، أخذ الرجل موافقة المجلس البلدي، ثم في يوم ٩ إبريل من عام ١٩٨٨م تمت عملية هدم القبر وتسويته بالأرض!

ولم ترد أي أخبار تفيد بالعثور على أشياء ذات قيمة في أطلال القبر، أو تأكيدات عما إذا كان قد تم الكشف عن وجود رفات أو بقايا بشرية أو غيرها داخل القبر نفسه، وهكذا تحطم اللغز الذي التفَّت حوله رعاية أركاديا، والذي بذل «بوسان» شطرًا من عمره في إخراج تصور فني له إلي النور، ولم يُعلن قط كيف تم الحصول على قرار بهدم قبر، يمكن أن يُعتبر في عداد الآثار والمنشآت القديمة؟!

لكن الغرابة تزول إذا ما عرفنا أن هذه المنطقة من أرض (لانجدوك) تحفل بأعداد كبيرة من القبور المشابهة للقبر، الذي وقع لسوء الحظ في ملكية المسيو «روسيت»، ذي الخيال الفقير والمزاج القلق، والذي أنهي مشكلته الصغيرة بهدم تلك الكومة من الأحجار، لكن الدراسة التناظرية للوحة «بوسان» الأشهر بنسختها الثانية، تقطع بأن هذا القبر تحديدًا هو المصور والمحفوظ في مركز الصدارة من ذلك العمل الفني المثير للجدل والحيرة والتساؤل!

هل هو الماجنوم أوبوس؟!

بينما كانت السيدة «دينارنو» تحتضر على فراش موتها، حنثت بعهد كانت قد قطعته لمالك بيتها الجديد، الرجل الذي اشترى منها البيت، الذي تركه «سونيير» الغامض خلفه مُسجلًا باسمها، وباعته لاحقًا لتسدد بعض الديون، وربما ردًا لجميل ما فعله معها المالك الجديد السيد «نويل كوربو»، وعدته في ثرثرة ودودة قبل مرضها الأخير أن توقفه على سر يحول حياته جذريًا، مثلما أعلنت له أن سكان «رين لو شاتو» يمشون على الذهب حرفيًا دون أن يعلموا، ولكن ولسوء الحظ، فإن خادمة بيت القس السابقة أصيبت بجلطة دماغية في ٤ يناير ١٩٥٣م، وفقدت القدرة على الكلام، فقضت آخر أيامها في صمت قسري، حابسة معها سرًا ربما كانت الوحيدة

آنئذ التي تعرف مكنونه، وتستطيع البوح به أخيرًا، وإذاعته للعالم القلق المترقب، غير أن «دينارنو» ماتت بعد خمسة أيام، عن خمسة وثمانين عامًا، دون أن تتمكن من الإفصاح عن شيء للأسف، لكن وبعملية ربط بسيطة ومنطقية، وحين نأخذ في الاعتبار كل المعطيات السابقة، ما يُشاع عن ثروة مهولة، أو سر فوق كل تصور، قام على حراسته «الكاثار» و«فرسان الهيكل»، رغم الخلاف العقائدي الشاسع بينهما، ثم ظهور (لوحة رعاة أركاديا) وشفيراتها المتداخلة، وحرص ملك فرنسا بذاته على حظرها وإبعادها عن الأعين، وكون اللوحة مع لوحة ميداس، تمتا بتكليف من رجل، «كاميلو ماسيمو»، يحيط به ما يكفي من علامات استفهام، والعبارات التي وصف بها شقيق «كولبير» لقاءه بـ«بوسان» في روما، والسر الذي عرفه عن طريقه، ووصفه له بأنه يفوق كل شيء، ثم قصة الراعي سيىء الحظ «باريس»، والصراع بين رجال البلاط الفرنسي على تملك أرض «رين لو شاتو»، التي لا توجد بها أي مغريات اقتصادية، ثم أخيرًا لغز «سونيير» وثراؤه الطارئ وافتقاره المباغت، وما حمله من سر لخادمته، كل هذا يجعلنا نتيقن أن الأمر لا يمكن أن يقف عند مجرد كنز عادي، مهما بلغت قيمته، فحتي لو كان الأمر متعلقًا بكنز الهيكل -إن كان ثمة هيكل فعلًا- فلا أيسر من كشف مكانه، باستعمال كل المقومات المتوفرة لمن يجدون في البحث عنه، ومنهم من يملكون أعلى السلطات في الدولة، ويحتفظون بقدر وافر من المال والعلم والثقافة، وإيجاده وتقسيمه، كيف يصل راعي كنيسة فقير ومغمور الشأن كـ«سونيير» إلى الكنز ويستغله، ويعجز كبار عصر «بوسان» بسلطانهم ونفوذهم وواسع اطلاعهم عن وضع أيديهم عليه؟!

إذًا فيصعب جدًا تصور أنه مجرد كنز من الذهب أو الجواهر أو العملات الثمينة وغيرها، والحل الأكثر قربًا، مع أنه الأكثر غرابةً وصعوبةً في التصديق، أن يكون كنز «رين لو شاتو» هو كنز خيميائي أو معلوماتي!

الماجنوم الأوبوس Magnum opus، أو العمل العظيم، الحلم الأكبر للخيمياء القديمة، حجر الفلاسفة القادر على منح الحياة والشباب الأبدي، وتحويل النحاس والحديد والرصاص وسائر المعادن زهيدة القيمة إلي ذهب، هل تحتوي المقاطعة الفقيرة المنسية على وثائق نادرة، تحوي طريقة تحضير الأوبوس، وتحويل المعادن

إلي ذهب بكيفية ما، وأن هذا هو السر الذي اؤتمن عليه «بوسان»، وما جدّ رجال عصره النابهون في إيجاده، وتصارعوا للاستحواذ عليه، وفشلوا لضياع الوثائق والرقوق بشكل ما، ثم عثر عليه «سونيير» بمحض الصدفة واستغله، هل تعرض «سونيير» لعملية ابتزاز وخداع من طرف من ارتبط بعلاقات مريبة معهم، بعد أن ظهرت عليه معالم الثراء المباغت، فانتزعوا منه تلك الوثائق الخطيرة، التي لعلها مكتوبة بشفرة صعبة ومعقدة، جعلت بعض من يضعون أيديهم عليها يعجزون عن حلها، والانتفاع بمعلوماتها الخطيرة، وأن ذلك هو سبب افتقار «سونيير» المفاجئ، ضياع الوصفة، فقدانها بشكل ما، أو سرقتها منه، أو انكشاف سره لجهة ما، وأن الوصفة كانت أصعب وأعقد من أن يحفظها عن ظهر قلب، ويتمكن من تطبيقها، دون مرجع مكتوب بعد ذلك، أو أنه كان يحتاج إلى وسائل ومقومات حيل بينه وبين الوصول إليها، عبر مراقبين متيقظين، ربما كان منهم أشخاص مقربون منه، يعكفون على التجسس عليه ليل نهار!

قد تبدو تلك فكرةً سخيفةً ومتطرفةً في جموح خيالها، لكن مع قليل من الانفتاح العقلي، نقول: ولمَ لا؟!

لمَ لا تكون لوحة «ميداس يغتسل في نهر باكتولوس» هي الجزء الثاني من كتاب شفرة «بوسان»، والنصف المتمم للأحجية، وفي رين لو شاتو ميداس أيضًا وهبته الساحرة المدمرة، إن الفكرة قد تبدو غريبةً، وقد تكون خاطئةً بالكلية، لكن ربما الأوبوس الخاص برين لو شاتو كان عبارةً عن لعبة خيميائية بارعة، خدعة تخلط العلم بالسحر، فتجعل للمعادن الرخيصة صفات وشكل الذهب، دون أن تحوله فعليًا إلي ذهب، وربما يكون مفعولها يتلاشى بعد فترة، فيعود كل شيء إلي أصله، غير أن كل ذلك في النهاية قد يكون بدوره غير حقيقي بالمرة، ويكون الكنز المطمور في الرعوية البائسة هو معلومات مهمة وخطيرة، تدفع جهات منتفعة ما مالًا وفيرًا من أجل كتمانها، والحفاظ على سريتها، البابوية مثلًا، أو الملكية الفرنسية، أو تجمعات سرية معينة، وقد يكون «سونيير» قد ابتز جهةً منها بمعلومات توفرت لديه بطريق الصدفة، وانتهي زمنه حينما سُرقت منه هذه الوثائق، أو أصبحت بلا فائدة، أو تخلص المنتفعون من كل الأدلة التي تؤيد صحة ما ورد بها من نصوص ومعلومات!

قد يكون هذا وقد يكون ذاك، لكن منطقيًا فالقصة أصلها أعمق من مجرد لوحة تحوي شفراتٍ أو رسائل سريةً مدسوسةً، ووفقًا للربط البسيط المباشر فقد يكون هناك في لانجدوك إما:

1.كنز كبير مدفون، هذا الكنز ليس ماديًا فقط، بل يتضمن أسرارًا روحيةً، لعلها مرتبطة بعصر تأسيس المسيحية، أو بما هو أقدم كعصور مملكة «داود» و«سليمان»، وهذه المخبئات الثمينة تحوي قواسم مشتركةً، من مصلحة عدة جهات التحفظ عليها وكتمان خبرها، فرسان الهيكل والكاثار في العصور الوسطي، ثم «نيكولا بوسان ورعاة رين لو شاتو» و«سونيير»، وآخرون في العصر الحديث، ومن ثم بطريقة ما، وعبر علاقاته المتشعبة، علم «بوسان» بطرف من تلك القصة الملغزة، وحاول أو أومر بواسطة جهة لها مصلحة في ذلك بحفظ ذلك السر مشفرًا في لوحة تحوي رسائل عديدةً مخفيةً، لمن يملكون أدوات قراءتها وفهمها، وذلك ما دفع شخصيةً بحجم ملك فرنسا للتصدي لحماية اللوحة، وحفظها بعيدًا عن الأعين، في مكان لا يستطيع أحد غيره التطفل عليه.

2.أسرار تتضمن أمورًا تفوق كل تصوراتنا، كأسرار خيميائية أو سحرية، كلها مرتبطة بالكأس المقدسة، التي ربما ترمز إلي وصفات خيميائية تتيح تحويل المعادن الرخيصة إلي ذهب.

في كل الحالات يبقى اللغز على حاله، دون ظهور معلومات جديدة موثقة، أو حلول أكثر منطقية وواقعية، لكن استقراءً دقيقًا للقصة بأكملها يجعلنا نقطع أن وراء «بوسان»، ورعية «رين لو شاتو» و«بيرنجييه سونيير» سرًا كبيرًا ومهمًا جدًا!

أليستر كراولي: (الشيطان الفخور!)

في كل القصص التي مرت بنا لم تجرؤ أي شخصية حقيقية أو اعتبارية مما ذكرنا على الاعتراف بكونها تجسيدًا للشيطان، أو أعلنت فخرها بذلك، كان الشيطان دومًا فرصةً رائعةً لينفي الإنسان المسئولية عن نفسه، ويلقي عن كاهله عبء الذنب ويحمّل خطاياه على حساب قوة مجهولة، يؤمن معظم الناس بوجودها، ويخافونها بقدر ما يعترفون بلزومها وضرورتها لحياتهم، لكن شخصًا واحدًا خالف كل القواعد المتعارف عليها، لم يعترف بعلاقته وارتباطه بالحية القديمة -الشرير الأكبر- فقط، بل أسس تقليدًا أسود يُكرس ليس فقط للتوافق مع إبليس، بل لاتخاذه ربًا معبودًا تضاهي قوة ودقة طقوس عبادته صنوف العبادات التي يمارسها المؤمنون في معابدهم وكنائسهم وخلافه.

إنه شيطان العصر الحديث، الفيلسوف والفنان والشاعر والساحر، ومؤسس عبادة الشيطان بمعناها الرسمي أليستر كراولي Aleister Crowley الذي نشأ وتربى في أسرة على النقيض كليةً مما صار إليه لاحقًا، فقد كان الأب ديِّنًا محترمًا ومهتمًا بنشر الوعي الديني بين جيرانه ودائرة معارفه، أما «كراولي» الابن فقد كان مهووسًا بالشهرة ودوام الذكر؛ لذا لم تنل فكرة العمل السياسي أو الدبلوماسي -عقب تخرجه من جامعة كامبريدج- أي لهفة منه، ويظهر أن «إليستر»، كان شأنه شأن جميع من انغمسوا في العقائد والطقوس السودواية والسحرية، مختلفًا كثيرًا عمن حوله، لا تستهويه الحياة الهادئة أو السير الرتيب للأمور، مشتاقًا إلى تحقق إنجاز يفوق كل إنجازات أقرانه المتشابهة التي لا إثارة من أي نوع فيها، ولنتذكر أن الملل هو أحد أسلحة الشيطان الماضية؛ لذلك نجد أن معاناة الملل وكراهية البدايات والنهايات المتشابهة باب عظيم للدخول والوقوع في إسار الطقوس والتجمعات التي تهتم بالسحر وعبادة الشيطان والعقائد الباطنية وخلافه، وإضافةً إلي مشاكسته وكثرة معابثاته لزملائه وأصدقائه منذ طفولته، فقد كان «إليستر» يميل دومًا إلى الشر ويحب تجربة الأشياء الغامضة والتجارب فوق الطبيعية بشكل يفوق من هم في مثل سنه، وبشكل ما عانى من اختلاط في مشاعره فكان مزدوج الميول الجنسية،

ومدمنًا للمخدرات، وكان لديه ميل كبير إلي تسفيه الدين والطقوس الرسمية له، إذ كان يجد فيها ثباتًا وبطريركيةً أبويةً تناقض وتعادي مزاجه الحاد المتحرر من كافة القيود، «أليستر» كذلك آمن بضرورة التوحد الإنساني مع الكون، روحانيةً سحريةً لا تتخذ من الأديان القائمة مرجعيةً لها، في سن الرابعة عشرة تسبب في حادث مأساوي لفتاة مسكينة، إذ أقام علاقةً مع خادمة تعمل في منزلهم، ولما تم كشف المسألة طردها أهله من البيت، فتشردت وأدمنت الخمر، ويشاع أنها أصبحت فيما بعد مومسًا محترفةً، وانتهى بها الحال كضحية بين يدي جاك السفاح كجثة ممزقة مشوهة!

ولم تتوقف نزوات «كراولي» الابن الذي أصيب بمرض منقول جنسيًا وهو في السابعة عشرة، وفي الثالثة والعشرين أصبح عضوًا فاعلًا في جماعة الفجر الذهبي المعروفة، لكن مزاجه الحاد وأسلوبه الفظ وإباحيته المفرطة والعلنية جعلوا عضويته لا تستمر طويلًا، وفي عام ١٩٠٤م، وبينما كان في مصر مع زوجته، مر «كراولي» بتجربة روحية ونفسية نادرة، إذ تقابل مع كائن يدعي «أيواس» Aiwass

الذي هو بحسب زعمه مستشار أو وزير للإله «حورس»، وقد كان «أيواس» مرشدًا ومعلمًا لـ«كراولي»، كما أملى عليه واحد من أهم وأشهر كتبه الباقية وهو كتاب القانون The Book of the Law الذي رُفع إلي مرتبة نص مقدس لدى المنتمين إلي ديانة ثيلما، التي ابتدعها «كراولي» وروج لها بقية حياته، ووفقًا لرؤيته الخاصة فإن كتاباته وعقيدته الجديدة هي بداية لزمن أو حقبة جديدة من الزمان تجب ما قبلها، وتقوم على مبدأ الحرية الإنسانية المطلقة وقد أسماه كراولي بدهر حورس Æon of Horus

يقسم «كراولي» وأتباعه تاريخ الأرض إلي مجموعة أزمنة متعاقبة، وليس من المدهش ارتباط عقيدة «ثيلما» ومؤسسها وكتابها المقدس بمصر، وهي نفس الملاحظة التي نجدها متوافرةً في سائر المعارف والعلوم الباطنية والسحرية لسبب ما، فكتاب القانون جرى تأليفه وتدوينه في مصر، وخلال ثلاثة أيام متعاقبة -بحسب زعم « كراولي » نفسه- كان لزوجة كرولي إسهام في هذا المؤلف المكون من ثلاثة

أجزاء.

أحاط «كراولي» نفسه برداء من الغموض والظلام التام، وارتبط اسمه بعدة ألقاب اتخذها لنفسه وافتخر بها، كان منها ما يشير إلى قدراته السحرية، ومنها ما يربطه بالشيطان الذي طالما افتخر بعلاقته به مثل:

The Great Beast ٦٦٦

الوحش العظيم ٦٦٦

Perabduro بيرابدرو

Ankh-f-n-khonsu

انكافان خونسو «خونسو إله مصري قديم مدار سلطانه هو القمر»

The wickedest man in the world

الرجل الأكثر شرًا في العالم

كما ترك خلفه تراثًا من المؤلفات التي تحوي خلاصة علومه السحرية وتأملاته، وشرحًا لعقائد وطقوس ديانته الجديدة ثيلما، وقام بصنع مجموعة مبتكرة من أوراق اللعب (التاروت) ولا تزال مستعملةً حتى يومنا هذا، وقد جرب الرجل أيضًا كتابة الشعر، الذي وصفه البعض بأنه بذيء وأنه أكثر السطور إثارةً للاشمئزاز في اللغة الإنجليزية، كان لـ«كراولي» -كما هو متوقع- جانبه السيئ والمظلم تمامًا، وعندما ارتحل إلى صقلية في عام ١٩٢٠م أنشأ ديرًا خاصًا بعقيدة «ثيلما» التي ابتكرها واخترعها من رأسه، ولكن بعد سنوات ثلاث قامت سلطات الجزيرة بطرد «كراولي» بسبب حادثة وفاة لرجل إنجليزي، قيل إنه شارك في طقوس العبادة التابعة للجماعة السحرية، ولا يُعرف ما إن كان الرجل قد مات في أثناء الطقوس عرضًا، أم أنه قد قُدم ضحيةً للشياطين والأرواح المجهولة، التي قال «كراولي» أنها تُملي عليه فلسفته وتعاليمه الخاصة، وقد تسببت تلك الحادثة في تفرق شمل الجماعة وصعوبة وجود مقر ثابت لهم بعد ذلك!

ارتبط «كراولي» أضافة إلي جماعته الخاصة بعدة جماعات سحرية وباطنية يحيطها الغموض وسوء الظن، منها جماعة الفجر الذهبي، مثلما حاول جاهدًا أن يجعل من نفسه نموذجًا للشر والخطيئة في العصر الحديث، وبالإضافة إلى قصة الموت الغامضة التي ارتبطت به وبجماعته السرية، فإنه تباهى علنًا بتضحيات بشرية قام بها طقوسيًا وراح ضحيتها عدد كبير من الأطفال، قيل إنهم مئة وخمسون طفلًا خلال السنة، وأيضًا هو من قام بإطلاق ألقاب (الوحش) ورقم (٦٦٦) على نفسه، وذلك تيمنًا بالوحش الذي يظهر في نهاية الأزمان بحسب رواية سفر الرؤيا الإنجيلي القانوني!

«كراولي» ترك أثرًا بالغًا فيمًا تلا فترة حياته ،ويعتبر مصدر إلهام لعدة عقائد غريبة بعضها ظهر بعد ووفاته أو قبلها، لكن دون وجود دليل على ضلوعه واشتراكه في عملية إيجادها وتأسبيس قواعدها، منها السنتولوجي Scientology التي أرسى قواعدها رون هوبارد» والويكا Wicca ومؤسسها «جيرالد جاردنر».

ولعظيم شهرته، التي طغت تقريبًا على جميع سحرة العصر الحديث، فإن بعضًا من جاء بعده لم يكتفِ باستلهام أفكاره وتنفيذها، بعد وضعها في إطار طقوسي رسمي بشكل مؤسساتي معترف به، بل ادعي أن لـ«كراولي» يد مباشرة في تنظيم وخروج أفكاره إلي النور، وهو الادعاء الذي لم يستطع أحد ممن تبنوه تقديم أي دليل حقيقي عليه، كان «كراولي» رغم شهرته يعمل في حيز ضيق من الأتباع المخلصين، ورغم تبجحه الدائم بأفعاله الشريرة يبدو أنه كان يخشي الملاحقة القانونية في حالة فتحه المجال لكثير من الأتباع الجدد للانضمام إلي جماعته المحدودة، ومن ثمَّ تسربت أسرار اجتماعاتهم وطقوسهم -التي قيل إنها تتضمن ضحايا بشريةً وإراقةً للدماء كقرابين للقوى الشريرة- إلى الخارج ومن ثم وقوعه في مشاكل شبيهة بتلك التي أدت إلى تقويض ديره الأول وطرده من جزيرة صقلية!

تمجد عقيدة ثيلما من الإنسان وتعظم قيمة الفردية، وتجعل من آمال المرء وطموحاته وقرارته ميزان الحكم على صواب الفعل أو خطأه، فالحرية المطلقة هي غايتها، وحرية الإنسان في وضع قوانين خاصة تنظم حياته هو مدار هذه العقيدة

المختلطة، التي تشكل مزيجًا من أفكار وأطروحات «كراولي» الخاصة، والعقائد الشرقية القديمة التي أولع بها الساحر البريطاني المهووس بالشرق وتراثه، لم تمت ثيلما بموت مؤسسها، بل استمرت وإن كانت شعبيتها قد تضاءلت، برغم أنه لا يمكن معرفة عدد معتنقيها أو من يمارسون طقوسها وتأملاتها على نحو دقيق، يقسّم «كراولي» تاريخ العالم إلي ثلاث فترات كبرى:

عصر إيزيس الذي كان في البداية، وهو زمن سيادة النمط الأمومي، وهو العصر الأول والأقدم في تاريخ البشرية.

تلاه عصر أوزوريس والانقلاب الأبوي، وتوغل السلطة الدينية، ومفاهيم التضحية من أجل الإله.

أما العصر الحالي، عصر «ثيلما»، فيسمى حقبة «حورس» وهو عصر الفردية والحرية المطلقة، وإطلاق العنان للفرد للنمو والنضج بحسب اختيارته الخاصة، مثلما حدث مع «حورس»، الذي كان إلهًا مصريًا قديمًا وابنًا لكل من «إيزيس» و«أوزوريس».

كمشابهة في طريقة النشوء، وليس في مجمل الأفكار والتعاليم، يمكن اعتبار الثيوصوفية وعقيدة ثيلما متشابهتين من حيث تأسيسهما في خضم موجة الباطنية والتأثر بالسحر والتراث الشرقي القديم، لكن ثيلما يمكن اعتبارها أكثر شيطانيةً وارتباطًا بالممارسات الرديئة -علنًا على الأقل- من المذهب الفلسفي المعقد لمدام «بلافاتسكي»!

من أطرف ما يُقال عن «كراولي» أنه لعن طبيبه الخاص -قُبيل يوم واحد من وفاته- وذلك بسبب رفض الأخير تجديد وصفة طبية تتضمن المورفين لعلاج نوبات الربو لديه، ويبدو أن الأمر سبب إزعاجًا وألمًا كبيرًا للساحر المجيد، الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وحيدًا مفلسًا في هاستنجز Hastings إنجلترا في ديسمبر من عام ١٩٤٧م، مما دعاه إلي لعن الطبيب بشكل جدي، مات «كراولي» إما في الأول وإما الخامس من ديسمبر هذا، بحسب اختلاف التواريخ، ولحق به طبيبه في اليوم التالي مباشرةً في حادثة أو مصادفة غريبة ومثيرة للتأمل!

«كراولي»، على النقيض من كل من سبق ذكرهم،لم نكن نحن من ألصقنا به تهمة الشيطانية واعتبرناه رمزًا وتجسيدًا للشيطان، بل إنه هو من أعلن ذلك، وكان يتباهى به ويتفاخر على الملأ!

فولكانيلي:
(قاهر الزمان الذي شهد على رؤيته تلاميذه الميتون!)

إذا كان هناك جزء من حياة «نيكولاس فلاميل» أسطوريًا، فإن حياة «فولكانيلي» fulcanelli بالكامل كانت أسطورةً، فالعالم، باديً ذي بدء، لا يعرف على وجه اليقين من يكون «فولكانيلي» هذا، لكنه مع ذلك أشهر خيميائي في العصر الحديث، وربما كان أشهرهم على مدار التاريخ كله!

فولكانيلي: البحث عن الشبح الغامض!

بدايةً، فإن اسم «فولكانيلي» اشتهر وتعاظمت معرفة الناس به، وجدّ الكثيرون في البحث عنه والتنقيب خلف أسراره المظلمة، هذا كله دون أن يعرف إنسان ما على وجه اليقين من هو «فولكانيلي» حقًّا! فهو اسم مستعار لشخصية من أشهر شخصيات علم الخيمياء، بغموضه ودهشته والتباس حياة ممارسيه المحاطة بكثير من الأسرار والمحجوبات، وقد وُصف «فولكانيلي» على أنه لغز من ألغاز القرن العشرين، وبسبب شدة اهتمام الناس به فإن كاتب الجريمة والغموض الأشهر «كولن ولسن» أفرد له فصلًا كاملًا في كتاب (موسوعة الألغاز المستعصية).

اسم «فولكانيلي» هو اسم مستعار لشخص لم تستقر آراء المؤرخين وكاتبي سيرته بعد على حقيقته، منهم من ادعي أنه عالم ومنجم وساحر مشهور، اتخذ هذا اللقب اسمًا زائفًا له، ومنهم من اعتقد أنه نبيل ينتمي إلى عائلة ملكية أو أسرة فالوا، الاسم الصريح الوحيد المتوفر في أسطورة «فولكانيلي» هذه هو اسم تلميذه الوحيد «يوجين كانسليت» Eugène Canseliet، الذي كتب مقدمة الطبعة الأولى للكتاب الوحيد الذي يحمل اسم «فولكانيلي»، مدليًا بمعلومات غريبة وغامضة، حيث أعلن اختفاء سيده الذي بلغ حدود المعرفة القصوى، وقدم إعلانًا غامضًا ومثيرًا قائلًا: (لا فولكانيلي بعد اليوم)!

لكن من يكون السيد كانسليت هذا؟!

إنه خيميائي وكاتب فرنسي، وُلد عام ١٨٩٩م، ونال شهرته حينما صدر مؤلَّف يحمل اسم (لغز الكاتدرائيات) Le mystère des cathedrals بمقدمة روى فيها علاقته بـ»فولكانيلي» الغامض، وأعلن اختفاءه النهائي، الكتاب ظهر في طبعته الأولى عام ١٩١٦م، أي إن «كانسليت» كان في السابعة عشرة من عمره حين نشره، مما يبعد احتمالية أن يكون «كانسليت» نفسه هو المؤلف، وأنه انتحل اسم «فولكانيلي» لسبب ما، أما عن الكتاب فهو يقدم تفسيرًا يربط الكاتدرائيات وتصميمها وأسرار علم الخيمياء، معتبرًا إياها مخازن للمعرفة المنقولة عبر العصور، نفس اعتقاد بعض المؤرخين في الأهرامات المصرية، الكتاب طُبع في ثلاثمئة نسخة، نفدت كلها، وأُعيد طبعه مراتٍ عدةً، إحدى تلك الطبعات كانت في عام ١٩٥٧م، وفيها أعلن أمرًا غريبًا جدًّا، فقد نشر رسالةً من «فولكانيلي» نفسه ينقل فيها إليه فرحته بتحقيقه الحلم العسير، وحصوله على هدية الرب، واستطرد «كانسليت» موضحًا أن المقصود بهدية الرب هو حجر الفلاسفة، حلم الخيميائيين على مر التاريخ، وقمة طموحاتهم الأسطورية.

لكن لا يزال اللغز قائمًا؟ فما هو الاسم الحقيقي لـ»فولكانيلي»؟ ربط البعض بين تلك الشخصية الملغزة عالم الفيزياء «جول فيول» Jules Violle.

مشتبه به آخر هو جوليان شامبين Jean-Julien Hubert Champagne وهو عالم مصريات، له مؤلفات شهيرة، وقد جرت مقارنة عينات من كتاباته مع الكتابات المنسوبة إلى «فولكانيلي»، وأظهرت تطابقًا كبيرًا.

أما «يوجين كانسليت»، الشخص الوحيد الذي عرف «فولكانيلي» عن قرب، فقد التقى بذلك الإنسان اللغز عام ١٩١٦م حين أصبح تلميذًا له، وخلال الأعوام اللاحقة انضم إلى حلقة «فولكانيلي» تلاميذ جدد، منهم أولاد المهندس الفرنسي الشهير، ورئيس شركة قناة السويس فرديناند دي ليسبس Ferdinand de Lesseps، كان آخر مكان معروف لـ»فولكانيلي»، أو للمشتبه به بكونه هو أصل الشخصية المحيرة تلك، في عام ١٩٢٥م قبيل اختفائه النهائي.

المدهش هو حادثة غريبة جدًّا حصلت بعد اختفاء «فولكانيلي» بثلاثين سنة، إذ

رآه تلميذه السابق مرتديًا ملابس نسائية، الغريب حقًا هو أن سن «فولكانيلي» كان ثمانين عاما وقت رؤية «كانسليت» الثانية له، لكنه بدا وكأن يومًا واحدًا لم يُضَف إلى عمره الذي كان عليه وقت اختفائه، أما ارتداؤه ملابس النساء فأمر يرده البعض إلى أحد مراحل تحضير (حجر الفيلسوف) -حلم الخيمياء الأكبر- وهو التخنث، أو الجمع بين الطبيعتين المتناقضتين، طبيعة الذكر وطبيعة الأنثى.

فك التشابك: من هم (فولكانيلي)؟!

في نظرية مدهشة يفترض بعض من كتبوا عن القضية أن «فولكانيلي» هو عدة أشخاص، أو بشكل أوضح هو اسم يقف خلفه مجموعة من الأشخاص، الذين صنعوا ونشروا أسطورة «فولكانيلي».

- أول هؤلاء هو «كانسليت» نفسه، الذي زعم أنه التلميذ الوحيد الذي شاهد «فولكانيلي» بعد اختفاءه، أما الأول فكان يعتقد أن سيده ليس إلا «باسيل فلانتاين» أحد خيميائيي القرن التاسع عشر.

- زوجة «فولكانيلي» يبدو أنها ترتبط بشكل ما بشخصية المعلم الأسطوري المختفي، وبشكل ما يبدو أنها نفس الزوجة التي يتكلم عنها «باسيل فلانتاين»، وفي أحد الرسائل الغامضة يقول «فولكانيلي» أن زوجته هي التي أخبرته بالأخبار السارة، والأخبار السارة هنا تعني التوصل إلى تحضير حجر الفيلسوف.

النازيون يبحثون عن فولكانيلي!

وقا ل «جاك بيرجر» Jacques Bergier، فقد طلبت منه المخابرات العسكرية الأمريكية، بعد سقوط النازي وتحرير باريس من سيطرتهم، أن يتصل بأحد الضباط الذي كانت مهمته دراسة الأبحاث الألمانية حول استعمالات الطاقة الذرية، وقد تم العثور على إشارة لاسم «فولكانيلي» في أحد تلك التقارير، ومن ثم كلّف «بيرجر» بإيجاد الخيميائي المختفي بأي ثمن، لكن كل محاولاته في ذلك الصدد فشلت تمامًا.

غير أن ذلك ألهب اهتمام «بيرجر» بقصة «فولكانيلي» فقرر تتبعها وتدقيقها، وقد نشر «بيرجر»، بالاشتراك مع الصحفي «لويس بولز» كتابًا ضخمًا ومعروفًا، عنوانه

صبيحة السحرة Le Matin des magiciens، الذي ظهر في عام ١٩٦٠م، وفيه تتبع المؤلفان كل ما قيل أو كتب حول لغز «فولكانيلي»، لكن دون التوصل إلى نتيجة حاسمة.

بيد أن ذلك لم يكن نهاية المطاف، فقد ظهر كتاب يحمل عنوان (ظاهرة فولكانيلي) قصة خيميائي القرن العشرين في ضوء دراسة جديدة للتقاليد الهرمسية The Fulcanelli phenomenon: The story of a twentieth-century alchemist in the light of new of the Hermetic tradition لمؤلفه «كينيث راينر جونسون» Kenneth Rayner Johnson، الذي وثق به أسطورة «فولكانيلي» مقدمًا الأدلة على أنه هو نفسه «جان جوليان شامبين»، السالف الذكر، الذي تولى وضع الرسوم التوضيحية لمؤلف «لغز الكاتدرائيات»، وقد ظهرت أدلة على أن «كانسليت» كان يبدي احترامًا كبيرًا تجاه «شامبين»، ولا يخاطبه إلا بألقاب التفخيم والتعظيم، كما كان لدى المشتبه به الأقرب «شامبين» علبة صغيرة بها مسحوق غريب، يستنشقه بعمق معلنًا أن هذا المسحوق السحري يمنحه بصيرةً ومعرفةً، كما أنه يعطيه القدرة على القيام بتجارب الخروج من الجسد، بالإضافة إلى وضع رسوم الكتب، فقد تولى «شامبين» كذلك تصحيح ومراجعة بروفات الكتاب، توفي شامبين عام ١٩٣٢م.

هناك ثغرات كبيرة في نظرية «جونسون» أولها أن «شامبين»، كان على عكس الصورة المعروفة لفولكانيلي، مرحًا وعنيفًا، ومستخفًا بالخيمياء وطموحاتها، ثانيًا أنه إذا كان «شامبين» هو نفسه «فولكانيلي»، فكيف انغمس النازيون في البحث عن الأخير أثناء احتلالهم لباريس، الذي وقع بعد ثمانية أعوام من وفاة الأخير المعلنة (توفي شامبين عام ١٩٣٢م)؟!

اللقاء الأخير!

وفقًا لـ«كانسليت» فقد قُدر له أن يقابل سيده «فولكانيلي» لآخر مرة بطريقة مدهشة عام ١٩٥٣م، حين زار الأول إسبانيا، فتلقى دعوةً إلى قلعة جبلية منعزلة، وهناك التقي بسيده الذي احتفظ بنفس ملامحه، رغم مرور عقود على آخر لقاء

بينهما، لكن الأغرب هو ادعاء «كانسليت» أن «فولكانيلي» صار أقرب فأقرب نحو التخنث المطلق، أو حتى أنه تحول إلى شيء يجمع بين صفات الذكر والأنثى في جسد واحد!

إن لغز «فولكانيلي» له حلان لا ثالث لهما:

- إما أن يكون «فولكانيلي» -مهما كان اسمه الحقيقي- هو أغرب شخصية عرفها القرن العشرون، والخيميائي الوحيد الذي حقق حلم أجيال وأجيال من الخيميائيين، والسحرة في التاريخ المكتوب كله!

- وإما أن يكون ببساطة أكبر خدعة، وأضخم عملية تزوير وتلفيق، تمت على مدار قرون مضت!

الفصل الثالث

الخيمياء والسحر والجريمة

في وسط السجلات والأضابير المكدسة بقصص الجرائم، وحوادث القتل الشنيعة والغريبة، سوف نعثر على مجموعة غريبة التفاصيل من الحوادث والقضايا، جرائم كان سلاح القتل وأداة الإيذاء فيها هي العلوم السوداء الغامضة، رجال ونساء وهبوا أنفسهم للشيطان، فبحثوا عن مصادر القوة واللذة والسيطرة عبر استعمال الأخلاط والوصفات الغريبة، أو استعانوا بأرواح الشياطين وانحازوا لسيد الظلام (الشيطان)، هناك العديد من الجرائم التي ارتبطت بأشخاص تعاطوا السحر الأسود، والخيمياء القديمة بصورتها المشوهة المرعبة، أو قاموا بأعمال مروعة نتيجة محاولات تحقيق طموحات ورغبات يهيمن عليها السحر وتقديس أرواح الشر والحقد، ونفذوا جرائم مرعبةً لتحقيق أهداف وتطلعات ترتبط بهذين العالمين الغامضين، اللذين لا يزالان محاطين بكميات وافرة وسياج متصل من الأساطير والخرافات.

الخيمياء والسحر وجرائم التسميم والمذابح والبشرية!

ارتبطت الخيمياء في أذهان الناس، قبل ظهور صورتها الحديثة المطورة في شكل علم الكيمياء الحديث، بسلسلة من الأوصاف المرتبطة كلها بالسحر، واستعمال وسائل مدهشة لتحقيق المكاسب بكل أنواعها، وكان تحضير السموم أحد تلك الوسائل الغريبة والمفزعة، ومن الضروري الانتباه إلي أن كل من شملتهم تهم خلط وتحضير السموم في العصور القديمة والوسطى، كانوا يتعاطون الخيمياء بشكل أو بآخر.

كما أن السحر برهبته، وارتباطه بالشيطان والأرواح النجسة كان دافعًا لسلسلة من الجرائم المروعة، فقد نُفّذت مذابح وعمليات قتل ممنهجة ووحشية، في بعض فترات التاريخ وكثير من البلدان، بهدف توفير القرابين الدامية لروح الشر القديمة، أو للحصول على مكاسب وفوائد، ترتبط بمبدأ المبادلة والنفعية، فأرواح الشر تبعًا للأساطير لها حاجات يستطيع الإنسان أن يقضيها ويحقق بعضها منها، في مقابل أن تهبه قوًى خارقةً، أو تعاونه في فتح كنوز ودفائن تحوي كنوزًا لا تقدر بثمن.

سنعرض هنا جملةً من القضايا الغريبة والمثيرة التي أُستعمل فيها علم الخيمياء لتصنيع وتحضير وصفات مؤذية ومميتة، وكذا التي ارتبطت بالسحر والشعوذة، وإزهاق الأرواح بغية استرضاء أرواح الشر المتطلبة، والمتعطشة للدماء الطازجة المسفوحة!

روما القديمة:

ليكس كورنيليا يوقف عمل الخيميائيين!

حتى في فترة ما قبل الميلاد استعمل الرومان معرفتهم بالسموم والعناصر المعدنية والثقيلة في تحقيق مكاسب سياسية ومالية، ففي عصر الديكتاتور الروماني «لوسيوس كورنيليوس سولا» Lucius Cornelius Sulla ظهرت مؤامرة غريبة، كانت تتويجًا لسلسلة من عمليات القتل الغامضة غير المكتشفة، حيث تورطت عدة نساء من الطبقات العليا في التخطيط لقتل أزواجهن أو الأوصياء عليهن من الرجال، باستعمال أشهر السموم حينها وهو الزرنيخ arsenic، ويظهر أن المؤامرة كانت ضخمةً إلى حد إن رائحتها وصلت حتى بلاط حاكم روما، ومما يقطع بانتشار وشيوع حالات التسميم في ذلك العصر البعيد، أن قانونًا خاصًا من سلسلة القوانين الرومانية التي تحمل اسم ليكس كورنيليا Lex Cornelia قد صدر عام ٨٢ قبل ميلاد المسيح محددًا العقوبات المنتظرة التي ستحيق بمن يستعمل الزرنيخ في القضاء على حياة الآخرين!

سولا: حاول السيطرة على استعمالات الزرنيخ القاتلة، لكن الزرنيخ هزمه!

تلك هي أول مرة تقريبًا يُذكر فيها الزرنيخ كسلاح شهير، وفعال في القضاء على حياة الأشخاص غير المرغوب فيهم.

غير أن الزرنيخ بصورته المؤذية استمر يهدد حياة الناس في روما، وفي زمن الإمبراطور الشهير كاليجولا شاع استخدام السموم، لكن من قبل الإمبراطور ذاته هذه المرة، كان كاليجولا يلجأ إلي السم على نحو محدود، غير أن أشهر من تلطخت سمعتهم باستعمال السموم على مدار التاريخ الروماني كله كان الإمبراطور «نيرون» Nero وأمه عديمة الرحمة «أجريبنا الصغيرة» Julia Agrippina؛ فقد استعلمت الأم السم أولًا للتخلص من زوجها السابق الإمبراطور «كلاوديوس»، وهو ليس والد ابنها نيرون، ومن ثم نجحت في رفع ولدها على عرش الإمبراطورية الرومانية، ثم حل الدور على ابن القيصر المغدور ووريثه الوحيد «بريتانيكوس»، الذي أغتيل بسم

قيل أنه الشوكران المائي، أو خليط من السموم، ربما أستعمل فيه الزرنيخ أيضًا.

عصر الهيمنة المرعب: الزرنيخ يعيد كتابة التاريخ!

لا شك أن حوادث التسميم العمدي بالزرنيخ تواترت وتكررت خلال الأزمنة القديمة، لكن القرون الوسطي كانت هي عصر الزرنيخ بامتياز!

فتقريبًا كل حالة وفاة مفاجئة لثري أو متنفذ أو صاحب سلطة، أو وصي على أموال، أو زوج أو والد مكروه، حدثت خلال الفترة بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر الميلادي، كان للزرنيخ دور أساسي وفاعل فيها.

قضايا كثيرة جدًا ومذهلة أُستعمل فيها الزرنيخ، والمركبات الكيمائية التي كان إعدادها وتحضيرها مهمة ممارسي الخيمياء السحرية القديمة، ولشدة شيوع وتعدد تلك القضايا سوف نأخذ أكثر الأمثلة شهرةً، وأشدها ضررًا التي حصلت في الفترة المشار إليها.

لكن علينا قبلًا أن نعرف تاريخ الظهور الأول لعنصر الزرنيخ بسميته وميوعة خواصه (لا طعم ولا لون ولا رائحة له)، مما جعل استعماله في القتل يكاد يكون آمنًا تمامًا، يُعرف العالم الألماني ألبرتوس الكبير «ألبرتوس ماجنوس» بأنه والد الزرنيخ، فهو من اكتشفه ووصف خصائصه عام ١٢٥٠م، أي في منتصف القرن الثالث عشر، ويُلاحظ أن استعمال الزرنيخ قبل ذلك كان يتم بمعرفة سميته العالية فقط، دون تمييز بينه وبين سائر السموم والمركبات المميتة الموجودة حينها، لكن الزرنيخ ظل شبحًا مرعبًا ومجهولًا، مجرد سم نصف معروف حتى ظهر والد علم السموم الحديث باراسيليوس Paracelsus، فأعطي له مكانته وحدد موقعه وسط عائلة السموم بدقة، باراسيليوس نفسه لم يكن مجرد عالم، بل كان طبيبًا كما مارس علوم السحر والخيمياء والعرافة أيضًا.

وهكذا بدأت فورة الزرنيخ التي ستصدع أوربا في العصور الوسطي، قضايا لاهبة ومثيرة، وجرائم قتل شنيعة ومنتشرة، ومحاولات حتى لتسميم بعض الملوك ورجال السلطة أنفسهم، كل ذلك مخلوط بقدر كبير من ممارسات السحر والتنجيم

والخيمياء، التي ظهرت بقوة كعلم سحري وشيطاني أحيانًا، وكمعرفة باطنية تتحفظ على أسرار دينية وآلهية لا يجوز الكشف عنها، أو إعلانها للأغيار أو العامة، في أحايين أخرى كثيرة.

جيل دي ريز ودم الأولاد من أجل الخلود!

ليس بعيدًا، قبل ولادة «باراسيليوس» العظيم شهدت الأراضي الفرنسية واحدةً من أشنع وأكبر قضايا التسميم والتضحيات الشيطانية، كانت قضيةً لاهبةً ومروعةً، اختلطت فيها رغبات سادية وشاذة مرضية، بأحلام الخلود والتسلط الشيطاني المرعب، إنها قضية الكونت «جيل دي ريز» التي لا تزال موضعًا خصبًا لقصص الرعب والتحليل النفسي لشخوص أبطالها ومجرميها.

ولد «جيل دي ريز»Gilles de Rais في وقت ما حوالي عام ١٤٠٥م أو قبلها بقليل، يبدو الأمر مفهومًا مع عدم وجود توثيق أو سجلات منتظمة في تلك الأزمان، نحن هنا نتكلم عن القرن الخامس عشر الميلادي، أي عصر شيوع أفكار السحر والشعوذة الشيطانية، المخلوطتان بتعاليم الكابالا ومعارف الخيمياء السحرية البدائية، ويبدو أن «جيل» حمل منذ ميلاده بذور الانحراف والإجرام، برغم أنه نشأ في بيئة أرستقراطية ثرية ومرفهة، غير أن نفس تلك النشأة تشبعت ببوادر مخاوف مرتبطة بالموت والفناء المبكر، فقد خسر «جيل» وأخاه الأصغر رينيه أمهما وأباهما في زمن متقارب، وصار الصبي الأكبر يتيمًا في سن العاشرة، حينذاك تولى جدهما من ناحية الأم كفالتهما وتربيتهما، واهتم الجد بثروة ولدي ابنته، فعمل على تدبير زيجات مخططة لهما من وريثات غنيات جدًا، كانت الزيجات المدبرة أمرًا شائعًا في تلك العصور، وهكذا وجد «جيل» نفسه زوجًا لـ«كاثرين دي ثوارز» من بريتاني، وهو لا يزال في سن الخامسة عشرة!

دخل «جيل» الخدمة العسكرية، وتدرج فيها حتى وصل إلي رتب عالية جدًا، وبرز اسمه في أثناء حرب المئة عام التي اشتبكت خلالها الأمتان الإنجليزية والفرنسية في معارك طاحنة على الأراضي والنفوذ، وهددت كل منهما وجود الأخرى، النقطة الفاصلة في حياة «جيل» حدثت حينما مات جده عام ١٤٣٢م، تاركًا إشاراتٍ تدل على استيائه من إسراف حفيده الأكبر، ونزقه في إنفاق ثروته الطائلة، لكن كيف تحول بارون ونبيل ورجل سلاح كهذا إلي سفاح وجزار شيطاني لا يرحم؟!

بداية السقوط كانت حينما قرر «جيل» إنتاج وعرض مسرحية ضخمة حملت اسم Le Mystère du Siège d'Orléans (سر حصار أورليان) وكان العمل بحاجة إلى تكاليف هائلة جدًا، تكفل بها «جيل» الذي خسر في سبيل ذلك معظم أملاكه وأمواله السائلة، واضطر حتى إلى رهن قلاعه وأراضيه، وانتهى الأمر به عام ١٤٣٥م مُدانًا بقرار ملكي يصمه بالتبذير والعجز عن تدبير أموره المالية، تحصل عليه أقاربه الساخطون، واضطر إلى مغادرة أورليان تاركًا مقتنياتٍ رائعةً وثمينةً قيد الرهن لضمان حقوق الدائنين، ولا أحد يعلم ما الذي فكر فيه «جيل» بالضبط، لكن يبدو أنه قرر استرداد ثروته، أو الحصول على ثروات جديدة عوضًا عنها من خلال استغلال العلوم السوداء والشيطانية، التي كان أهل عصره يؤمنون بها أشد الإيمان، ووفقًا لاعترافاته اللاحقة، قرر «جيل» الاتصال بأحد خيميائيي وسحرة عصره المشاهير، وكان إيطاليًا يحمل اسم «فرانسو بريلاتي»، وحضر الأخير ومعه كتب ومخطوطات توضح طريقة استدعاء أحد الشياطين، ويسمى «بارون»، وهو المهيمن على مصادر الثروة، وراح «جيل»، وعلى مدى ثلاثة أيام يحاول استدعاء الشيطان المذكور دون جدوى، عندئذٍ طالب «بريلاتي» بقربان لاسترضاء الشياطين، وكان في صورة أجزاء محددة من جسد طفل صغير، ولم يتوانَ «جيل» عن تقديم المطلوب، لكن المحاولات كلها فشلت، وبقي «بارون» رافضًا الإصغاء إلى توسلات ساحره الشيطاني وتابعه النبيل الأحمق!

ويبدو أن تلك التجارب الفاشلة كلها، مع ما كان «جيل» يعانيه بسبب خسارته لثروته ونفوذه، وتهديده بالخراب الشامل، قد جعلت نفس الرجل ذي الأصل النبيل تنحدر لتنغمس في مستنقع آسن من الطموحات والرغبات الشريرة.

يشار إلى أن «جيل دي ريز» كان شاذًا منذ بداية بلوغه، لذا فقد كان للأطفال فائدة مزدوجة بالنسبة إليه، فهم صالحون للاعتداء الجنسي عليهم بسهولة، لكونهم يعجزون عن المقاومة أو الدفاع عن أنفسهم، وكذا يمكن استعمالهم كقرابين بشرية لاستدعاء الشياطين المرغوبة، وهكذا بدأت واحدة من أشد الفترات إظلامًا وإثارةً للرعب في تاريخ فرنسا كله، إذ راح «جيل» وتابعيه يخطفون الأطفال ويأخذونهم

إلى قلعته المشؤمة في ماشيكول Machecoul، وهناك كان الطفل التعس يتعرض للاعتداء الجنسي من قبل «جيل» نفسه، وهو موثق بالحبال، ثم يفكونه ويطمئنونه، وبعد أن يهدأ الضحية تمامًا يهجمون عليه ويقتلونه، كانت وسائل القتل شنيعةً، كلها مفرطة في القسوة، مثل كسر العنق أو الذبح أو قطع اليدين والقدمين، وترك الطفل المسكين ينزف حتى الموت، شهادات تدل على درجة الوحشية والسادية المفرطة التي وصل إليها النبيل الفرنسي المتشيطن، فوصف بنفسه كيف كان يستمتع برؤية الأحشاء الداخلية للطفل في أثناء احتضاره، أو يستمتع بالجلوس على بطنه، بينما تعاني الضحية سكرات الموت المؤلمة!

المصير النهائي لجثث الضحايا كان الحرق في مدفأة جناح «جيل» الخاص، بعد تمزيقها إلى قطع صغيرة لتحترق بسرعة، ثم دفنها في عدة حفر وخنادق أعدت لذلك الغرض خصيصى.

غير معروف على وجه الدقة عدد ضحايا «جيل دي ريز»، لكن فورة جرائمه التي استمرت من عام ١٤٣٢م وحتى أغسطس من عام ١٤٤٠م، أي مدة ثماني سنوات متصلة، ولو اعتبرنا أن «جيل» ورفاقه كانوا يقتلون مرةً واحدةً فقط في الأسبوع، فهناك إذًا ما لا يقل عن أربعمئة طفل قد سقطوا ضحيةً لتلك العصابة الشيطانية المرعبة!

السقوط والمحاكمة!

وقع «جيل دي ريز» ومعاونوه في أيدي السلطات يوم ١٥ سبتمبر من عام ١٤٤٠م، وحوكم هو وأتباعه، تدفق الآباء من الفلاحين والبسطاء على المحاكمة، وقدموا عرائض يتهمون فيها النبيل المتوحش بقتل أولادهم، الذين اختفي بعضهم في ظروف غامضة، حُصرت أعداد ضحايا «جيل» بين ١٠٠ إلي ٢٠٠ من الأطفال، لكن بعض من كتبوا عن القضية قد وصلوا بالعدد حتى ٦٠٠ (ستمئة) ضحية بريئة.

لم يكن تدخُّل الشفقة أو النبل واردًا بالمرة في تلك المحاكمة، فصدرت ضد أفراد العصابة أحكام رادعة، تمثلت في الشنق ثم الحرق للمذنبين.

شُنق «جيل دي ريز» عن خمسة وثلاثين عاما تقريبًا صبيحة يوم ٢٦ أكتوبر ١٤٤٠م في جزيرة بيس، ثم قُطع جسده وأحرق، وتبعه بقية المذنبين والمُدانين!

صدعت قضية «جيل دي ريز» فرنسا، وأثرت على سمعة العائلة التي ينحدر منها، والتي لجأت هروبًا من العار والذكرى المشينة إلى تغيير اسمها، لكن العار ظل يلاحقها، مما دفع ببقية أفراد عائلة «ريز» إلى التحول إلي البروتستانتية، ثم الهجرة من فرنسا لاحقًا!

أسرة بورجيا: العائلة الإجرامية الأشهر في التاريخ

قبل ظهور عائلات المافيا وعصابات الكوزانوسترا الإجرامية الشهيرة بزمن طويل، عرف العالم عائلةً غريبة الأطوار، أسرةً يترأسها رجل له منصب ديني رفيع، أكبر وأهم منصب في الغرب الكاثوليكي كله، ومع ذلك فقد انغمست تلك العائلة في أعمال إجرامية، وسلسلة من العلاقات الشاذة وزنا المحارم، بل واشتهرت بسمعتها السيئة في القضاء على أعدائها ومنافسيها باستعمال وصفات السم الغريبة، التي لم يكن أحد غيرهم يعرف سرها أو تركيبتها، كل ذلك كان يتم تحت رعاية ومباركة عميد الأسرة، البابا ألكسندر السادس، سيد العالم الكاثوليكي وكبير بطاركة العالم المسيحي الغربي بجلال قدره!

في سبيل مصالحهم وتعظيم نفوذهم لجأ أفراد أسرة «بورجيا» إلي أشد الطرق وضاعةً، فزينوا أعلامهم بجماجم أعدائهم، واستعلموا وسائل غير شريفة في القضاء على منافسيهم، خليط سري من العقاقير والسموم عرف بسم بورجيا، كانوا وحدهم يملكون سر تحضيره، ولا نقاش في أن آل بورجيا تعاطوا فنون الخيمياء القديمة، التي كان تحضير السموم الغريبة جزءًا لا يتجزأ من مكوناتها، كما أنهم فيما يبدو تركوا وصفةً سحريةً أو تعليماتٍ لتحضير السم النادر الفعال خاصتهم، وربما كانت تلك التعليمات قد أفادت «سانت كروا»، عشيق الماركيزة دو برافليه ومعد وصفاتها السامة لاحقًا!

يرجع أصل عائلة «بورخا» -وهو الاسم الصحيح للعائلة- إلى مملكة أراجون، أي أنهم ينحدرون من أصل أسباني نبيل، وحازت العائلة شهرتها الكبيرة وغير السارة على يد عميدها ومنظرها الأول ألفونس دي بورخا Alfons de Borja، الذي ولد في عام ١٣٧٨م في أراضي مملكة فالنسيا الإيطالية، وكان ألفونس أستاذًا للقانون ونهّازًا للفرص، تدرج في عدة مراتب سياسية ودبلوماسية، قبل أن يتجه إلى السلك الكهنوتي، ويبدو أنه كان يحوز المواهب التي تؤهله للتدرج سريعًا، حتى نال في النهاية خلافة عرش القديس بطرس في روما، فانتُخِب بابا للروم الكاثوليك عام

١٤٥٥م وتلقب بـ«كاليكستوس الثالث» Callixtus III، وقد عاون ألفونس في اشتهار عائلته سيئة السمعة، عندما عاون ابن أخيه «رودريجو بورجيا» -المولود عام ١٤٣١م في فالنسيا- على صعود السلم الكهنوتي وعينه كاردينالا، وفي الفترة التي كان فيها «رودريجو» هذا يخدم الكنيسة اتخذ لنفسه عدة خليلات وعشيقات، إحداهن استمر في علاقته بها أمدًا طويلًا، وأعقب منها أبناءه المشاهير «جيوفاني، سيزاري، لوكريتسيا، وجيوفري»، وكان له أيضًا أولاد من نساء أخريات، كانت سمعة العائلة رديئةً على كل المستويات، فمن فساد مالي وإداري ورشاوَى في سلك الخدمة الرسولية قام عليها الأب «رودريجو»، الذي تمكن في عام ١٤٩٢م من الوصول إلى عرش البابوية في روما تحت اسم «ألكسندر السادس» Alexander VI، إلى علاقات مشبوهة بأسر ودوقات كانوا يتصارعون على الدوقيات والمدن الإيطالية الممزقة، إلى مؤامرات عائلية وتدبير لجرائم قتل لبعض منافسي العائلة، حتى زنا المحارم الذي أُشيع أنه يتم بحرية مطلقة بين ابنة البابا الجميلة «لوكريتسيا» وبين بعض أخوتها، ودون اعتراض من لدن الوالد المبجل، لكن ما يهمنا هنا هو ما يتصل بموضوع كتابنا، وهو الخيمياء، كان للخيمياء والشعوذة دور مهم في حياة عائلة «بورجيا»، حيث كانوا يستهدفون أعداءهم ومنافسيهم بنوع من السموم لم يكن أحد غيرهم يعرف طريقة تحضيره، كان يسمى الكانتاريلا cantarella، وبرغم أن الأسرة استعملت عددًا من السموم الشائعة في عصرها، مثل الزرنيخ والإستراكينين وغيرها، لكن تحضير الكانتاريلا كان لعبتهم المفضلة، ولكن كيف كان ذلك السم يُحضرُ؟ ومن أي المواد؟!

كان آل بورجيا يجهزون أمعاء متعفنةً لخنزير ويغمرونها بالزرنيخ، ثم يتركونها تتفاعل، ومن ثم تأتي مرحلة التصفية وصنع سائل يُخلط بدوره بعدد من المواد الكيميائية القاتلة الأخرى، وبعد تعتيقه يُستعمل ذلك المزيج الفتاك في قتل أعدائهم فورًا، أو تُستخدم جرعات صغيرة منه على مدًى زمني طويل لإحداث عملية تسميم وقتل بطيئة جدًا، وذلك في حالة عدم رغبتهم في الزج بأنفسهم كمشتبه بهم في موت الضحية الفجائي، ثمة تقارير تصف طريقةً أخرى أكثر إثارةً للاشمئزاز لصنع الكانتاريلا القاتلة، وهي إطعام مسحوق الزرنيخ لخنزير، ومن ثم تعليقه في وضع

عمودي وهو يحتضر، وخلال عملية الاحتضار تطفو رغوة بيضاء ملوثة بالسم حول فمه، فيتم كشطها وحفظها لاستعمالها في التسميم، هذه الكانتاريلا الذائعة الصيت كانت لها خصائص مختلفة، فيمكن استعمال جرعاتها لقتل الضحية خلال ساعات أو أيام، أو مزجها بطعامه وشرابه بكميات قليلة جدًا، مما يسمح بعملية تسميم بطيئة وطويلة، غالبًا لن تُكتشف أعراض للسم، إذ أن الزرنيخ -المكون الأساسي لوصفة الكانتاريلا- كان يتميز بأعراض تسمم مصاحبة تشبه أعراض الأمراض المعوية، أو الأمراض المنتشرة حينها كالكوليرا وغيرها.

استمر آل بورجيا في ممارساتهم السيئة، وتلطخت سمعتهم أكثر فأكثر، لكن تشاء عدالة القدر أن يقضي عميد الأسرة وأحد أولاده نحبهما بنفس الطريقة المؤلمة، التي لطالما استعملاها لأعدائهم وجميع من يشكلون خطرًا على سلطتهم الواسعة، فقد هلك «رودريجو بورجيا»، البابا إسكندر السادس المبجل، عام ١٥٠٣م في مدينته روما، وكان يظن أن مرض الملاريا هو الذي قضى عليه، لكن الحقيقة سرعان ما ظهرت، وكانت القصة الغريبة أن كلًا من الوالد الفاسد وابنه «سيزاري» قد تسمما بالكانتاريلا خاصتهما في مأدبة عشاء أعداها لأحد منافسيهم، لكن وبسبب خطأ ما غير متعمد فإن الكؤوس المسممة كانت من نصيب المتآمرين، ومات الأب على الفور، بعد معاناة أعراض التسمم، في حين لجأ «سيزاري» -الذي كان على علم بعلة مرضه الحقيقية، وبأنه لا ترياق ولا دواء لسم عائلته الفتاك- إلى آخر حيلة يمكن أن تنقذه، وهي أن يقحم نفسه في جثة حصان متحللة، وهي حيلة غريبة جدًا، والغريب أن بعض أطباء القرنين السادس والسابع عشر كانوا يعتقدون بنجاعتها وفاعليتها، أما أغرب الأمور على الإطلاق فهو أن الحيلة أفلحت، ونجا «سيزاري بورجيا» من الموت، وعمّر عامين بعد وفاة أبيه، ثم قُتل لاحقًا في حصار قلعة فيانا بنافار.

تمثل سيرة عائلة بورجيا مثالًا فريدًا وخالدًا على ارتباط الشعوذات والخيمياء القديمة -بشكلها الأسود الشرير- بعالم الإجرام، والإضرار العمدي بالآخرين باستعمال الأساليب العلمية، وذلك قبل أن يصير العلم علمًا، وينفصل تمامًا عن السحر والممارسات الخرافية.

قضية التسميم الكبرى:
من ماركيزة خائنة
حتى تهديد حياة ملك فرنسا ذاته!

في كل قضايا القتل والإجرام التي ارتُكبت بواسطة أساليب خيميائية وسحرية قديمة، لن نجد أبدًا قضيةً امتدت أحداثها، وتعاظمت قائمة ضحاياها، وبلغ مرتكبوها حد الفحش والجراءة إلى درجة تهديد حياة ملك عظيم، مثلما جرى في قضية التسميم الكبرى The Affair Of The Poisons، التي استغرقت سنواتٍ طويلةً، وحوكم فيها المئات، وأُعدم منهم أكثر من ثلاثين، وطالت التهم الرهيبة أشخاصًا مرموقين، بعضهم كان من ضمن هيئة البلاط الملكي، وخصوصًا الملك «لويس الرابع عشر» نفسه، كانت تفاصيل القضية تحوي تفاصيل تتعلق بكل من:

1.حالات تسميم متعددة ومتنوعة لرجال وسيدات من الأثرياء، للاستيلاء على ميراثهم، أو تغيير الوصايا وأسماء المستفيدين من التركات بشكل قسري.

2.جرائم خاصة بوصفات السم، وحفلات شيطانية، وقرابين دموية قُدمت من أجل المال والنفوذ والسلطة.

تعتبر قضية التسميم الكبرى نموذجًا فريدًا لاجتماع العلوم السوداء، الخيمياء القديمة والسحر في بوتقة واحدة، من أجل تحقيق مصالح فاسدة وشريرة لأشخاص لا يملكون أدنى قدر من الشعور بالمسئولية الأخلاقية، أو وازع من أي نوع كان!

بداية انكشاف الفضيحة: الماركيزة السفاحة تجر فرنسا كلها إلي الوحل!

بدأت القضية بفضيحة مدوية طالت سيدةً من عِلية مجتمع باريس المخملي، هي الماركيزة دو برافيليه Madame de Brinvilliers، التي تثبّت قيامها بتسميم أبيها وأخويها «أنطوان» و«فرانسوا» عمدًا لتستولي على ميراثهم، كما أن أختًا لها أفلتت من الموت بأعجوبة، بعد أن كادت تلحق بمن سبقوها، ولم تكتفِ الماركيزة القاتلة بتلك الجرائم العائلية، بل تخطتها إلى حد أنها كانت تُجري تجاربها على السم

الغريب، الذي أعده لها عشيقها «جودين دو سانت كروا» في المستشفيات التي تعج بالفقراء والمساكين، أي إنها كانت تزور تلك المستشفيات تحت غطاء البر والإحسان، وتقدم الوصفات المسمومة للفقراء المرضي لتتأكد من فاعلية السم وقدرته على القتل، بعد توجيه التهم رسميًا إليها هربت المرأة إلى بلجيكا، وهناك أُوقع بها، وأُعيدت إلى باريس لتلقى محاكمةً مشهودةً عام ١٦٧٥م، فادينت بجميع التهم المنسوبة إليها، ومن ثم عُذِّبت، كما جرت العادة في ذلك الزمان، وقُطع رأسها وأُحرق جثمانها على السارية.

كانت تلك البداية فحسب، لأن حالات التسميم التي قامت بها الماركيزة السفاحة مع عشيقها جعلت الأنظار تتجه نحو سلسلة من حالات الموت السريع الغامض لعدد من ثراة ونبلاء فرنسا، وظهرت مخاوف أن تكون هناك فورة في جرائم التسميم تحدث في البلاد، كان الزرنيخ هو وسيلة القتل الشائعة حينها، وقد عُرف بمسحوق الميراث inheritance powder، لأن الورثة المتعجلين، أو الذين سيحصلون على نصيب ضئيل من الإرث في حالة الموت الطبيعي لصاحب الوصية، كانوا يستعملونه في التخلص ممن يحولون بينهم، وبين التقام النصيب الأكبر من الثروات، وحتى جزئية التسميم نفسها كانت ثانويةً وبسيطةً إزاء ما سيتكشف فيما بعد!

فقد ظهرت أدلة على أن بعض النبلاء لجأ -في سبيل تحقيق طموحاتهم- إلى السحر والشعوذة والطقوس الشيطانية المرعبة، حينذاك ظهر اسم جديد في أفق القضية «ماجدولين دو لاجرانج»، امرأة اتُّهِمت في قضايا تزوير وقتل، ولإعفاء نفسها من أن تُساق إلى الموت وحدها أرادت أن تخفف عقوبتها بالزج بمتهمين آخرين في القضية، بدأت «ماجدولين» تعترف على عدد لا يُحصى من الشركاء، كانوا كلهم من السحرة والخيميائين والقابلات، وكانت التهم تشمل بيع السموم، والعرافة، والتنجيم، وعقد جلسات لعبادة الشيطان، تضمنت تقديم أضحيات وقرابين من الأطفال، الذين كان يتم الحصول عليهم من خلال الأمهات غير المتزوجات والساقطات، اللائي يتخلين عن أطفالهن لنساء أخريات يقمن بتربيتهم لقاء أجر، وهو ما كان يُعرف بمزارع الأطفال، قائمة المتهمين كانت مرعبةً وشملت: دوقاتٍ وكونتيساتٍ، ثم تعاظم البلاء بظهور تورط لبعض رجال البلاط أنفسهم، وحتى عشيقة الملك المقربة

«مدام دي مونتسبان» ضمن الأسماء المتهمة بشراء، والاستفادة من خدمات الجماعة الشيطانية، أشد ما ظهر من تهم كان الادعاء بأن بعض أعداء الملك «لويس الرابع عشر» قد قرروا تسميمه والتخلص منه، عن طريق تقديم عريضة مضمخة بنوع خاص من السموم إليه، كان ذلك السم فريدًا من نوعه، ويقتل عن طريق التشرب من خلال مسامات الجلد!

كان إعلان تلك الفضائح كلها يعني حرفيًا وضع النظام الملكي الفرنسي كله في ورطة خطيرة؛ لذا كان التكتم مطلوبًا، وقد عاون «كولبي» وزير الملك في السيطرة على انتشار الفضيحة.

عُقدت للمتهمين محكمة خاصة عُرفت بالغرفة الساطعة Chambre Ardente، وصدرت الأحكام بعد ثلاث سنوات من التحقيقات والمحاكمات، انتهت المحاكمة عام ١٦٨٢م بسلسلة من أحكام الإعدام طالت أربعةً وثلاثين شخصًا، فيما عدا أحكام السجن والنفي ومصادرة الأموال.

كان لقضية التسميم أثر كبير ليس على النظام القضائي الفرنسي فقط، بل لقد أفرزت الأحكام وما تلاها من سقوط وفضائح وتحطيم لعائلات نبيلة عداواتٍ وحزازاتٍ ومكايد شخصية، أثرت في مستقبل الملكية الفرنسية كله!

جرائم الفأس:

اللغز الذي يحير أمريكا منذ مئة عام!

السحر والقتل والفأس!

بدايةً من عام ١٩٠٩م وحتى ١٩٢٠م شهدت الولايات المتحدة سلسلة جرائم مروعة، عُرفت بمذابح الفأس axe massacres، هذه السلسلة من المذابح هي الأكثر إثارةً للدهشة والعجب حتى يومنا هذا، وتبقى بدون حل مقبول، برغم مئات التحقيقات، وعشرات الكتب التي وُضعت كلها لحل هذا اللغز المدهش.

جمع بين هذه الجرائم عدةُ نقاط:

1.تركزت الجرائم في ولايات لويزيانا وتكساس.

2.تمت جميع المذابح ضد عائلات كاملة (كان يتم قتل الرجال والنساء والأطفال).

3.لم تنجُ أي ضحية في مسرح الجرائم إلا في حالات نادرة جدًا.

4.لم توجد أبدًا أي دلائل على المقاومة، برغم وجود رجال أقوياء، ونساء في سن الشباب ضمن القتلى.

5.لم يتم الإيقاع بالقاتل مطلقًا.

6.جميع المشتبه بهم في تلك الجرائم تمت تبرئتهم، أو سجنهم لفترات قليلة، أو لم يُعثر على دلائل كافية لإدانتهم.

7.لم تقترن الجرائم بنهب منقولات ثمينة من المنزل المنكوب، ونادرًا ما سُرقت أموال، بل كان كل شيء يُترك في مكانه.

8.وأغرب نقطة أنه لم تحدث حالة استغاثة، أو محاولة واحدة للهرب، ولم يحصل أبدًا أن سمع الجيران أصوات استغاثة، أو معارك أثناء تنفيذ الجرائم.

9.والحل الذي ظهر عام ١٩١٢م كان مرعبًا، أكثر من بقاء الجرائم غامضةً، والكارثة أن المعترف الوحيد بالجرائم كان محالًا تصديق قدرته على إتمام هذه المذابح المروعة،

كما أن حوادث القتل بالفأس استمرت خلال بقاء المعترف الوحيد في السجن!

10.إنه لغز لا يزال يحير أمريكا حتى اليوم، وبعد فشل كل الحلول المنطقية، عاد البعض إلي تصديق فكرة السحر والقرابين الدموية، مثلما صدقها من عاشوا في تلك الفترة.

11.فأين هي الحقيقة؟!

12.القصة الأولي: الكلاب تطارد الزنوج!

13.الحادثة الأولى المسجلة، ضمن سلسلة القضايا الملغزة هذه، وقعت عام ١٩٠٩م، في يوم السبت ١٣ نوفمبر، وتبدو القصة مختلفةً قليلًا عما تلاها من قضايا، لكنها لا تزال مرتبطةً بها بعاملين مهمين:

14.أنها وقعت في نفس نطاق الجرائم التالية وبنفس الطريقة.

15.وأنها تضمنت أيضًا قتلًا جماعيًا، يشمل كل أفراد الأسرة دون تمييز.

«إدنا أوبلوساس» Edna Opelousas هي سيدة تنتمي إلى عائلة شهيرة، تم تسمية مدينة Opelousas باسمها، زنجية ولها ثلاثة أطفال، وتعيش مع أولادها وحدهم في الحي الزنجي بمدينة راين/ لويزيانا Rayne, Louisiana، أكبرهم بعمر التاسعة وأصغرهم أربع سنوات فقط، وقد تعرضت لاعتداء وحشي من طرف رجل أسود -بحسب ما ذكرته الصحف العائدة إلي تلك السنوات- في الصباح الباكر، ومن ثم قام بقتلها مع أولادها، فر الجاني هاربًا، وبعد عدة ساعات انطلق مائتا رجل مسلح ومعهم كلاب مدربة لتقفي أثره، وأثناء التحقيقات جرى توقيف امرأتين (من الزنوج أيضًا) للاعتقاد في أنهن رأين ما حدث، وبرغم أنهما مجرد شاهدتين، فقد كان هناك احتمال أن يجري شنقهما دون محاكمة! (لا تنسَ القوانين العنصرية حينها)!

اشتملت هذه الجريمة على تفصيلة مهمة ومميزة، وهي أن الجيران سمعوا صوت استغاثات الأطفال، قبل أن يهرعوا ليجدوا المشتبه به يسرع بالهروب، ماتت الأم فورًا، أما الأولاد فقد جرت محاولة إسعافهم، لكن أكبر الأطفال، فتاة في التاسعة، ماتت في فترة ما بعد الظهر، ولحق بها أخوتها متأثرين بإصاباتهم الجسيمة، ترك

القاتل الفأس الدامي أداة الجريمة في موقع الحادث، تمامًا مثل بقية الحوادث اللاحقة!

لا توجد أي إشارات أخرى حول القضية، وإذا ما تمت إدانة أحد بها أم لا، لكن المؤكد أن خبر القبض على مرتكب الجريمة كان سيُنشر على نطاق واسع!

برغم بعض مظاهر الاختلاف مع الجرائم اللاحقة، فإن هناك عدة نقاط تشابه، أهمها هو ترك سلاح الجريمة في مسرح الحادث، واستعمال الفأس، وقتل جميع أفراد الأسرة في وقت واحد.

من الممكن أن تكون هذه الجريمة بدافع السرقة، أو الانتقام، أو ربما كانت تدريبًا أوليًا لمرتكب الجرائم اللاحقة، أما عن كون الفاعل من الزنوج -مثلما شهد الجيران- فقد يكون ذلك دليلًا على كون الجريمة بدافع شخصي، أو أن يكون له مغزًى خطير، يربطه بالحقيقة المرعبة، التي تكشفت بعد ثلاثة أعوام فقط، أي في عام ١٩١٢م.

بعد هذه الجريمة أخذ القاتل -إن كان واحدًا في كل الجرائم- هدنةً دامت أربعة عشر شهرًا، ليعود ويضرب من جديد، ويخلف سبع ضحايا في خلال أسابيع قليلة، المقلق هو بداية ظهور ما يشبه (العلامات الطقسية) في كل جريمة، وتبدأ القصة في التصاعد، مع تحول الجاني ليشمل نشاطه منطقةً أوسع، ويغير من نوعية ضحاياه من الزنوج إلى البيض، وإلى حصد عدد أكبر وأكبر من الضحايا.

القصة الثانية:

القتل الطقوسي

وخدمات ما بعد الموت للضحايا

بعد فترة هدوء cooling-off period تجاوزت العام، عادت جرائم القتل الجماعي بالفأس تروع مدن وولايات جنوب الولايات المتحدة، ففي منتصف فبراير من عام ١٩١١م ضرب القاتل المجهول ضربةً ثلاثيةً، حينما دخل متسللًا من النافذة الخلفية لمنزل عائلي، يقع في الحي الملون من مدينة تسمي كراولي Crowley، وفي الداخل كان هناك ثلاثة أشخاص، رجل اسمه «والتر جي بايرز» Walter J. Byers، وزوجته وطفلهما الصغير، وبدون رحمة هشم القاتل رؤوس الثلاثة بالفأس، اخترقهم بضربات قاسية للغاية، ثم فر بعد أن ترك دليلين مهمين، ومقلقين جدًا: سلاح الجريمة وهو يقطر دمًا فوق الأرض، والجثث وقد تموضعت بشكل عمدي، يبدو أن القاتل قام بتسجيتها في الفراش بشكل مقصود، لم يكن هناك شيء مسروق أو مفقود أيضًا!

لم يمضِ سوى أسبوعين ووقع الحادث الثالث، عائلة «أندروز»، المكونة من أربعة أفراد، الأب «ألكسندر أندروز» Alexandre Andrus وزوجته «ميمي» وطفلاهما «يواكيم» و«أجنيس»، في السابعة من صباح يوم ٢٤ فبراير (أي: بعد ثلاثة عشر يومًا بالضبط من الحادث السابق)، وُجدوا كلهم مقتولين في أسرتهم، سلاح الجريمة كان الفأس أيضًا، ويبدو أن القاتل قد قضى وقتًا طويلًا في مسرح الجريمة، إذ قام بصف جثتي الأب والأم بجانب السرير، في وضعية مشابهة لوضعية الصلاة، أما الطفلين فقد تم وضعهما أمام جثتي الأبوين، بشكل يجعل الطفلين وكأنهما قربان موضوع فوق مذبح!

مرةً أخرى لم تكن هناك سرقة من أي نوع، كما لم يسمع الجيران أصوات استغاثة، كان منزل شقيقة «ميمي» يقع تمامًا بجوار منزل أختها، وبالطبع كانت لتهرع لنجدة العائلة لو أنها سمعت أي استغاثة أو صراخ صادر من منزل الضحايا!

هنا بدأت الحاسة الأمنية لشريف مدينة لافاييت «لويس لاكوست»Louis LaCoste تتحرك، وظن من دراسة مسارح الجرائم الثلاث أن القاتل -خصوصًا في الجريمتين الأخيرتين- واحد، وكان ثمة مشتبه به مجنون اسمه «جاركون جوفري» Garcon Godfry (لاحظ فكرة ربط هذه النوعية من الجرائم بالمضطربين نفسيًا وعقليًا دائمًا!).

في الجرائم الثلاث -ولكون الضحايا كلهم من السود- فقد اعتقد المحققون أن القاتل أيضًا أسود البشرة.

لكن هل هذه هي الحقيقة؟!

بعد شهر واحد، وفي يوم ٢٢ مارس من نفس العام سقط للسفاح حامل الفأس خمس ضحايا في ليلة واحدة، «لويس كاساواي» Louis Cassaway وزوجته وأولادهما الثلاثة، في بيتهم الواقع خارج لويزيانا، تم قتلهم في أسرتهم بواسطة ضربات من فأس، وفي تفصيلة مهمة وُجد أن زوجة السيد «كاساواي» من البيض، وهنا تم وضع ذريعة جديدة للجرائم، بأنها موجهة ضد العائلات المختلطة، التي تضم أفرادًا من العرقين الأبيض والأسود معًا، وفي تلك المرحلة ظهر اسم سيكون له شأن مهم في الوصول إلى الحل الأصعب للغز مذابح الفأس هذه، رجل أسود، سيىء الطباع وسكير، وله سجل حافل بالمشكلات والتعديات، «ريموند بارنابيت» Raymond Barnabet، والذي كان أبًا لولد هو «زيفرين» وفتاة هي «كليمنتين بارنابيت»، ويبدو أن علاقة «ريموند» بسائر الناس كانت سيئةً، فقد تقدمت صديقته بالشهادة ضده، بعد القبض عليه، كما أن ولديه شهدا ضده في المحكمة، وشهد «زيفرين» أن أباه أخبره أنه قتل عائلة «أندروز» كلها، بينما وصفت «كليمنتين» مشهد عودة والدها ذات ليلة ملطخًا بالدماء، سرعان ما أُدين «ريموند»، استنادًا إلي شهادات الشهود، وسجله السابق المشين، وأُعلن مذنبًا في أكتوبر ١٩١١م، لكن وفي الشهر التالي مباشرةً، وبينما كان المتهم الوحيد في السجن، وقع حادث أكثر خطورةً، وامتلأت مدينة (لافاييت) بجو من الرعب والفزع، وعُقدت اجتماعات عامة، وبدأ الكثيرون ينامون وأسلحتهم بجوارهم، ففي يوم ٢٧ نوفمبر وقعت مذبحة عائلة

«راندال»، الزوج «نوربرت»Norbert Randall أطلقت عليه رصاصة في الرأس أولًا، ثم هُشّم رأسه بواسطة فأس، أما الزوجة «أزيما» والأولاد الأربعة فقد ضُربوا بوحشية بالفأس، كانت أعمار الأطفال تتراوح بين ٨ أعوام وسنتين، هذه الجريمة تشابهت مع سابقاتها في العثور على سلاح القتل متروكًا في مسرح الجريمة، وعدم وجود سرقة، لكن كانت هناك تفاصيل جديدة، فقد شوه القاتل وجوه الأطفال بعد موتهم (يقول البعض أن هذه كانت مجرد شائعة محلية)، كما قام بغسل الفأس جزئيًا قبل رميها داخل المنزل، ثار السكان المحليون، مع تعاظم الرعب، وطالبوا الشرطة بتحركات أكبر، اقتحمت الشرطة منزل عائلة «بارنابيت» وفتشته بعناية، فقط ليكتشفوا الاكتشاف المروع الأول في تلك القصة، وظهر أخيرًا، المشتبه الأول الحقيقي في هذه السلسلة من القضايا، كما ظهر سبب مرعب ومخيف لكل هذه الجرائم الدامية المتتابعة!

القصة الثالثة: التضحية!

زادت ثورة الناس ولغط الرأي العام كثيرًا، خاصةً بعد تعاظم جرائم الفأس الغامضة، وتضخم عدد ضحاياها، دون تقديم جانٍ حقيقي ومؤكد إلى العدالة، ومع وقوع مذبحة عائلة «راندال» تبين أن «ريموند بارنابت» لا يمكن أن يكون هو الفاعل في كافة هذه الأحداث الدامية، لكن شبهةً قويةً برغم ذلك كانت تربطه بها، فتم دهم منزل عائلته وتفتيشه بعناية، فوُجدت على الفور دلائل غريبة، ملابس ملطخة بالدماء، عليها دماء وفتات أدمغة بشرية، كانت الثياب تخص امرأةً وليس رجلًا!

كما أن باب إحدى غرف المنزل كان عليه آثار دماء من الخارج، كان الباب يؤدي إلى غرفة «كليمنتين بارنابت»، مثلما كانت الثياب تخص نفس الفتاة، ابنة «ريموند بارنابت»، التي لا يزيد عمرها على سبعة عشر عاما!

وهنا ظهر مشتبه به جديد وغير متوقع إطلاقًا في قضايا القتل الجماعي بالفأس، وهي «كليمنتين بارنابت» Clementine Barnabet، مجرد فتاة مراهقة، قُبلت شهادتها ضد أبيها في أثناء محاكمته، رغم أن قبول شهادة قاصر كان غير قانوني، لكن تاريخ البنت الغامض كان مميزًا جدًّا!

كانت «كليمنتين» قد وُلدت عام ١٨٩٤م -على أصح الأقوال- ولديها شقيق واحد هو «زيفرين بارنابت»، وقد تعرض الأخوان إلي سوء المعاملة من قبل الأب، وانتقلا برفقته من مسقط رأسهما (مارتنفيل) إلى مدينة (لافاييت) عام ١٩٠٩م (نفس العام الذي بدأت فيه موجة الجرائم)، وكانت «بارنابت» مضطربةً دينيًا، فانتسبت إلي تجمع ديني غريب يسمى كنيسة التضحية The Church of Sacrifice، وهي تجمع بين العقائد المسيحية وطقوس الفودو السحرية، التي تنتمي أصلًا إلى غرب إفريقيا، وأتت مع العبيد الذين تم جلبهم للعمل في العالم الجديد، تحت سياط تجارة الرق، كانت كنيسة التضحية تقوم على فكرة تقديم قرابين أو ضحايا بشرية، كما كان روادها يؤمنون بامتلاكهم قوًى خفيةً، عبر مرورهم باختبارات وطقوس معينة، وقد زعمت الفتاة أن كاهنةً من كهنة كنيستهم المنحرفة قد منحتها شرابًا سحريًا يجعلها خفيةً، ولرغبتها في الخلود خططت «كليمنتين» لتقديم ضحايا بشريةً إلى الآلهة،

وأقرت بأنها كانت تدخل المنازل المستهدفة من خلال تسلق الجدران حتى النوافذ، ثم تهاجم ضحاياها في أثناء نومهم، فتضربهم بالفأس ضرباتٍ سريعةً ومتتابعةً، لتجهز عليهم تمامًا، قبل أن تقوم بترتيب أجساد القتلى في أشكال وأوضاع تطابق طقوس التضحية التي تؤمن بها!

ارتاعت السلطات من اكتشاف هذه الحقيقة، وصرخت الصحف اليومية بالأخبار، وتحولت القضية من (رجل الفأس) **axeman** إلى (امرأة الفأس) **axewoman**!

وفورًا تحفظت السلطات على «كليمنتين بارنابت»، بينما تم إطلاق سراح الأب، بعد ثبوت عدم ضلوعه في سلسلة الجرائم تلك، لكنها عادت وزعمت بأن والدها وأخاها كانا من بين أتباعها، فأعيد الأب إلي السجن، أما «زيفرين» فلا يوجد ذكر لما تم بشأنه، أُدينت «كليمنتين بارنابت» بخمس وثلاثين جريمة قتل، بحسب اعترافاتها، وحُكم عليها عام ١٩١٢م بالسجن مدى الحياة، في العام التالي ١٩١٣م حاولت الفرار من السجن، إلا أنها فشلت في ذلك، لكن الأحداث المدهشة تواترت بدون توقف:

1.أطلق سراح «كليمنتين» عام ١٩٢٣م، أي بعد أحد عشر عامًا على سجنها دون سبب معلوم، واختفت تمامًا لاحقًا، فلم يُعرف أبدًا أين ذهبت بعد خروجها من السجن، أو ماذا كان مصيرها!

2.كان من المفترض أن تتوقف جرائم الفأس، بعد تأكد وجود القاتلين المحتملين «كليمنتين» و»ريموند بارنابت» في السجن، لكن المدهش أن مزيدًا من الجرائم وقعت وبنفس الطريقة!

3.اشتبهت الشرطة في (الأتباع) المحتملين لكنيسة التضحية، الذين ادعت «كليمنتين» أنهم ينفذون تعليماتها، ولكن بعد الإيقاع بمعظم هؤلاء الأتباع وقعت جرائم جديدة!

فهل قام بالجرائم الجديدة بعض أتباع «كليمنتين»، الذين أفلتوا من تعقب الشرطة، أم أن الحقيقة كانت أكبر من ذلك؟!

وهل بمقدور امرأة، مهما بلغت قوتها الجسمانية، أن تقوم بهذا العدد من الجرائم،

وثوجه إلى ضحاياها هذا الكم من الضربات، التي بلغ من قوتها أحيانًا أن كادت تفصل الرأس عن الجسد، وقصمت العمود الفقري لبعض الضحايا؟!

هل كانت «كليمنتين» مجرد فتاة مخبولة وقعت تحت سطوة قاتل أو قتلة أكثر خطورة مما توقعت قوات إنفاذ القانون؟ وهل «زيفرين بارنابت» -كما يشك البعض- هو رجل الفأس الحقيقي؟!

من الطريف أن مصير «كليمنتين بارنابت» ظل مجهولًا بشكل كامل قرابة القرن، حتى ظهر في عام ٢٠٠٢م حساب لامرأة على شبكة الإنترنت باسم voodoogal١١، وادعت أن «كليمنتين» كانت جدتها الكبرى، وكانت تحكي لها ولأخوتها الكثير عن جرائم الفأس القديمة، ومن المدهش -لو صحت قصة الحساب المجهول- أن تكون «كليمنتين» قد حصلت على هبة العمر الطويل التي ضحت بعشرات الأرواح لأجلها، فقد ماتت عن عمر يناهز مئة عامٍ وأربعة (١٠٤) في عام ١٩٩٨م!

وسواء صحت قصة مصير «كليمنتين بارنابت» وحياتها الطويلة الغامضة أم لا، فإن مذابح الفأس تواصلت، بل وأصبحت أكثر بشاعةً وراح عدد الضحايا يتصاعد بجنون!

وخلال سنوات قلائل ظهر مشتبه بهم آخرون، ولكن برغم احتمالية كذب قصة «كليمنتين بارنابت»، التي أثبت الفحص الطبي غداة القبض عليها أنها مضطربة عقليًا ونفسيًا، فإن (لمسة السحر) والأعمال الشيطانية ظهرت بوضوح في الجرائم التالية!

القصة الرابعة

الصدمة

(الجريمة الأكثر بشاعةً على الإطلاق)

في يناير ١٩١٢م، وبينما كان المتهمان الرئيسيان في قضية القتل بالفأس، «ريموند وكليمنتين بارنابت» يشرفان السجن بطلتهما الفاتنة، وقعت جريمتان أخريتان أشد ترويعًا وإثارةً للهول من سابقتهما، ولم تظهر فيهما فقط طقوس غريبة، بل كذلك إرهاصات مقلقة لاستنزاف الدماء وتقديم الأطفال قرابين لقوًى شيطانية، عائلة وارنر Warner family، الأم وأطفالها الثلاثة، قُتلوا بضربات الفأس، ثم رتب القتلة جثث ضحاياهم بحيث تتقابل وجوههم على سرير واحد، نقول: «قتلة» لأن آثار الأقدام على أرض الفناء الرطبة -الذي يقع خلف المنزل- أشارت بوضوح إلى وجود أكثر من مقتحم للمنزل!

ولاحقًا وخلال يومين وقعت الجريمة الثانية، عائلة بروسارد Broussard family، المكونة من الأب «فيليكس بروسارد» وزوجته وثلاثة أطفال، بنتين وولد واحد، تعرضوا لمذبحة مروعة، لم يكتفِ القاتل بتحطيم رؤوسهم بالفأس وحسب، بل تعامل أيضًا مع الأطفال بشكل غريب، يشي بأن ثمة تضحية بشرية لقوًى شريرة جرت هناك، ففي مسرح الجريمة عثر المحققون على دلاء مُلئت بدماء الأطفال وتُركت فوق أسرتهم، كما تم إبعاد أصابع الأولاد الصغار عن بعضها، وتثبيت لفائف صغيرة من الورق بدبابيس في الفرجات بينها، وفوق كل ذلك وُجدت رسالة مكتوبة فوق الجدران، استشهاد قيل إنه يرمز إلي الآية الثانية عشرة من المزمور التاسع من سفر مزامير داود (*لأَنَّهُ مُطَالِبٌ بِالدِّمَاءِ. ذَكَرَهُمْ. لَمْ يَنْسَ صُرَاخَ الْمَسَاكِينِ.*) كما وُجدت عبارة محيرة Human Five مكتوبة أيضًا فوق جدران منزل العائلة المنكوبة، ولدى اكتشاف الجريمة الجديدة حدثت ثورة لدى الرأي العام، وفورًا وُجهت أصابع الاتهام نحو ممارسي الفودو، وظهر أن ثمة حقيقة مخيفة أكبر بكثير من مجرد طائفة سرية مخبولة تمارس لونًا من العبادات الوثنية الشريرة، التي تتطلب إراقة دماء بشرية كتضحية، ومرةً أخرى ظهرت الحقيقة الغريبة في مسرح

الأحداث: كيف يُقتل خمسة أشخاص دون أي مقاومة أو محاولات للاستغاثة؟!

لم تكن تلك نهاية المطاف، فقد اعتقلت الشرطة عدة مشتبه بهم، كلهم على صلة ما بكنيسة التضحية، أو حضروا اجتماعاتٍ لها على الأقل، وبرغم وجود أكثر من مشتبه به -سوي عائلة «بارنابت»- فإن الإدانة المؤكدة لم تلحق بأحد أبدًا، وبقيت جريمة عائلة «بروسارد» لغزًا مثل الجرائم التي سبقتها!

ولم يكد الناس يلتقطون أنفاسهم حتى وقعت الجريمة الجديدة، التي احتوت على دلائل محيرة ومخيفة مثل الجرائم السابقة، فقد قُتلت عائلة بيرتون **Burton family** يوم ١٢ إبريل عام ١٩١٢م، جاءت خادمتهم تطرق بابهم صباحًا، وعندما لم تجد أي رد على نداءاتها، تطلعت من خلال نافذة مفتوحة، فقط لتجد أمام وجهها ستارة ترفرف وهي ملطخة بالدماء!

جاءت الشرطة، ووُجد الأب «وليام» وزوجته في غرفتهما، مضروبين بالفأس حتى الموت، لكن القاتل لم يكتفِ بذلك، بل أغمد سكاكين تُركت مقابضها بارزةً في ظهري الضحيتين، وفي غرفة الأطفال كان ولدي «بيرتون» مضروبين حتى الموت على الرأس، وفي نفس الغرفة وُجد شقيق رب العائلة قتيلًا أيضًا، ونصل السكين مغمد ومكسور في ظهره!

لاحقًا وفي نفس العام، وقعت واحدة من أهم وأشهر مذابح الفأس في التاريخ، والتي حوت تفاصيل جديدةً ومميزةً، كما تم العثور على دليل مختلف وغريب عن مسرح الجرائم السابقة كلها: أعقاب سجائر في العلية تشير إلي قاتل أو مجموعة من القتلة اختبأوا هناك، ريثما تخلد العائلة إلى النوم ليصبح في الإمكان الإجهاز عليهم في ضربة واحدة!

ليلة ١١ يونيو ١٩١٢م، في منزل يقع ببلدة فيليسكا **Villisca** جنوب ولاية أيوا الأمريكية كان هناك ثمانية أفراد، ستة من عائلة مور **Moore family**، بما فيهم الأبوان «جوشوا وسارة»، وأربعة أطفال هم «هيرمان وماري وآرثر وبول مور»، بالإضافة إلي ضيفتين، «آنا ماي ولينا جيرترود»، وهما فتاتان دعتهما سيدة المنزل للمبيت في بيتهم، وذلك بعد عودة عائلة مور وضيفتيها من الكنيسة المشيخية في

التاسعة والنصف مساء يوم ١٠ يونيو.

عاد الجميع إلى المنزل وأخلدوا إلى النوم مبكرًا، مثلما كانت العادة في تلك السنوات المبكرة من القرن العشرين، وكالعادة أيضًا كانت عائلة «مور» تصحو مبكرًا، وتتجه إلي أعمالها وشؤونها في ساعات الصباح الأولى، غير أن ذلك لم يحدث، وعندما دارت الساعة في السابعة صباحًا قلقت جارتهم «ماري بيكهام»، فطرقت الباب لكن لم يجبها أحد،عند ذلك ذهبت لتستدعي شقيق السيد «مور»، جاء الرجل وطرق الباب ونادى عدة مرات، ومع الصمت المطبق قام بفتح الباب بنسخة من المفتاح كانت بحوزته، وعندما بدأ بتفتيش المنزل وجد جثتي الفتاتين «ماي وجيرترود» مقتولتين في غرفة الضيوف، فاستنجد بـ» ماري بيكهام» لتستدعي الشرطة.

جاء الضابط «هانك هورتون»، وراح يفتش المنزل من أعلاه إلى أسفله، فوجد جثتي الزوجين «مور» في غرفة النوم الرئيسة، أما الأطفال الأربعة فكانوا قتلى في غرفهم، كانت طريقة القتل واحدةً: تهشيم الرأس بالفأس!

لكن الأب «جوشيا مور» تلقى أكبر عدد من الضربات، إلى حد تهشم وجهه، وخروج مقلتي عينيه من محجريهما، ولم يتم العثور عليهما قط!

دلت الدلائل الأولى أن القتلى جميعًا بوغتوا بالهجوم أثناء نومهم، فلم يتسنى لهم الدفاع عن أنفسهم، عدا «لينا»، ضيفة السيدة «مور» التي وُجدت جثتها في حالة تؤكد أنها دافعت عن نفسها، كما يبدو أنها تعرضت لاعتداء جنسي أثناء عملية القتل، إذ كانت ملابسها مسحوبة عن أجزاء حساسة من جسدها.

سلاح الجريمة كان هناك، فأس يعود إلى رب المنزل، وكان هناك أيضًا دليل مقلق: عبارة عن بقايا سيجارتين تم تدخينهما في العلية، ويعتقد المحققون أنهما تعودان إلى القاتل أو القتلة، الذين يبدو أنهم تسللوا إلى المنزل، خلال غياب أفراد الأسرة، وانتظروا حتى عادوا من الكنيسة، وأخلدوا إلى النوم، ليقوموا بجريمتهم.

لم تكن الشرطة متأكدةً من كون الجريمة تمت بواسطة شخص واحد أو مجموعة

من القتلة، كانت الجريمة مروعةً بكل المقاييس، أرعبت المدينة الصغيرة الهادئة، واتجهت الشبهات فورًا نحو أعداء الأب ومنافسيه أو الأشخاص الأغراب عن البلدة، الذين يمكن أن يكونوا قد اقترفوا الجريمة بغرض السرقة أو الاعتداء الجنسي وخلافه!

كان أول من اتجهت إليه الشبهات رجل اسمه «أندرو سوير»، عامل وافد غريب الأطوار، كان ينام وبجانبه فأس، وقد تم تسليمه إلى الشرطة يوم ١٨ يونيو، بعد أسبوع من وقوع الجرائم، لكن ثبت أن «سوير» كان يهيم في مدينة أوسيولا Osceola في ليلة ارتكاب الجرائم، وقُبض عليه هناك، حيث قذفه شريف البلدة في قطار لإخراجه منها، كان ذلك في الساعة الحادية عشرة مساءً.

المشتبه به الثاني كانت قصته أكثر تشويقًا؛ فقد كان الموقر «جورج كيلي» Lyn George Jacklin Kelly الإنجليزي الأصل رجلًا مشبوهًا ومعروفًا بسلوكه الفاحش، وتحرشه بالفتيات والفتيان على السواء، مختلًا عقليًا، وقد كان لحسن الحظ حاضرًا في الحفل، الذي نظمته الكنيسة المشيخية، وحضرته أسرة «مور» وضيفتاها ليلة وقوع الجريمة، وقد غادر «كيلي» المدينة في الخامسة والنصف صباح اليوم التالي، أي: قبل اكتشاف الجثث بوقت قصير.

تم القبض على «جورج كيلي» مرتين، عام ١٩١٤م وثبت أثناء التحقيق خلله العقلي، حيث أودع مستشفًى عقلي في واشنطن، ثم في عام ١٩١٧م تم القبض عليه مرةً ثانيةً، واتُهم رسميًا بجريمة عائلة «مور»، وكانت المفاجأة أنه اعترف، لكنه سحب اعترافه لاحقًا، في المحاكمة الأولى تمت تبرئته، وكذلك في محاكمته الثانية، وأصبح خارج قائمة المشتبه بهم!

جرت ملاحقة عدة مشتبه بهم آخرين بينهم «وليام مانسفيلد» و«هنري لي مور»، اللذين يشتبه في كونهما قاتلين متسلسلين، بالإضافة إلي صاحب العمل السابق لرب عائلة «مور»، وحتى صهر الأب كان أحد المشتبه بهم.

لم تنتهِ التحقيقات أبدًا بالقبض على القاتل الحقيقي، تمامًا مثلما حدث في الجرائم السابقة، وبقيت القضية معلقةً بانتظار حل نهائي ومقبول!

لكن هذا لم يحدث أبدًا، تمامًا مثلما أمل الناس في أن يتوقف القاتل المشعوذ المجنون ولم يتحقق أبدًا، ووقعت عدة جرائم متفرقة أخرى، اقترنت كلها بعلامات مقلقة مثل تغطية وجوه الضحايا، أو تغطية المرايا الموجودة في مسارح الجرائم بقطع من القماش، وبالتزامن وخلال أعوام (١٩١١م و١٩١٩م) ظهر رجل فأس غريب جدًا على بعد أكثر من مئة ميل من نقطة تركز الجرائم السابقة، لم يكتفِ فقط بتهشيم الرؤوس واستهداف فئة عجيبة جدًا من الضحايا، بل إنه الرجل الذي أجبر سكان مدينة أمريكية كاملة على السهر طوال الليل، يستمعون إلى الموسيقى، تنفيذا لأوامره وخوفًا من فأسه القاتل!

القصة الخامسة:

سفاح البقالين: الرابط المفقود!

يتميز القتلة المتسلسلون بما يسمى (الفئة المستهدفة) من الضحايا، والمقصود أن كل قاتل متسلسل يكون له نوع معين من الضحايا يميل إلى التربص بهم وقتلهم، غالبية السفاحين يميلون إلى قتل النساء (خاصةً فئة الساقطات أو العاملات بالدعارة)، بعضهم كان يفضل عارضات الأزياء، أو الراقصات، السفاحات من النساء يملن إلى قتل الرجال الذين تربطهم صلة حب بهن، أو الأزواج والعشاق، وقليل من السفاحين من أحب قتل العجائز (مثل جون جلافر) أو الشبان صغار السن (جون واين جاسي)، وغالبًا ما يكون سفاحو النوعية الأخيرة من الشاذين جنسيًا، لكن نادرًا ما يوجد سفاح متنوع، يقتل الجميع بدون تمييز أو تحديد لفئة مستهدفة معينة، لكن في عام ١٩١٨م ابتُليَت مدينة (نيو أورليانز) بسفاح غريب الأطوار جدًا، وقد اختار ضحاياه من أشد فئات المجتمع المحلي غرابةً وطرافةً ربما، البقالين، وتحديدًا ذوي الأصول الإيطالية منهم!

رجل الفأس من نيو أورليانز Axeman of New Orleans، هو قاتل متسلسل، مجهول الهوية، كثير من المشتبه بهم ولا دليل يقيني يؤكد شخصيته، بداية ظهوره كانت في عام ١٩١٨م، بينما يُرجِع البعض بداية فورة جرائمه إلى عام ١٩١١م، تزامنًا مع تصاعد هجمات الفأس القاتلة في مدن وولايات أخرى، كانت الجريمتان اللتان وقعتا في عام ١٩١١م تخص بقالين إيطاليين أيضًا، أحدهما اتُهم بقتل زوجته، والآخر قيل أن زوجته هي التي قتلته، غير أن التحقيقات فيهما أثبتت أن القصتين كانتا مجرد شائعات، لكن يبدو أن السفاح الجديد كان على معرفة كاملة بتفاصيل القضيتين الملفقتين، أول الضحايا المسجلين لسفاح البقالين المجهول هو «جوزيف ماجيو» وزوجته «كاثرين»، اللذين قُتلا في ليلة ٢٣ مايو ١٩١٨م، اقتحم مجهول منزلهما الملاصق لبيت شقيق «جوزيف» -الذي كان يعمل حلاقا- وذبحهما بشفرة حلاقة، ثم هشم رأسيهما بفأس قُبيل مغادرته، وبرغم تعرض شقيق الزوج المقتول للشبهات، لكن التهمة لم توجه إليه قط!

من العلامات التي أثارت الانتباه في هذه القضية هي أن القاتل خلف ملابسه الملطخة بالدماء في بيت ضحاياه، ويبدو أنه استبدلها بملابس تخص «جوزيف»، وتركه لسلاح الجريمة، الشفرة الدامية في فناء منزل مجاور، كما أن الجريمة لم تتضمن سرقة أي مقتنيات من المنزل، برغم وجود نقود وأغراض ثمينة في مسرح الجريمة (نفس العلامة المحيرة في كل جرائم الفأس).

بعد حوالي شهر، في ليلة ٢٧ يونيو من نفس العام، هوجم «لويس بسيمور» وصديقته «هارييت» في منزلهما، وضُرب كل منهما ببلطة ضربةً شديدةً، أُصيب «لويس» في الجمجمة، وكذلك صديقته، غير أنهما لم يموتا، وُجه الاتهام ضد عامل من أصل إفريقي يعمل في المتجر الخاص بالضحية «بسيمور»، لكن ثبتت براءته، الطريف أن القضية انقلبت في النهاية ضد «بسيمور» نفسه، الذي ظهرت أدلة على تورطه في التجسس لحساب ألمانيا، فتم اعتقاله لمدة يومين فقط، لكن القضية تطورت أكثر مع ادعاء «هارييت»، التي كانت في حالة سيئة جدًا في المستشفى أن «لويس» نفسه هو من ضربها بالفأس!

اعتقل الرجل مرةً أخري، وقُدم للمحاكمة، لكن تمت تبرئته بعد فترة قصيرة من مداولات هيئة المحلفين، وماتت «هارييت» يوم ٥ أغسطس.

لم يتوقف القاتل المجهول، بل بدا أنه يستمتع بالأمر، يوم وفاة ضحيته الثالثة «هارييت» قام باقتحام منزل يخص «إد شنايدر»، حيث لم يكن بالمنزل سوى زوجته الشابة «آنا»، تعرضت الزوجة الحامل وقتها للضرب المتكرر على وجهها، وعثر عليها زوجها، بعد عودته في وقت متأخر، غارقةً في دمائها، لحسن الحظ لم تمت «آنا»، وبعد يومين من الحادث وضعت مولودةً، لم تستطع الزوجة تذكر شيء عن الحادث، برغم أنها لمحت القاتل قُبيل ضربه لها، ولم يكن هناك شيء مفقود من المنزل، اعتقل رجل اسمه «جيمس جليسون» للاشتباه، ولكن الافتقار التام للأدلة أدى إلى إطلاق سراحه، ثم اعتبر المحققون القضية أيضًا ضمن فورة جرائم قاتل الفأس الغامض.

أما حادثة مقتل «جوزيف رومانو» فقد تضمنت أول مشاهدة عيان للسفاح من

قِبل ابنتي أخت الضحية، اللتين كانتا تعيشان مع عمهما، قالت الفتاتان أن المعتدي هو رجل داكن البشرة، يرتدي بذلةً وقبعةً رثةً، وكالعادة كان سلاح الجريمة (الفأس) متروكًا في الفناء الخلفي للبيت الذي وقعت فيه الجريمة، واكتشفت السلطات أن دخول المنزل تم من خلال اقتحام الباب الخلفي للمنزل، توفي «رومانو» بعد يومين من الهجوم، وظهرت للمرة الأولي شكوك علنية حول كون جرائم (نيو أورليانز) مرتبطةً بفورة مذابح الفأس، التي بدأت منذ عام ١٩١١م، وأدت الجريمة إلى حالة ذعر في المدينة، فانهالت البلاغات حول العثور على فؤوس في باحات المنازل الخلفية، وزادت السلطات من قوات الشرطة، وسيّرت دورياتٍ ليليةً مكثفةً، غير أن شخصية القاتل لم يتم اكتشافها حتى الآن.

تواصلت الجرائم:

1.قُتل «تشارلز كورتميجيليا»، وهو مهاجر إيطالي يعيش مع زوجته وابنته الرضيعة، تم اقتحام منزلهم في جريتنا إحدى ضواحي نيو أورليانز، ليلة ١٠ مارس ١٩١٩م، ضُرب الثلاثة فماتت الطفلة على الفور، لكن «تشارلز» وزوجته تعافيا من إصابتهما، شهدت هذه القضية اتهام الزوجة لشخصين يقيمان بالقرب من منزلها باقتراف الجريمة، وحوكم المتهمين وصدرت ضدهما أحكام قبل أن تعترف الزوجة بأنها شهدت ضدهما زورًا، وأُطلق سراحهما، ووجدت الشرطة نفسها مرةً أخرى من دون أي متهم أو مشتبه به.

2.هوجم «ستيف بوكا» في منزله بفأس ليلة ١٠ أغسطس، لكنه تعافى ولم يمت، وللأسف لم يتذكر أي شيء عن شكل مهاجمه.

3.ليلة ٣ سبتمبر هوجمت فتاة في التاسعة عشرة اسمها «سارة لومان» في منزلها، حيث كانت تعيش وحدها، وعثر عليها الجيران جريحةً في فراشها، استعادت «سارة» صحتها، وأيضًا لم تتمكن من تقديم أي معلومات عن الجاني إلى سلطات التحقيق.

4.أخيرًا وفي ليلة ٢٧ أكتوبر سمعت زوجةُ شخصٍ يُدعى «مايك بيبتون» ضجةً، فاستيقظت في سريرها بالقرب من فراش زوجها؛ لترى رجلًا يحمل فأسًا كبيرة

يفر من المكان، لم تتعرض الزوجة للأذى، لكن زوجها كان غارقًا في دمائه، وتغطت الجدران في الغرفة بالدماء المتناثرة، ادعت الزوجة أنها لم تر ملامح القاتل، وتطابقت شهادتها هذه مع إفادات بقية شهود الجرائم السابقة، لكن هل كانت المرأة محقةً هذه المرة، أم كانت تخفي أمرًا؟!

شك المحققون في قولها حول أنها لم تسمع صوت استغاثة زوجها لأن نومها ثقيل جدًا، غير أنه لم تكن هناك أية شبهات تحوم حولها، كان في المنزل أيضًا أولاد الزوجين الستة، ولم يُصابوا بأي أذًى، ولم يُسرق شيء من المنزل مطلقًا.

في الحقيقة سوف يكون لأرملة «بيبتون» قصة حياة مثيرة للغاية بعد موت زوجها الأول، وسوف تتورط هي نفسها في لغز اختفاء زوجها الثاني، بعد انتقالها مع أطفالها إلى لوس أنجلوس، كما ستتورط في جريمة قتل غامضة، اعتبرت دفاعًا عن النفس، وإن صحت نظرية الكاتب الشهير «كولن ولسن» فيكون ضحية مسز «بيبتون» هو نفسه رجل الفأس الذي قتل زوجها.

وبرغم فشل السلطات في القبض على مرتكب جرائم (نيو أورليانز)، فإن القضية شهدت واحدةً من أغرب حالات تسلط السفاحين في تاريخ الجريمة كله، إذ وصل خطاب موقع بلقب (رجل الفأس) يوم ١٣ مارس ١٩١٩م، بعد جريمة تشارلز كورتميجيليا، يزعم كاتبه أنه مرتكب كل جرائم القتل السابقة ويتوعد بالمزيد، متباهيًا بأنه خارق لا يمكن الإيقاع به ولا حتى رؤيته، ثم يهدد بأنه سوف يتفقد المدينة الثلاثاء المقبل، فإذا وجد منزلًا تصدر منه نغمات موسيقى الجاز فإنه سيدع أهله وشأنهم، نُشرت الرسالة على نطاق واسع، فتدافع الناس المذعورون لاستئجار فرق تعزف الجاز في منازلهم في الليلة الموعودة، واشترى الناس أجهزة الراديو، أو واحدًا آخر احتياطيًا إن كانوا يملكون واحدًا، فتحت المسارح أبوابها طيلة الليل، وأُلغيَت كل الفقرات والعروض الأخرى، واقتصر الأمر على موسيقى الجاز فقط، وحتى المحطات الإذاعية المحلية أوقفت برامجها المعتادة، وقدمت وصلاتٍ متتاليةً من الجاز حتى الصباح، كان الخطاب كريهًا ومحرضًا ومزدريًا، ويبدو أن التهديد كان مجرد نكتةً سمجةً، لأنه لم تقع جريمة قتل واحدة في ليلة الثلاثاء المقصودة.

وبرغم كل جهود التحقيق وفحص الأدلة، فإن شخصية (رجل الفأس من نيو أورليانز) بقيت مجهولةً، وكل الأسماء المقترحة هي مجرد تخمينات!

القصة السادسة:

مذبحة في منزل الساحر!

من ضمن أقدم قضايا القتل الجماعي غير المحلولة، وفي سياق فورة مذابح الفأس المرعبة، رغم أنها خارجة زمنيًا عن التحديد الزمني (١٩٠٩م - ١٩٢٠م)، وأشدها غرابةً هي المذبحة التي وقعت ليلة ٣ يوليو ١٩٢٩م، والتي ترافقت مع عناصر إثارة كاملة من شخصية القتيل الغامضة، وعمله كمعالج روحاني وساحر، وغموض جريمة مقتله هو وجميع أفراد عائلته، بالإضافة إلى حقيقة أن الجاني لم يُقبض عليه أبدًا!

وصل «بنجامين إيفانجليستا» إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٤م وهو في سن التاسعة عشرة، استقر في ديترويت، وغيّر اسمه إلى «بيني إيفانجليست» Benny Evangelist، وبدأ عمله كنجار محلي، في نفس الوقت راح يزعم أنه يرى رؤًى من الرب، وبدأ في وضع كتاب يخلط المعارف السحرية بمبادئ الصوفية بالروحانية، وسماه (أقدم تاريخ للعالم) The Oldest History of the World وظهر في أربعة أجزاء، وبدأ يعمل في مجال العلاج الروحاني، ووضع في منزله أجهزةً غريبةً تشكل الكواكب السبعة، وعينٌ غريبةٌ ضخمةٌ تُضيء بواسطة الكهرباء، وكان أجره عن كل جلسة علاج روحاني هو عشرة دولارات، وفي فترة قصيرة جمع المهاجر مجدود الحظ مبلغًا وفيرًا من المال، تزوج «إيفانجليست»، ورُزق بأربعة أطفال.

لا يعرف أحد ما إذا كان «بيني» قد جلب على نفسه عداواتٍ بمعالجته الروحانية، قيل أن عددًا ممن حضروا جلساته كانوا على خلاف معه، أو أنهم أُصيبوا بخيبة أمل، ربما كانت في الأمر شبهة نصب باستعمال الشعوذة، لكن المهم أن السيد «إيفانجليست» لم يتخلَّ عن عمله كنجار، وكان في يوم ٢ يوليو -يوم واحد قبل وقوع الجريمة- قد اتفق على شراء الخشب من منزل يُجرى هدمه، وكان من المفترض أن يأتي صبيحة اليوم التالي لتسلم الأخشاب، لكنه لم يظهر أبدًا، وبدأ الناس يتساءلون عن سبب اختفاء عائلة «إيفانجليست» وشرعوا في دق بابهم للاطمئنان عليهم، وكالعادة في مثل هذه الحالات، بعد أن يئس الناس من الحصول على إجابة، شرعوا في اقتحام المنزل، وهذا ما حدث، وجد الأهالي سيد المنزل في

المكتب جالسًا خلف مكتبه، يداه مطويتان بكامل ملابسه، غير أن شيئًا واحدًا كان ينقصه: هو رأسه!

فقد كان الرأس مقطوعًا ومرميًا على الأرض بجواره، في الطابق الأعلى وجدوا الأطفال -أكبرهم في السابعة وأصغرهم سنة ونصف- مذبوحين في غرفة منفصلة، وفي غرفة النوم الكبيرة وجدوا السيدة «إيفانجليست» قتيلةً، وبجوارها طفلها ذو الثمانية عشر شهرًا مهشم الرأس أيضًا!

كانت الجريمة مروعةً وغريبةً في هذه السنوات، عائلة بأكملها تم ذبحها، لكن لماذا؟!

ظهرت عدة نظريات لتفسير لغز جريمة عائلة «إيفانجليست» والتي وقعت في منزلهم بشارع القديس «أوبين»:

• النظرية الأول: أن الجريمة وقعت رغبةً في نهب المال الموجود بالمنزل، إذ كان لدى العائلة قدر طيب من النقود، لكن طريقة القتل بوحشيتها المفرطة تدل على أن السرقة لا يمكن أن تكون وحدها دافع اقتحام المنزل وقتل من فيه!

• النظرية الثانية: فرضية القتل بدافع الهرطقة: إذ دمغ البعض المعالج الروحاني بتهمة الهرطقة والتجديف؛ نتيجة بعض ما جاء في كتابه المذكور، والذي اعتبره البعض محاولةً لوضع كتاب مقدس جديد!

• النظرية الثالثة: فرضية القتل الطقوسي أو السحري: وهي أكثر النظريات رهبةً وإثارةً، إذ يظن بعض دارسي القضية أن أسلوب القتل -الذبح وتهشيم الجمجمة وفصل الرأس- يشير إلى جريمة طقوسية، ربما نفذها البعض للتخلص من تأثير سحري للروحاني غريب الأطوار، أو لعله من عمل بعض المضارين من علاجاته الغريبة!

• النظرية الأخيرة: وربما أقربها إلى الواقع، هو الذي يربط جريمة عائلة «إيفانجليست» بسلسلة الجرائم الدموية التي شهدتها ولايات لويزيانا وتكساس بين عامي ١٩١١م و١٩١٢م، وتضمنت ذبح عائلات بأسرها خلال نومها، واستعمال الفأس

في الإجهاز على الضحايا، تلك الجرائم المرعبة التي انتشرت شائعاتٌ ربطتها بكاهنة فودو مشوهةٍ، تمارس السحر الأسود، وتقدم ضحاياها كقرابين للشيطان، وجماعة عبادة سرية مخيفةٍ، التي اتُهم فيها عدة أشخاص، قبل أن تتبين الحقيقة المفجعة والغريبة، إذ إن القاتل المتوحش الذي هاجم عائلاتٍ بأكملها وذبحهم من الوريد إلي الوريد، أو حطم رؤوسهم بفأس تاركًا إشاراتٍ طقوسيةً وأحيانًا مقاطع من الإنجيل مكتوبة على الجدران بالدم، لم يكن سوى امرأة!

«كليمنتين بارنابي» Clementine Barnabet، التي ارتكبت عدة جرائم قتل جماعية، كانت حصيلتها خمسة وثلاثين ضحيةً، والتي حامت الشبهات حول والدها في البداية، لكن وقوع جريمة جديدة أثناء حجزه من قبل الشرطة أدى إلى التأكد من كونه بريئًا، في النهاية اعترفت ابنة الثامنة عشرة بأنها هي السفاحة، وبررت جرائمها بتلقيها قوًى سحريةً من قبل كهنة كنيسة المسيح المقدسة، تجعلهم قادرين على الاختفاء، بواسطة تلك القوى تمكنت من دخول المنازل والإجهاز على سكانها كلهم، قُبض على «كليمنتين» عام ١٩١٢م، وبقيت في السجن حتى عام ١٩٢٣م! ثم أُطلق سراحها لتختفي تمامًا بعدها، وإذا ما تجاهلنا ادعاءات «كليمنتين» غير القابلة للتصديق فهل يمكن اعتبار روايتها محض هراء وجنون من فتاة غير سوية عقليًا؟! هل يكون شقيقها «زفيرين» الذي شهد زورًا ضد أبيه حين تم اتهامه بجرائم القتل بالفأس هو القاتل الحقيقي، وقد أقنع أخته بالاعتراف بتلك الجرائم ليفلت هو من العقاب؟! في كل الحالات يبقى سؤالان هامان:

1.إذا كانت «كليمنتين بارنابي « كاذبةً في قصتها فكيف كانت تلك العائلات كلها - وفيها رجال أقوياء ونساء في سن الشباب- تتعرض للقتل في أسرّتها دون أن تظهر علامة مقاومة أو محاولة استغاثة واحدة؟!

2.إذا كانت جريمة عائلة «إيفانجليست» ليست من عمل «بارنابي» فمن هو المجرم الذي نفذها إذًا؟!

كلها أسئلة بدون حل، وحتى مصير «كليمنتين بارنابي» عقب خروجها من السجن يبقى مجهولًا حتى يومنا هذا، ولا أحد يعرف ما إذا كانت قد واصلت تقديم قرابينها

الدموية أم لا؟!

التضحية:

مذابح من أجل إرضاء الشيطان!

شهد العالم عدة جرائم دامية ومروعة مرتبطة بالشعوذات والسحر الضار، والرغبة في استرضاء الشياطين؛ للحصول على القوة والمال والخلود أو العمر الطويل، كانت كل تلك الجرائم تتم بأيدي مختلين دينيًا وعقليًا، أو مجهولين لم يتم الإيقاع بهم قط، ورغم قسوتها ووحشيتها الشديدة فإن كل تلك الجرائم كانت في سياق عقائدي وطقوسي منحرف ومشوه بشدة، حد أن الأفكار التي كانت تقف خلفها بدت وكأنها مستساغة أو مفهومة بقدر معين لدى بعض غير الأسوياء نفسيًا وعقليًا، لكن أن توجد امرأة تقوم بقتل وسلخ وتعذيب الأطفال، بل واستخدام دمائهم وشحومهم في صنع وصفات وجرعات سحرية فهذه المرأة ومن على شاكلتها من المستحيل أن يكونوا أي شيء آخر سوى تجسيد حي ومثالي للشيطان!

«أنريكيتا مارتي أي ريبولياس»

Enriqueta Martí i Ripollés

أنريكيتا: المرأة التي فاق شرها شرور الشيطان بجلال قدره!

واحدة من الناس الذين يمكن أن نقول -بضمير مرتاح تمامًا- إنهم تجسيد حقيقي للشيطان، وُلدت هذه السفاحة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في فقر مدقع في كاتالونيا الإسبانية، ودفعها الفقر أولًا إلي امتهان مهن شريفة، كالخدمة المنزلية ومربية أطفال، ثم انحرفت إلي الدعارة، ولكن برغم عملها الشائن هذا لكنها تزوجت عام ١٨٩٥م، وهي في الثامنة والعشرين من عمرها برسام اسمه «خوان بوخالو»، والذي حاول فيما يبدو تقويمها دون فائدة، وانفصلا ورجعا إلى بعضهما أكثر من مرة، ولكن الزوجة غير المخلصة كانت قد بدأت عملها الخاص، فافتتحت بيتًا للدعارة في عام ١٩٠٩م، وهناك بدأت عبقريتها المؤذية تتمخض، فلم تكتفِ بتقديم الخدمات العادية للزبائن، بل بدأت في تلبية مطالبهم غير العادية، وكان أولها توفير الأطفال للزبائن المصابين بالغلمانية والبيدوفيليا!

كانت تختطف الأطفال من الأحياء الفقيرة، أو تستغل فرصة وجود طفل وحيد بدون مراقبة من ذويه وهكذا، وتجنبًا للمشكلات مع الشرطة كانت تركز على أكثر الأحياء فقرًا وحاجةً؛ حيث تمتلئ الشوارع والمئاتم بالأطفال الذين لن يسأل أحد غالبًا عنهم!

لم تكن هذه نهاية المطاف ولا آخر ما وصلت إليه شرور «أنريكيتا»، التي برغم مداهمة شقتها والعثور على مجموعة من الأطفال محتجزين فيها تحت الطلب لخدمة دعارة الأطفال، كان أكبرهم في الخامسة عشرة، بينما أصغرهم لا يتجاوز الخامسة من عمره، وإلقاء القبض عليها، فإن العاهرة الذكية قد أُخلي سبيلها، ولم تصل قضيتها إلي المحكمة، وذلك بفضل زبائنها الأثرياء وذوي النفوذ!

في الحقيقة فإن «أنريكيتا» لم تكن تقدم الخدمات الجنسية فقط لزبائنها، والأطفال لم يكونوا بغرض المتعة فقط، بل كان هناك جانب أهم وأكثر سوداوية في تلك القصة الشائنة.

كانت المرأة -إلى جانب مهنتها المُعلنة الحقيرة- تدّعي كونها ساحرةً ومعالجةً بالوصفات والجرعات السحرية، وراحت تبيع لزبائنها خلطاتٍ ومستحضراتٍ، بعضها زعمت أنه ترياق لعلاج السل -الذي كان يشكل كابوسًا للناس في تلك السنوات المبكرة من القرن العشرين- أو كريمات وأدهنة للحفاظ على الشباب ونضارة الجلد، هذه الوصفات والجرعات لم يكن الأطفال الذين تستغلهم الشيطانة القاسية بمعزل عن تحضيرها؛ إذ كانت دماؤهم وشحومهم تُستخدم في صنعها!

من بين قواعد السحر الأسود -الذي كانت «أنريكيتا» تمارسه بحسب زعمها- استعمال الشحوم والدماء في صنع وصفات خاصة، ودماء وشحوم الأطفال تعتبر المفضلة في هذا المجال، إذ يُعتقد أنها تحافظ على النضارة وتعيد الشباب، وتمنح القوة لمن يستعملها وهكذا، حتى جميلات برشلونة كن يحصلن على كريمات لبشراتهن ويدفعن فيها الثمن الباهظ، رغم أنهن يعرفن حق المعرفة طبيعة المواد الداخلة في هذه التركيبات السحرية!

عدد لا يُحصى من الأطفال ما بين الثالثة والخامسة عشرة اختطفتهم عنوةً من

الشوارع، أو استدرجتهم بوعود طيبة، معتمدةً على فقرهم وشدة حاجتهم، وذهبوا إلى داخل ضفيرة شققها الكثيرة المنتشرة حول المدينة، ولم يظهر لهم أثر مرةً أخرى، حيث ذهبوا مباشرةً إلى وعاء الطبخ، واستعملت شحومهم وحتى عظامهم وشعرهم في تحضير وصفات الشباب الدائم وإطالة العمر لسادة وسيدات المجتمع الراقي!

أما دماء الأطفال فكثيرًا ما كانت تُشرب طازجةً من قبل هؤلاء المجانين كعلاج ناجع، مثلما أقنعتهم راعيتهم المجردة من كل رحمة، ووحيد لمرض السل، وكان ذلك يتم وهؤلاء الزبائن على علم كامل بمصدر هذه الدماء!

لم يُعرف تحديدًا متي بدأت «أنريكيتا» في الإيقاع بالأطفال وقتلهم واستعمال أجزاء من جثثهم؛ لذلك يظن البعض أنها خطفت وقتلت عددًا غير معروف من الأطفال، قد يتجاوز كل الأرقام التي خمنها الدارسون لقضيتها، ولكن برغم ذلك فإن أفعالها الشائنة كان لا بد لها من نهاية.

وقد جاءت هذه النهاية في العاشر من فبراير ١٩١٢م، حينما اختطفت المرأة الطفلة «تريزيتا جيوتارت» من ضواحي المدينة، وأخذتها بعيدًا لتضعها في أحد أوكارها المتناثرة في كل مكان، لكن هذه المرة كانت مختلفةً، إذ إن والدي الطفلة أقاما الدنيا، وراحا يبحثان عن ابنتهما في كل مكان، ومع تقاعس الشرطة اشتعل الغضب الشعبي في المدينة، وتم نشر أوصاف الطفلة المختفية في كل مكان، لحسن حظ البنت التي شجنت مع طفلة أخري حكت لها ما ينتظرهما من مصير مرعب، أن جارةً فضوليةً كانت تقطن بالقرب من الشقة التابعة لشيطانة برشلونة، ولاحظت وجود فتاة صغيرة تتطلع عبر نافذة الشقة، ويبدو عليها معالم الحزن والجزع، كان ذلك يوم ١٧ فبراير، ولاحظت الجارة الشبه بين الطفلة والأوصاف التي أُعلنت في كل مكان للفتاة المخطوفة «تريزيتا»، سارعت الجارة واسمها «كلاوديا إلياس» بإخبار جار لها، يعمل صانعًا للمراتب والأسرّة، والذي نقل الخبر بدوره إلي وكيل البلدية الذي أبلغ أحد المسؤولين الكبار، ومن هنا بدأ التحرك للتحقق من شكوك الجارة!

متذرعين بمخالفة تافهة، بحث عميلان من شرطة المدينة عن مالكة الشقة، التي

هي «مارتي»، وعندما وجداها قالا لها إن الجيران يشتكون من الدجاج الذي تحتفظ به في شقتها المذكورة، ذهبت معهما المرأة دون اعتراض، وفي الشقة عثرا على الفتاة المختفية «تريزيتا»، بالإضافة إلى بنت أخري تُدعى «أنجليتا».

كانت الشيطانة المجردة من الرحمة تقوم باحتجاز البنتين، وقصت شعرهما وتركتهما بلا عناية أو نظافة، وكانت تطعمهما النذر اليسير، وكان يبدو أنها تخطط لقتلهما واستعمال دمائهما وشحومهما في أقرب وقت، غير أن تدخل الجارة جعل القصة تنتهي لصالح الطفلتين، بعد أن وجدوا الفتاتين، وجواب صاحبة الشقة غير المقنع على أسئلة المفتشين، قاما بتفتيش الشقة، فعثرا على ملابس تخص أطفالًا ملطخة بالدماء، قناني صغيرة مملوءة بالدم، بقايا بشرية من عظام وأسنان وجلد، مسحوق مصنوع من العظام البشري، وغيره وغيره!

فورًا اعتُقلت «أنريكيتا» ونُقلت إلى مركز الشرطة، وبدأت فصول قصتها -التي روعت إسبانيا كلها وشغلتها عن كل المسائل الأخرى- تظهر تباعًا.

لم تكن أوكار مصاصة دماء برشلونة -وهو اللقب الذي أطلقته الصحف على «أنريكيتا مارتي أي ريبولياس»عن جدارة واستحقاق- إلا أوكارًا للموت والرعب، بقايا بشرية من كل نوع، كتب سحرية وطلاسم ورموز مرعبة وغير مفهومة، مخطوطات قديمة مجهولة، ملابس ملطخة بالدماء، ما يشبه المطابخ المخصصة لغلي وفصل عناصر أجسام ضحاياها تحوي قدورًا كبيرة الحجم، عظام بشرية يقدر عددها بثلاثين عظمة متنوعة، عند تجميع العظام والبقايا كان عدد ضحاياها يقدر باثني عشر طفلا، وهو عدد نعده قليلًا جدًا؛ إذا أخذنا في الاعتبار العدد الهائل الذي يمكن أن تكون قد تخلصت من بقاياه تمامًا وفي مدافن مجهولة لم يُعثر عليها قط!

لكن في وسط كل هذه الأدلة الدامغة وُجد شيء مزعج ومثير للقلق، إنه ثبت بأسماء المتعاملين مع السفاحة، وزبائن كريماتها ووصفاتها والمستفيدين من خدماتها الكثيرين، وقد كان جل هؤلاء -إن لم يكن كلهم- من صفوة المجتمع ومن أعلى وأهم الطبقات الاجتماعية فيه بينهم أطباء ومصرفيون ورجال سياسة!

كان تقديم هذا الدليل الأخير خاصةً جديرًا بإحداث فوضى عارمة، وحالة غليان

شعبي ضد طبقة الأرستقراطية والنبلاء، وهكذا أضحت الكلبة المخلصة تهديدًا بالنسبة لسادتها، الذين طالما قدمت خدماتها الشيطانية لهم.

أنريكيتا: حتى الشيطان لم يكن بمستوى شر هذي المرأة!

حاولت الشرطة التكتم على القائمة الخاصة بزبائن السفاحة، لكنها سُربت بشكل ما إلى الصحف، فحاولت الشرطة الادعاء بأن الأسماء المذكورة في القائمة استفادوا من خدمات السفاحة، واشتروا وصفاتها دون أن يعلموا بمحتواها، أو المصدر الذي تستمد منه موادها الخام الثمينة، في كل الحالات كان الأمر خطيرًا ومقلقًا جدًا، فبدأت محاولات التخلص منها داخل السجن.

كان أولها محاولتها الانتحار بقطع معصميها، غير أنها نجت من تلك المحاولة، ولكن بعد مرور سنة وثلاثة شهور على سجنها في سجن الملكة آماليا، وفي يوم ١٢ مايو ١٩١٣م، وُجدت مصاصة دماء برشلونة ميتةً، كانت القصة المعلنة أن زميلاتها الغاضبات في السجن والمتقززات من جرائمها المروعة قمن بقتلها وتنفيذ الإعدام فيها خارج نطاق القانون، أما شهادة وفاتها الرسمية فسجلت سبب الوفاة هو سرطان الرحم!

هلكت «أنريكيتا مارتي» عن خمسة وأربعين عامًا تقريبًا، وجرى دفنها في قبر مشترك في مقبرة جبل مونتجويك ببرشلونة.

وبالرغم من الأدلة الكثيرة التي كشفت جرائم هذه السفاحة منقطعة النظير، التي لا يوجد تقريبًا من هو في مثل شرها وقسوتها، فإن موتها الغامض طوى صفحاتٍ أخرى عديدةً كان يمكن كتابتها في قصتها، لم يُقدّم أحد من زبائن مصاصة دماء برشلونة قط للمحاكمة، وكذلك زميلاتها في السجن واللائي قيل إنهن أقدمن على التخلص منها، بعد أن دفع لهن زبائنها المرعوبون مقابلًا ماديًا سخيًا لقاء التخلص منها، قبل أن تفضح أسرارهم الشائنة على رؤوس الأشهاد في المحكمة.

مذبحة سحرية بنكهة عربية:

لغز مجزرة عزبة شمس الدين

لا يزال دون حل!

ليس من الشائع التطرق إلى حوادث وقضايا جرت على أراضٍ عربية ضمن قوائم القضايا المتعلقة بالسحر والشعوذة والخيمياء، لكن الحقيقة فإن للثقافة العربية باعًا طويلًا في شؤون السحر والفنون السوداء المختلفة، وللثقافة العربية نوعها الخاص والفريد من الدجل، ألا وهو السحر المرتبط بفتح واستخراج الدفائن والمقابر الأثرية، ينتشر هذا الأمر خاصةً في مصر التي تشتهر بميراثها الضخم من اللقى والمقابر الأثرية الزاخرة بنفائس تاريخية لا تُقدّر بثمن.

اشتهرت مصر بميراثها الأثري والمتاجرة فيه منذ القدم، لكن أشهر قضية وحدث لفت الأنظار إلى تلك الكنوز المحجوبة وأهميتها المادية العالية كان اكتشاف خبيئة الدير البحري طاغي الشهرة.

كانت تلك الخبيئة واحدةً من عجائب التاريخ الكبرى، فبينما كانت مصر تواجه تدخلًا أجنبيًا متزايدًا في شؤونها، وترزح تحت ميراث غليظ وتستعد لحقبة الاحتلال الإنجليزي السوداء، كانت ثمة عائلة مصرية صميمة في قرية القرنة، غرب الأقصر تعاني خلافاتٍ وتناحرًا داخليًا، ولم يتخيل أحد أن خلافًا عائليًا بين «محمد عبد الرسول» وإخوته سيفتح الباب أمام أعظم كشف أثري في التاريخ الحديث كله، بصفة عامة، ومنذ وضع العالم يده على كنوز الخبيئة المذهلة عام ١٨٨١م، حتى اجتاحته حمى البحث عن كنوز وآثار الفراعين المدفونة، ولكن لما كانت سمعة المقابر المصرية القديمة بوصفها مستودعاتٍ للكنوز، يقوم على حراستها جند خفيّت من المخلوقات فوق الطبيعية، أو ما يُسمون بالجن، فقد ظهرت تجارة أخرى موازية، وهي تجارة فتح تلك الدفائن باستعمال فنون السحر المضاد للتغلب على قوى الجن الراصد الحارس، وكان من أشد تلك الطرق فاعليةً ونجاحًا هو تقديم أضحية بشرية على باب المقبرة المنشودة!

كثيرة هذه الحوادث التي حصل فيها اختفاء لأحد الأشخاص، ثم أشيع أنه خُطف ليكون قربانًا داميًا للجن المتعطش للدماء، مقابل التصريح للباحثين المتلهفين بوضع أيديهم على الكنوز الهائلة، لكن ذلك الأمر لا يهمنا منه إلا نقطة واحدة، وهي حادثة بني مزار (عزبة شمس الدين)، التي سنحللها منطقيًا وجنائيًا لنعرف على وجه اليقين ما إذا كانت لها صلة بأمر تقديم القرابين البشرية، أم إنها شيء مختلف تمامًا؟!

لعل كثيرين -خاصةً من وُلدوا في ثمانينيات وتسعينيات القرن المنصرم- يذكرون جيدًا تلك الحادثة الأشهر، التي هزت الأوساط المصرية كلها، وأحدثت حالة تخبط وبلبلةً وفوضى في التعليل، والبحث وراء المسببات والدوافع، حين استيقظت قرية مصرية صغيرة، بقعة دافئة تقع في شمال الصعيد، على أخبار مروعة لا يمكن أن يصدقها أحد، بدأ اللغز الكبير باكتشاف جثتي أم مسنة ونجلها من قبل ابن المجني عليها الثاني، بعد لحظات وجدت فتاتان أربعة أفراد من عائلتيهما، الأب والأم وأخوين (أخًا وأختًا) جثثًا هامدةً أيضًا، وفي توقيت مقارب وجد طالب في المرحلة الإعدادية والديه وأخاه وأخته جثثًا أيضًا، وبلغت المأساة ذروتها بوفاة الطفل المسكين رعبًا وهلعًا وحزنًا في نفس الساعة، وفي حصيلة نهائية بلغ عدد ضحايا مجزرة الخميس التاسع والعشرين من ديسمبر عام ٢٠٠٥م عشر ضحايا، وإحدى عشرة بإضافة الولد المسكين الذي مات حزنًا على عائلته، كانت طريقة القتل متشابهةً ومتماثلةً، القتل ذبحًا، ثم تشويه الجثث، كانت عملية التشويه منظمةً جدًّا وموحدةً، لم تكن مجرد عبث عشوائي بأجساد القتلى، بل كانت كل ضحية تتعرض لبقر بطنها، ثم قطع عضوها التناسلي إن كان الضحية ذكرًا، أو تشويهه إن كانت أنثى!

كان ذلك حدثًا ربما لم تشهد مصر مثيلًا له من قبل، حادثًا نشر الرعب والفزع في كافة أنحاء البلاد، أما في مسرح الجريمة نفسها -عزبة شمس الدين- فقد ظل رجال العائلات يحرسون بيوتهم وأسرهم كل ليلة مدججين بالسلاح زمنًا بعد الحادث المروع.

كانت مسارح الجريمة الثلاثة تحمل سماتٍ مميزةً، فسوى التشويه الموحد كانت كل المنازل المنكوبة الثلاث في شارع واحد، لغز آخر يرتبط بوجود أفراد آخرين

في مسارح الجريمة لم يتم قتلهم، لكنهم -وهذا غريب جدًا- لم يسمعوا شيئًا أثناء ساعات الليل، ولم يلاحظوا شيئًا غريبًا حتى اكتشاف الجثث المضرجة بدمائها في الصباح، استمر اللغز وتعاظم مع اختفاء الأعضاء التناسلية المبتورة من مسارح الجرائم، إضافةً إلى أمر غريب جدًا، وهو تعرض الحمام والطيور المنزلية التي كانت تُربي على أسطح منازل الضحايا -كما هي العادة في الريف والمناطق الشعبية- للذبح أيضًا، والأغرب أنه لم تكن توجد لا علامات كسر أو اقتحام لمنازل الضحايا، ولا دلائل على المقاومة أو محاولة الدفاع من قبل أحد المغدور بهم، رغم وجود ثلاثة رجال بالغين وأصحاء، واحد في كل منزل تعرض سكانه للقتل والذبح!

كان اللغز محيرًا، والمصاب عظيمًا، التفسيرات الاعتيادية لم تكن لتشفي الغليل، أو تجيب على سلسلة الأسئلة المحيرة والغامضة:

1. كيف دخل الجاني كل بيت دون علامات كسر أو تحطيم أو اقتحام؟

2. كيف لم يقم أي فرد من ضمن الضحايا بمقاومة المعتدي؟

3. كيف لم يشعر الضحايا بدخول الجاني، أو بقيامه بقتل آخرين أثناء نومهم، مع أنه في اثنتين من الجرائم كانت هناك أكثر من ضحية قُتلت في نفس الغرفة؟

4. كيف لم يحس أفراد المنزل الآخرون بحدوث المجزرة؟

5. كيف أخذت الأعضاء المبتورة بعيدًا؟

6. لماذا تم تشويه وبتر الأعضاء التناسلية تحديدًا؟

7. كيف خرج الجاني وانتقل من بيت إلى بيت دون أن يشعر أحد في الشارع كله؟

8. كيف ذهب القاتل دون أن يترك دليلًا أو أثرًا خلفه؟

9. ما سبب ذبح الحمام في مسرح أحد الجرائم؟ ولمَ كلف الجاني نفسه مشقة التخلص من بضع حمامات لا يمكن أن تشي به أو ترشد إليه؟

10. لماذا أختير هؤلاء الضحايا تحديدًا، رغم وجود فوارق واختلافات وتباينات كبيرة بينهم، ذكور وإناث، أشخاص بالغون وأطفال، امرأة مسنة؟

11. إذا كانت جميع البيوت التي تعرضت لتلك الجرائم الرهيبة لم يُسرق أو يُختلس منها شيء فلماذا تم تنفيذ المذبحة؟

12. وأخيرًا اللغز الكبير، هل يُعقل أن شخصًا واحدًا -مهما كانت قوته البدنية أو ذكاءه وقدرته على التخطيط والتنفيذ- يستطيع أن يقتل هذا العدد الكبير من الضحايا في ليلة واحدة، مع ما هو معروف بأن الضرب العنيف والذبح وبقر البطون، وانتزاع الأعضاء يحتاج كلها إلى قوة بدنية، وجهد يجعل تكرار نفس السيناريو في ذات الليلة، ومن قبل نفس الشخص، مستحيل من أي وجهة نظر كانت!

قائمة مرعبة من الأسئلة والألغاز، لكن القوى الأمنية بذلت أقصى جهدها واضعةً كل التفسيرات الممكنة في اعتبارها.

ظهر خليط كبير من الشائعات والأقاويل والتفسيرات، وكان لهول الحادث وضخامته أثر كبير في تحويله من جريمة قتل وتشويه جماعية إلى قضية رأي عام بامتياز، كانت كل الاحتمالات قائمةً، وخاض الوعي الشعبي في بحاره المألوفة، فظهرت شائعات حول كنز مصري قديم مرصود، أي: عليه رصد أو حارس من الجن، وأن الحارس طلب قربانًا من عشرة قتلى، خمسة رجال وخمس إناث، إضافةً إلى خمسة أفراد من الحمام تُذبح وتُقدّم قربانًا مع الأعضاء الذكرية والأنثوية المنتزعة، إضافةً إلى افتراضات وتحليلات رجال الأمن والفحص الجنائي العلمية والمنطقية.

تواصلت تحقيقات رجال الأمن، ونشطت عمليات البحث والتقصي، وتمت مناظرة واستجواب بعض الأقارب للشبهة من سكان القرية، مثل المجرمين أو المختلين عقليًا أو الأشخاص المهتزين نفسيًا.

وسرعان ما تم وضع اليد على ثلاثة مشتبه بهم من أهل العزبة، كلهم من المهتزين نفسيًا، وحين عثرت قوات الأمن على جلباب وفردة حذاء ملطخين بالدماء ظن الجميع أن الإيقاع بالجاني قد صار قريبًا جدًا، وأخيرًا أُعلن عن القبض على الجاني، أو المشتبه به الأول، بقية القصة تكاد تكون معروفةً للجميع، بدايةً من اتهام «محمد علي أحمد عبد اللطيف»، الشاب ذو السبعة والعشرين عامًا والذي يعاني عاهاتٍ

نفسيةٌ يُعَالج منها منذ فترة، بجرائم القتل العشرة، ونهايةً بالحكم الصادم الذي صدر في ٦ سبتمبر عام ٢٠٠٦ معلنًا تبرئته من جميع التهم الموجهة إليه، استنادًا إلى عدة دلائل كلها تشير إلى أن الجريمة تمت بمعرفة عدة أشخاص، يملك أحدهم أو بعضهم مهارةً جراحيةً فائقةً، كما أن فردة حذاء ملطخةً بالدماء وُجدت في مسرح أحد الجرائم الثلاث، وثبت عدم رجوعها إلى أحد المقيمين في المنزل المنكوب، كان مقاسها أصغر من مقاس المتهم بثلاث درجات، أي: إنها لا تخصه ولا تناسبه قولًا واحدًا، ومع ذلك الحكم الناجز أُغلقت القضية لتبقى بدون حل حتى يومنا هذا!

خلفية مهمة: الجن يحرقون منازل البلينا!

قبل تلك المذبحة المروعة بسنوات قليلة شهد مركز البلينا، الواقع في محافظة سوهاج جنوبًا، والمشهور بعمليات التنقيب عن المقابر المصرية القديمة، خاصةً في حدود قرية العرابة (أبيدوس)، ظاهرة غريبة جدًا، وهي ظاهرة الحرائق المدمرة المفاجئة التي كانت تقضي على بيوت بكل محتوياتها، وتهدد زمام قرًى بأكملها، وترافقت تلك الحرائق التي تركزت في مجموعة قرًى في جنوب المركز، خاصةً قرية

الحجز والقرى القريبة منها، مع أحداث وشائعات غريبة، فشهد عدد ممن وقعت تلك الحرائق في منازلهم أو بالقرب منها، برؤية أجسام طائرة مشتعلة، تشبه الطيور الصغيرة، تحط على أسطح بيوتهم، التي كانت عادةً مغطاةً بالبوص والحطب، ولا تلبث النيران أن تندلع في الأسطح، ومنها إلى بقية أجزاء المنزل، وأحيانًا كثيرةً تمتد الحرائق إلى المنازل المجاورة، تطورت الشائعات التي تبرر ظاهرة الحرائق الفجائية المكررة، حتى اصطدم بعضها بأمور عقدية وطائفية لا يصح مناقشتها أصلًا!

شائعات أخري أشد غرابةً تكلمت عن مسحوق يتطاير في الجو فوق القرى المنكوبة، وما يكاد يلمس حطبًا أو بوصًا إلا وأشعله مسببًا حريقًا مدمرًا، ظهرت شائعة تتكلم عن مسحوق حارق أيضًا في حادثة قطار الصعيد الشهير (قطار العياط)، التي وقعت عام ٢٠٠٢م، وقضى فيها أكثر من ٣٥٠ مواطنًا نحبهم حرقًا، وسمعت شخصيًا كثيرين يروون أمامي قصص الناجين من القطار، الذين يدّعي بعضهم رؤية نثار مسحوق أبيض منتشر فوق أرضية القطار قبيل اندلاع النيران فيه،

كانت تلك الشائعات تملأ البلينا وقراها، ويؤمن بها الكثير من الناس، ومع وجود بقعة أثرية هامة جدًا في العرابة، فقد كان كل شيء في النهاية يعزى إلى سبب واحد: الآثار وانتهاك حرمة مقابر المصريين القدماء!

في نفس السياق يوجد أمر آخر موازٍ يرتبط بمركز البلينا تحديدًا، وهو أسطورة الماعز الناري أو الشيطاني، الذي يسبب الحوادث المرورية المكررة قرب مدخل إحدى القرى جنوب المركز، والتي تتمتع بسمعة معروفة كأكثر مكان تتدحرج فيه السيارات وتنقلب دون سبب محدد، وقيل على ألسن بعض السائقين الذين يقودون على هذا الطريق خلال ساعات الليل، أنهم رأوا كائنًا يشبه الجدي يظهر لهم فجأةً من زاوية الطريق، وعيناه تشعان بلهيب ناري، مما يخيف بعضهم ويفقده القدرة على التحكم في عجلة القيادة!

لكن هل يمكن أن تكون لمذبحة عزبة شمس الدين علاقة مباشرة، أو غير مباشرة بقصص فتح المقابر الفرعونية عنوةً، ومحاولات التغلب على الرصد والسحر الحامي الذي يحرس المقبرة؟!

كلها أسئلة مشروعة جدًا، برغم أن بعضها قد يخالف المنطق أو العقل، لكن في كل ذلك الركام من التفسيرات المنطقية أو الفوق طبيعية، هناك نقاط واضحة كل الوضوح، وعند عرضها والتأكيد عليها يمكننا أن نقر بأن تلك المذبحة لا تزال لغزًا حتى يومنا هذا:

1.من المستحيل أن يرتكب شخص واحد تلك المذبحة وحده، وفي ليلة واحدة، فمن المحال حتى طبقًا لأبسط نظريات وأسس العلوم الجنائية، أن يسيطر شخص واحد على مسرح جريمة يضم عدة أفراد، منهم ذكور وبالغين، ويرتكب كل جرائمه بنظام وهدوء، دون أن تكون هناك مقاومة أو محاولات استغاثة.

2.يبدو أن هناك نمطًا موحدًا في اختيار الضحايا في تلك الجرائم الثلاث، رجل بالغ واحد، أنثي بالغة واحدة، وطفل أو طفلين، في مسرح الجريمة الثاني تُركت فتاتين، كانتا تنامان في غرفة فوق السطح، حيتين وسليمتين، وكأنهما كانتا زيادةً عن العدد أو النسبة النوعية المطلوبة!

3.وفقًا لنظرية السلطات الأمنية فإن الجاني أو الجناة اقتحموا المنازل من الأسطح، فكيف تم ذلك دون أن تتم الاستعانة بأدوات مساعدة، حبال أو سلالم، وإذا استُغلت الأسطح المجاورة للقفز على المنازل المقصودة، فكيف لم يسمع أصحاب المنازل المجاورة أية أصوات، أو يلحظوا أية خطوات غريبة، لاحظوا أننا نتكلم عن منازل ريفية، تكون عادةً مليئةً بالحيوانات المنزلية، والأسطح نفسها مكسوة بالخشب، الذي يصدر أصواتًا واضحةً عند التحرك فوقه.

4.بعد تبرئة المشتبه به الوحيد في المذبحة، من المدهش أنه لم يتم القبض على أحد، أو توجيه التهمة لأي فرد أو مجموعة من الجناة، مما يقطع بأن من نفذ المذبحة أشخاص محترفون كل الاحتراف، ولم يخلفوا وراءهم قطعةً واحدةً من الأدلة الجنائية، التي يمكن أن تقود إليهم!

5.بقاء تلك الجريمة المروعة دون حل حتى لحظة كتابة هذه السطور يعني شيئًا واحدًا، أنها ستحتاج إلى سنوات طويلة قادمة للوصول إلى حل اللغز، أو ببساطة أنها لن تُحل أبدًا، وذلك يعني ما يعنيه!